سندباد في عُمان

يوسف الشاروني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

سندباد في عُمان

الإخراج الفني : سعد عبد الوهاب
الغلاف والرسوم الداخلية : محمد قطب

الإهـــداء

إلى ســـلطنة عُمان

التي وهبتني منجماً من المعرفة
فلا أقل من أن أرد إليها على هذه الصفحات
بعض بريق كنوزها .

تحية

إلى سلطنة عمان

عُمان ـ كانت منذ سالف العصر والأوان ـ صراع بين البحر والبر ، بين الجبال والوديان ، بين ساحل تضاعف من حرارته رطوبة البحر ويرطب منها تفتحه على العالم ، وداخل يتلظى بلهيب الشمس ويعزلة ـ كانت من قديم الزمان ـ موحشة قاسية جعلته يتوجس من الدخيل ويستريب من الوافد .

عُمان جزيرة طولها ألف ميل (بين خطي عرض ١٦ ، ٢٦ شمالا) تقع بين بحرين ، بحر من الماء المالح شرقا (البحر العربي جنوبا وخليج عمان شمالا) وبحر من الرمال غربا (الربع الخالي) .

تاريخها ـ كجغرافيتها ـ منخفضات ومرتفعات . مد فانحسار ، وركود فازدهار . غزاها الفرس والبرتغاليون وغيرهم ، وجميعا طردتهم أو هضمتهم : مالك بن فهم طرد الفرس في القرن الثاني الميلادي (وندل فيلبس ، تاريخ عمان ، ١٨٩١ ، صفحة ١٦) أو في القرن السادس الميلادي (تاريخ أهل عُمان ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، ١٩٨٠ ، الهامش صفحة ١٥) . وناصر بن مرشد بن سلطان اليعربي في النصف الأول من القرن السابع عشر بدأ بطرد البرتغاليين وأتم طردهم ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي في يناير ١٦٥٠ بينما لاحقهم ابنه سيف حتى ساحل افريقيا الشرقي . ثم وصلت عُمان على يد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٧ ـ ١٨٥٦) إلى أوج قوتها واتساعها وثروتها حتى أصبح البحر وسيلة وصل

لا فصل ، فامتد حكمه من ساحل افريقيا الشرقي حتى بندر عباس بإيران وميناء جوادر وساحل مكران (حاليا في باكستان) .

فعمان إذا كان موضعها يعزلها فإن موقعها يصلها ويربطها ، لا يحول دون ذلك بحر ولا صحراء . فهي تسيطر على أقدم وأهم الطرق التجارية البحرية في العالم ، وهو الطريق البحري بين الخليج العربي والمحيط الهندي ، الأمر الذي شقيت به عُمان حينا وسعدت به حينا ، أو كان نقمة عليها يوما ونعمة لها يوما .

وليس من قبيل الصدفة أن تكون مدينة صور التي اشتهرت على الساحل العماني ببناء السفن لها مثيلتها وشهرتها على ساحل الشام . فقد كانت هناك حضارة عُمانية في الألف الثالثة قبل الميلاد ، كانت تمد سومر بالنحاس من منطقة مايسار بوادي سمد جنوبي نزوى (بلاد مجان) ، ثم اختفت بينما ظهرت الحضارة الفينيقية في الألف الثانية قبل الميلاد في مدينة صور على ساحل الشام . فليس من المستبعد إذن أن يكون الذين بنوا سفن عمان هم آباء وأجداد أولئك الذين بنوا سفن «طرشيش» وجابوا بها البحار .

وإذا كانت عُمان تتيه على شعوب الجزيرة العربية بحرا بتاريخها البحري العريق فإنها تتيه عليهم برا بما يشوب لونها الأصفر من اخضرار ، إما بسبب هطول الأمطار (مثل تلال ظفار جنوبا) وإما بسبب الوديان الهابطة من الجبال (مثل ساحل الباطنة غرب سلسلة جبال حجر ، والظاهرة شرقي هذه السلسلة في شمال البلاد) . وكثيرا ما يعتمد السكان هناك على نظام الري بالأفلاج ، تسري في باطن الأرض ما بين موقع النبع والمنطقة التي ترويها سريان الشعيرات في جسد الانسان تغذيه وتبعث فيه الحياة .

وإذا كانت التمور ـ وفيما مضى اللبان ـ هو هدية البر لعمان ، فإن الأسماك ـ وقليلا ما كان اللؤلؤ ـ هو هدية البحر لها ، إلى درجة أن السردين كان يوما ما هو الطعام الوحيد للبهائم والماشية فيما يروي الرحالة العربي ابن بطوطه منذ أكثر من

خمسمائة عام (في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) معلقا في تعجب «وهو شيء لم أشهده في أي مكان آخر» .

ومنذ أربعة عشر قرنا رضي العمانيون بالاسلام دينا ، واتخذوا من الأباضية مذهبا ومن العربية لغة ، مدركين أن روح الدين تجميع لا تفريق ، فلم يكن خلافهم يوما ما على أمور الدين بقدر ما كان على أمور الدنيا : منصبا أو مأكلا أو مشربا .

والعماني في معظم الأحيان ـ بعكس قيظ شمسه التي تلهبه ـ هادىء الأعصاب ، أو على الأقل خافت الصوت قليل الاشارات . أما عصبيته ـ إن وجدت ـ فلا بد وأنه يمور بها داخله ، ولا يكاد يفصح عنها خارجه . لهذا فشوارعها هادئة ، الناس فيها لا يتصايحون ، وإذا وقع حادث لا يتشاجرون ، بل يتشاكون أو يتفاهمون ، مما يشعرك أنك في بلد شعبه دمث مهذب عريق الحضارة .

تلك سمات عُمان الرئيسية ، من خلال عيون شقيق مصري يرجو أن تكون رؤيتها موضوعية ، في محاولته التي يدرك كم هي مجحفة ، إذ يلخص في هذه الكلمات السريعة المتلاحقة حضارة خمسة آلاف عام .

■■■

في الستينات من هذا القرن درّت عُمان لأبنائها النفط من أثدائها ، بعد أن عانت آلام المخاض .

ثم شقشق الفجرُ ولاح وأدرك عُمان الصباح .

وعادت عُمان لتصبح منطقة جذب ، فرجع إليها أبناؤها الذين سبق أن فارقوها بسبب شظف عيش أو شيخوخة حكم ، وآبوا إليها من غربتهم لتحنو عليهم

فتهبهم من خيراتها ويعطونها من جهدهم وإخلاصهم ، يبادلونها حبا بحب . كل منهم يؤدي دورا ما لأنه أصبح جزءا مهما عظيما .

وهكذا تصالح البر والبحر ، والتقى الساحل بالداخل ، فحلت ناقلات النفط محل المراكب الشراعية ، والسيارات والشاحنات محل قوافل الجمال ، وشقت المواصلات طريقها في أوعر الجبال . وحلقت في سماواتها الطائرات ، فتضاءلت أمامها المنخفضات والمرتفعات . بينما تكفلت المدارس ووسائل الاتصال الجماهيري (الصحافة والاذاعة والتليفزيون) بتذويب الفروق اللغوية والعصبيات القبلية .

وعلى قدر ما أشفقت على عُمان الماضي ـ وإن أعجبت بها أحيانا ـ على قدر ما فتنتني عُمان اليوم . وسعيد الحظ من يعيش في دولة حاضرها أفضل من ماضيها في كل لحظة ، وسعيد الحظ من يعيش في دولة تنمو وتشب ، لأنه يشعر بمقدرته على البناء ، وعلى إبراز أفضل ما فيه . فلا أمتع من رؤ ية عُمان وهي تتخطى العام الخامس عشر ، تفور فورة الشباب المبكر ، يموج صدرها بالأمل والعمل ، وقد ثملت في طفولتها وصباها بشرابها المعتق في باطن الأرض وتعطرت بالغار واشتد ساعداها اليوم فأصبحت قادرة على إضافة النحاس ـ وما يتلوه من معادن بإذن الله ـ على مائدتها الشهية . وفي السنة القادمة ، عند ما تبلغ السادسة عشر عُمان الجديدة ، ستصبح عروسا تزهو بجامعتها الوليدة .

عُمان يا عُمان ، يا عناقا بعد صراع ، وتلاقيا بعد فراق ، ورخاء بعد جدب ، وجذبا بعد طرد .

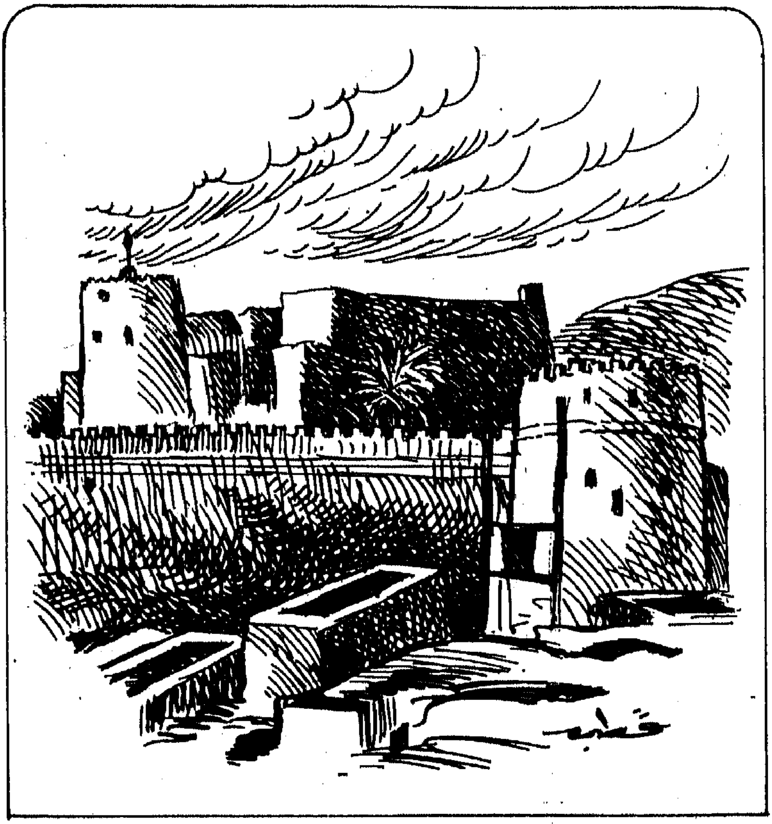
عُمان يا عُمان ، يا عهد قيادة لا تساير التطورات الحديثة فحسب ، بل تعرف اتجاهاتها وتقود البلاد نحوها « بنوع من الروية ، حتى لا تكون هناك انتكاسة اجتماعية أو أمنية » (من حديث لجلالة السلطان ابوس بن سعيد ، جريدة عُمان ، الخميس ١٩٨٣/١١/٣٠ ، صفحة ٣) .

فلتأذن لى أن أشارك الأشقاء العمانيين هيامهم بك ــ وإيمانهم العميق بأن الغد يحمل لعمان الكثير من الخير بفضل سواعد أبنائها ، وحكمة قيادتها ..

من التاريخ العمانى

- فجر العرب فى عمان بين التاريخ والقصة الشعبية .
- أحمد بن ماجد بحار عمانى عظيم .
- مسقط .
- عمان فى كتاب عجائب الهند .
- هل وصل العمانيون إلى اليابان قبل ألف سنة ؟
- مذكرات أميرة عربية .

فجر العرب في عمان بين التاريخ والقصة الشعبية



فجر العرب في عُمان
بين التاريخ والقصة الشعبية

- ١ -

سـليمه في عُمـان :

روى المؤرخ العماني نور الدين عبدالله بن حميد السالمي المتوفى عام ١٣٣٢ هـ في كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» أكثر من سبب لخروج مالك بن فهم الأزدي من اليمن ليكون أول من دخل عُمان من العرب ، وذلك بعد تفرق قومه في البلاد حين أخرجهم سيل العرم من جنتي مأرب ، حيث نزل بالسراة ومنها إلى عُمان ، كما روى كيف ملك عُمان بعد حروب ضارية مع الفرس الذين كانوا يحتلونها . ونلاحظ أن وصفه لهذه الحروب أشبه ما يكون بما نقرأه من وصف للمعارك والحروب في سيرنا الشعبية من حيث طريقة العرض والأسلوب الذي أحيانا ما يشوبه السجع فضلا عما يتخلله من أبيات من الشعر ، من ذلك قوله «فجالت الأزد جولة ونادى مالك : يا معشر الأزد اقصدوا إلى لوائهم فاكشفوه من كل وجه . وحمل بهم على العجم حملة رجل ، حتى كشفوا اللواء واختلط الضرب ، والتحم القتال ، وارتفع الغبار ، وثار العجاج حتى حجب الشمس . فلم تسمع إلا صليل الحديد ، ووقع السيوف . وترامو بالسهام فتفصدت ، وتجالدوا بالسيوف فتكسرت ، وتطاعنوا بالرماح فتحطمت ، وصبروا صبرا جميلا ، وكثر الجراح والقتل في الفريقين . . » (نور الدين السالمي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عُمان ، ١٩٨١ ، جـ ١ ص ٢٩ - ٣٠) .

ثم جاءت إلى عمان قبائل كثيرة من الأزد «وكان مالك بن فهم ينزل ما بين عُمان إلى جزيرة اليمن ، وكان أكثر نزوله بشاطىء قلهات من شط عُمان وينتقل منها إلى غيرها . وكان في ناحية أخرى من نواحيه قد نزل ملك من ملوك الأزد يقال له مالك بن زهير من ولد عبدالله بن الأزد ، وكان عظيم الشأن ، وكاد يكون مثل مالك بن فهم في العزة والقدرة . وخشى مالك بن فهم أن يقع بينهما تحاسد ، وأن يطمع أحدهما في ملك الآخر فتقع بينهما الحرب . فخطب مالك بن فهم ابنته الحزام ـ بنت مالك بن زهير ـ فزوجه على أن يكون الملك لولدها من بعده . فأجابه مالك بن فهم إلى ذلك . وتزوجها فولدت له سليمة بن مالك ، وهو أصغر أولاده ، وأحبهم إليه . وملك مالك بن فهم عُمان وما حولها سبعين سنة لم ينازعه في ملكه عربي ولا أعجمي (المرجع السابق ، ص ٣٣) .

وكان قد قضي له من عمره مائة وعشرون سنة حين جاءته المنية على يد أحب الناس إليه وأعظمهم شأنا هو ولده سليمة . ثم يورد بيت شعر نلاحظ انه على شكل نبوءة إذ يستخدم أداة المستقبل البعيد «سوف» :

ان من ترجو به دفع البلا　　　سوف يأتيك البلا من قبله

وسبب ذلك ان مالكا لما ملك عُمان وأطراف العراق وما حول عُمان ، وقع بينه وبين ملوك اليمن تنافس وتحاسد إلى أن طمع كل واحد في ملك الآخر . فجعل مالك أولاده يحرسون بالنوبة ، كل ليلة على رجل منهم مع جماعة من خواصه وأمنائه من قومه ، ولما كان سليمة أحظى أبناء مالك عنده وأقربهم إليه وهو أصغرهم ، فقد حسده اخوته وجعلوا يلتمسون له زلة عند أبيه وقومه . وكان مالك يعلم سليمة في صغره الرمي بالسهام إلى أن أتقنه ، وكان يحرس كإخوته . وأقبل ذات يوم نفر من اخوته إلى أبيهم فقالوا : يا أبانا ؛ إنك قد جعلت على أولادك الحرس بالنوبة وما أحد منا إلا وهو قائم بما عليه ما خلا سليمة فإنه أضعف همة وأعجز ، وانه إذا جن الليل ينزل عن فرسان قومه ويتشاغل بالقوم ويغفل عما يلزمه فلا يكن لك فيه كفاية ولا غنى . وجعلوا يوهنون أمره عند أبيه ، وينسبون إليه العجز والتقصير ، فأجابهم مالك اجابة لبقة حين قال لهم : إنني ما أجد منكم أحدا إلا وهو قائم بما

عليه ، وأما قولكم في ابني سليمة فليس هو كذلك ، وإن ظني فيه كعلمي به . فانصرفوا من عنده راجعين بغير ما كانوا يأملون .

غير أن مالكا داخله الشك ، فأسر كلامهم ذلك في نفسه إلى أن كانت الليلة التي كان فيها نوبة ابنه سليمة وقد خرج سليمة في نفر من فرسان قومه يحرسون كالعادة ، ثم اعتزل عنهم سليمة في المكان الذي يكمن فيه بقرب دار أبيه ، فبينما هو كذلك إذ أقبل مالك من قصره في جوف الليل مختفيا من حيث لا يعلم أحد به ، قاصدا إلى ذلك الموضع . وكان سليمة في ذلك الوقت قد لحقته سنة فأغفى على ظهر فرسه وهو متنكب كنانته وفي يده قوسه . فأحس الفرس شخص مالك من بعيد فصهلت ، وانتبه سليمة من سنته تلك مذعورا ، ونظر إلى الفرس وهي ناصبة أذنيها إلى شخص مالك ، ففرق سهمه في كبد قوسه ويممه نحو شخص مالك وهو لا يعلم أنه أبوه ، فسمع مالك صوت السهم فهتف به : يا ابني لا ترم أنا أبوك . فقال سليمة : يا أبت ملك السهم قصده . فأرسلها مثلا . وأصاب السهم مالكا في قلبه فقتله . لكنه حين أصابه السهم أنشد قصيدة طويلة نعى فيها نفسه ولخص سيره الذي ساره من أرض السراة وخروجه من برهوت إلى عُمان وما كان من شأنه ، ومطلعها :

ألا من مبلغ أبناء فهم ... بمالكه من الرجل العماني

إلى أن يقول :

جزاه الله من ولد جزاء ... سليمة انه ساما جزاني
أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني
توخاني بقدح شك لبي ... دقيق قدرته الراحتان
فأهوى سهمه كالبرق حتى ... أصاب الفؤاد وما عداني
ألا شلت يمينك حين ترمي ... وطارت منك حاملة البنان

ثم قضى مالك نحبه وأنشأ ولده هناة يرثيه بقصيدة أيضا .

ثم ان سليمة تخوف من اخوته واعتزلهم وأجمع على الخروج من بينهم ، فسار

إليه أخوه هناة في جماعة من وجوه قومه ، فاجتمعوا إليه وكرهوا إليه الخروج . وكان أكثر تخوفه من أخيه معن . فقال لهم : اني لا أستطيع المقام معكم وقد قتلت أباكم وكان ذلك بسبب حسد اخوتي لي ، وقد يبلغني من معن ما أكره ، واني لأخشى أن يغتالني في بعض سفهاء قومه . . فناشدوه الله والرحم أن يقعد معهم ، وضمن له هناة بتسليم الدية عنه إلى اخوته من ماله . فقبل سليمة ذلك وأقام معهم ، وقبل الاخوة الدية وعفوا إلا معنا فإنه قبلها ولم يعف ، وطمع هناة أن يصلح بينهما .

ثم ان معنا خلا له زمن لا يتعرض لسليمة بسوء حتى أكل الدية ، ثم جعل يطلب غفلة سليمة ويغري به سفهاء قومه . فبلغ ذلك سليمة فأقسم ألا يقيم بأرض عُمان ، وأجمع رأيه على ركوب البحر . فخرج هاربا في نفر من قومه ، وقطع البحر حتى نزل بأرض فارس .

هذا هو الجزء الأول من قصتنا ، ونحن نلاحظ عليه ما يلي :

١ ـ أصغر الأبناء هو أحبهم إلى قلب أبيه ، وما ترتب على ذلك من حسد اخوته له وتآمرهم عليه ونجاح مؤامرتهم في اثارة شك أبيه في يقظته وأمانته وان كان قد تظاهر أمامهم بغير ذلك .

٢ ـ الحدث التالي : وهو مترتب على سابقه ـ قتل الابن أباه وهو لا يدري .

٣ ـ مغادرته عُمان ـ مع أنه كان من المفروض أن يكون خليفة أبيه ـ إلى فارس .

٤ ـ تطعيم الرواية النثرية بالشعر حتى لنستمع إلى قصيدة مطولة يلقيها مالك بن فهم ملخصا فيها بطولاته وذلك بعد أن أصابه السهم القاتل وقبل أن يلفظ أنفاسه .

وواضح ان هذه النقاط فيها مَشَابه قريبة من القصص الديني أحيانا والأساطير احيانا والقصص الشعبي ثالثا .

فكون أصغر الأبناء أحبهم إلى أبيه وما يترتب على ذلك من حسد اخوته له

موجود في القصص الديني ، فيوسف وأخوه كانا أصغر وأحب ابنين من أبناء سيدنا يعقوب ـ عليهما السلام ـ ونحن نعرف ما ترتب على ذلك **﴿لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين﴾** (سورة يوسف : ٧ ـ ٩) ، **﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾** (سورة يوسف : ١٦ ، ١٧) .

أما قتل الابن أباه فهو واضح في أسطورة أوديب ، فالملك لايوس ملك طيبة وزوجته جوكاستا يعلمان من احدى النبوءات أن ابنهما سيقتل أباه ويتزوج أمه ، فيحاولان التخلص من هذا الشر بما هو شر مثله أو أشر منه ، وذلك بقتل الصبي قبل أن ينمو ويقترف هذا الاثم العظيم ، ولكنهما لم يجرؤا على قتله بنفسيهما ، فأعطياه لأحد الرعاة ليقتله ويحضر ما يبرهن على ذلك ، غير أن الراعي أشفق بدوره على الطفل فأحضره إلى قصر الملك پوليب والملكة ميروب في كورنث وكانا عقيمين يشتهيان طفلا يتبنيانه . وعند ما كبر أوديب علم بما دبر القضاء له ففر من كورنث حتى لا يرتكب هذه الجريمة الشنعاء معتقدا أن پوليب وميروب أبواه . وفي الطريق اعترضه لايوس فطلب منه أن يفسح له الطريق فأبى ، فما كان منه إلا أن قتله وهو لا يدري أنه أبوه ، وبذلك تحقق النصف الأول من النبوءة ، ثم واصل أوديب طريقه حتى اقترب من طيبة التي كانت قد علمت بمصرع ملكها . وكان هناك وحش رابض على طريقها يلقي هذا اللغز على كل من يمر به : من هو الكائن الذي يمشي في الصباح على أربع وفي الظهر على اثنين وفي المساء على ثلاثة . وكان كل من يلقي عليه الوحش هذا اللغز ولا يعرفه يفترسه ، حتى استحال المرور في هذا الطريق . فأعلنت طيبة أن من يحل اللغز ويصرع الوحش سيصبح بدوره ملكا عليهم وزوجا لملكتهم الأرملة . وقد استطاع أوديب وحده أن يحل اللغز حين أعلن للوحش أو أبي الهول ان هذا الكائن ليس إلا الانسان . وبذلك أصبح ملكا على مدينة طيبة وزوجا لملكتها جوكاستا التي لم تكن سوى أمه دون أن يدري ، وبذلك تحققت النبوءة كلها . غير أنه لما علم فيما بعد ـ بسبب انتشار وباء في المدينة دليلا على وجود رجس بها ـ أنه قاتل

أبيه وزوج أمه ، عاقب نفسه بأن فقأ عينيه واعتزل الحكم وارتحل عن طيبة إلى كولونا .

إن قصة سليمة مع أبيه مالك بن فهم الأزدي فيها تيمات متشابهة مع قصة أوديب ، فقد قتل أباه دون أن يعرف ولكن جهله لم يعفه مع ذلك من العقاب ، فكما تقول القصة انه تخوف من اخوته واعتزلهم واعتزم ـ بدوره كذلك ـ على الخروج من بينهم . واذا كان اخوته قد أضمروا له الشر من قبل لمحبة أبيه له ، فما بالهم يفعلون الآن وقد وجدوا المبرر الأقوى الذي به يكيدون له وهو أنه قتل أباه فعلا . وكان اخوته ينقسمون قسمين مجموعة يتزعمها هناة تناشده ألا يخرج ومجموعة يتزعمها معن تتربص به ، وهذا شبيه بما جاء في التوراة في قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ فقد كانت هناك مجموعة من اخوته تريد قتله ومجموعة تريد انقاذه يتزعمها رأوبين أكبر الاخوة ، وانه ما غيبه في الجب إلا لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه (تكوين : ٣٧ : ٢٢) . ولهذا فإنه لما رجع رأوبين إلى الجب ـ ويبدو أنه كان قد تغيب لأمر ما بعض الوقت ـ ووجد أن اخوته باعوا أخاهم يوسف مزق ثيابه «وقال الولد ليس موجودا . وأنا إلى أين أذهب» (تكوين ٣٧ : ٣٠) . وفي قصتنا العمانية انتصرت المجموعة الأولى التي تريد ابقاء سليمة في عُمان أول الأمر بينما ظلت المجموعة الثانية على موقفها وإن كان هناة يطمع في أن يصلح ما بين معن وسليمة . لكن سليمة لم يجد مفرا من أن يخرج هاربا من عُمان ، وقطع البحر حتى نزل بأرض فارس لتبدأ مرحلة ثانية من مراحل حياته .

أما تطعيم النثر القصصي بالشعر القصصي فهو أسلوب مألوف في سيرنا الشعبي لا سيما السيرة الهلالية وسيرة الزير سالم ، حيث نجد من حين لآخر تلخيصا شعريا لما مر بنا من أحداث ثم سردها نثريا أو كلما احتدم الموقف عاطفيا أو حربيا . ففي قصتنا نجد أن مالك بن فهم ينشد قصيدة مطولة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو إن لم يكن مصدقا في عالم الواقع إلا أنه مبرر في عالم الفن .

- ٢ -

سليمة في كرمان :

جاء في كتاب «تحفة الأعيان» للعلّامة المؤرخ نور الدين السالمي أنه بعد مصرع مالك بن فهم الأزدي ملك عُمان أكبر أبنائه هناة ، أما أصغر أبنائه سليمة فقد انتهى به المطاف إلى أرض كرمان ، فأقام بها بين أهلها وأخبرهم بقصته ، فلما تبينوا موضعه ومكانه وشرفه أرادوا أن يزوجوه من بنات بعض كريم أسرهم ، وكان الملك إذ ذاك على أرض كرمان «ولد دارا بن دارا بن بهمن» ، وكان ملكا جبارا ، كثير العسف والظلم لأهل مملكته وقومه . وكان قد بلغ من أمره أنه ما زفت عروس على بعلها حتى يؤتى بها إليه فيصيبها قبله ، وإلا قتل بعلها وبدد أهلها . فكان ذلك دأبه في أهل كرمان إلى أن قدم عليهم سليمة . فشكوا له أمر ملكهم وحكوا له قصتهم معه ، وذكروا أنهم لا يستطيعون التغلب عليه لكثرة حرسه وحجابه ومنعته ، فقال لهم سليمة : وماذا لي عليكم إن أنا كفيتكم امر بأسه وأرحتكم من سلطانه ؟

- وأنى لك ذلك والذين كانوا من قبلنا من أهل العز والسلطان لم يستطيعوا التغلب عليه ؟

- تدبير الأمر في ذلك عليّ .

- اذن فافعل ما شئت .

- اذا أردتم ذلك فليجتمع إليّ من الغد كباركم .

- موافقون .

فلما كان الغد اجتمع إليه عظماء أهل كرمان فقال لهم سليمة :

- إن أمكنتموني مما أشترط عليكم دبرت الأمر .

فقالوا بأجمعهم :

ـ لك جميع ما شرطت وسألت .

ـ أشترط انكم تصيرون ملكه وسلطانه لي ، ولعقبي من بعدي دون سائر أهل كرمان . . وأن تزوجوني بامرأة من كرائم عقائل نسائكم .

فأمسك القوم لذلك ، ونكسوا رؤوسهم . فقال لهم :

ـ إن كان فيكم معاشر أهل كرمان من يستطيع ذلك بدون هذه الشروط والمطالب فليفعل .

فعند ذلك ضربوا أيديهم على يد سليمة وقبلوا شروطه وبايعوه على قتل الملك ، وزوجوه بامرأة من كرائم بناتهم ، لكنهم أعلنوا أمر تزويج المرأة باسم رجل من أهل كرمان دون أن يذكروا اسم سليمة . وقال لهم : اشهدوا أمر هذه المرأة إلى بعلها حتى يبلغ ذلك الملك ليكون متأهبا للتعريس ، ثم آتوا إليّ في خفية من الناس والبسوني أنواع الحلي والحلل ، وزفوني إليه بين النساء والحشم ، ليتيقن في وهمه اني المرأة التي تريدون أن تزفوها إلى بعلها .

فلما كانت تلك الليلة أشهروا أمر تلك المرأة من النهار ، وعمدوا إلى سليمة ، وكان شابا جميلا حسن الوجه ، فألبسوه أنواع الحلي والحلل ، وقد حدد سكينه وجعلها معه في حجزة سراويله ، وسار عنده النساء وأنواع الخدم والحشم يزفونه بينهم في هيئة المرأة حتى انتهوا به إلى الملك ، فما أن رآه في ضوء الشموع والمصابيح وهو على تلك الهيئة والجمال حتى هاله منظره وما رأى من حسنه ، وقد أقبل إليه يرفل بين الخدم والحشم . فأومأ إلى النساء والخدم بالانصراف ، وأمر بالأبواب فأغلقت وبالستائر فأرخيت ، ولم يبق إلا هو وسليمة . ثم انه أهوى على سليمة ليقبله ويضمه إليه فاسترخى له مائلا عليه حتى إذا تمكن فيه نزع السكين من سراويله وهوى بها عليه فجأة في خاصرته حتى أثبتها فيه ثم أردفه الثانية فبعج بطنه . فخر الملك ساقطا على فراشه يخور في دمه خوار الثور . ثم وثب سليمة من فوره فلبس درع الملك وتقلد سيفه . وبات ليلته على تلك الهيئة ، وبات وجوه أهل كرمان في خوف ووجل لا يدرون ما يكون من أمره . فلما أصبح وثب على الأبواب وفتحها وخرج إلى حراس

الملك وحاميته . فشد عليهم ولم يزل يجالدهم بسيفه ويقتلهم حتى أبادهم وباب الدرب مغلق عليه وعليهم . ثم تصايح الناس وأقبل إليه وجوه أهل كرمان ، أهل البيعة ، في خيلهم وعددهم . فعند ما أشرف عليهم سليمة من رأس الحصن شاهرا سيف الملك بيده وهو مخضب بالدم ، ألقى إليهم جثة الملك ورأسه ، فلما رأوا ذلك هالهم أمره وأكبروا شأنه وفرحوا فرحا شديدا بسبب ما كان من عسف الملك وسوء سيرته فيهم .

ثم اجتمع العظماء والأشراف فوفوا سليمة بما بايعوه ، واستقبلوه بالسمع والطاعة حتى استقر له الأمر . ثم أهدوا إليه عروسه ، واستقام له أمر كرمان وولد له عشرة أولاد وظل ملكا عليهم حتى توفاه الله .

وواضح أن سليمة استطاع بذكائه أن يقضي على الملك الطاغية من نقطة ضعفه وهو استحواذه على كل عروس قبل زفافها . ونحن نجد أن وسيلة سليمة التي احتال بها هنا مكررة في كثير من قصصنا الشعبي . فعلى سبيل المثال في سيرة علي الزيبق بن حسن رأس الغول نجد أن بطلها علي الزيبق كثيرا ما كان يتغلب على منافسيه حين يجد لديهم انحرافا أو ضعفا من ناحية النساء فكان يتنكر في هيئة صبي جميل أو زي صبية حسناء مما يتيح له أن يدخل معقل منافسه ، بل أن يخلو له الجو معه ، ومما يهيّء له فرصة أكيدة للانتقام منه ، وهو انتقام يتراوح ما بين الهزء به والقضاء عليه .

وفي سيرة الزير سالم أبو ليلى المهلهل نجد أن الطريقة التي أفسد بها كليب اغتصاب التبع حسان اليماني للأميرة الجليلة بنت مرة ـ زوجة كليب فيما بعد ـ أشبه ما تكون بحيلة سليمة مع ولد دارا . وإن كان كليب لم يتنكر في زي جليلة ، ولكن في زي مهرجها . كما أن كليبا لم يكن قد اتفق مع أهل البلد ليعينوه على ما بيّت النية عليه ـ كما فعل سليمة ـ لهذا فإن كليبا قد استعان برجال اختفوا في صناديق موضوعة على ظهر جمال تكونت منها قافلة الجليلة . فالدافع هنا شخصي ، بينما الدافع في قصة سليمة أعم جاء بطلب من أهل كرمان أنفسهم . وقد تقلد كليب بالسيف من تحت ثيابه ، ولبس فروا من جلد الثعالب والذئاب وأرخى له سوالف طوال من

أذناب الكبش والبغال ، وركب على قطعة من قصب وحمل دبوسا من خشب ، وكان يقود زمام ناقة الجليلة أمام فرسان القبيلة . فلما رآه الوزير نبهان قال لبعض الفرسان : من يكون هذا الانسان ، فإن زيه عجيب وحاله غريب ؟ فقالوا : هذا مهرج الجليلة بنت مرة واسمه قشمر بن عرة (قصة الزير سالم الكبرى ، أبو ليلى المهلهل ، مطبوعات مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، ص ١٧) .

وهكذا فتحت أبواب القصر ودخلت الجليلة وقافلتها فأجلسها الملك على العرش ودارت الكاس والطاس حتى سكر الملك حسان وغنت المغنيات ورقصت الراقصات وطلبت الجليلة من الملك أن يلعب أمامها مهرجها قشمر بن غرة ، فأقبل يمزح أمامها ويلعب بسيفه الخشب وهو في زيه المضحك . فكان تارة يبحلق عينيه ويرفص الأرض بيديه ورجليه ، وتارة يقول أين الفرسان الفحول ، وأين أبو عطبول ، وأحيانا يرقص ويضحك بلا سبب ، وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب . . فاندهش تبع من أعماله ، واستغرب من أحواله وأقواله (المرجع السابق ص ٢٢) . . ثم قال قشمر ـ وهو كليب ـ للتبع حسان : إن كنت تريد أن تطرب الآن فاجعل الجليلة تغنيك بأبيات من الشعر لأن صوتها مليح ولفظها فصيح ، فلما طلب منها حسان الغناء طلبت أن يأمر قشمر أن يقفل الباب لئلا يسمعها أحد من الخدم والحجّاب ، فاستصوب الملك كلامها وبذلك عزلاه ـ الجليلة وكليب ـ عن حرسه . فلما انتهت الجليلة من هذا الشعر طرب ، فأخذ كليب يرقص أمامه ، ولكن الملك قال له : عيب عليك أن ترقص أمامي بهذا السيف الخشب ، فأمره الملك أن يدخل إلى قاعة السلاح ليأخذ السيف ويرجع بالعجل ، فدخل ولبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه بعد أن فتح صناديق الأحمال وأخرج الفرسان والأبطال ، فبقوا في ساحة الدار ، وقاموا له بالانتظار . وكان قد سل الحسام من غمده وهو يهزه في يديه ، ثم دخل على الملك وقد احمرت عيناه ، وتذكر أباه ، فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الأبطال في ساحة القتال ، وبعده تقدم وهجم عليه . فعرفه حينئذ الملك حسان وأيقن بالهلاك وطلب منه أن يعفو عنه ، فقال له كليب : لا بد من قتلك كما قتلت أبي (المرجع السابق ص ٢٣) ثم ضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه ، فوقع على الأرض قتيلا وفي دمه جديلا .

ثم خرج من المخدع وأعلم الفرسان بقتل الملك حسان ، وقال لهم : لقد بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد ، ثم وضع رأس الملك على رأس السنان * وخرج الأبطال والفرسان وطافوا في شوارع البلدة وضربوا من وجدوه بالسيف .

وتشابه الأساطير والملاحم والقصص الشعبي ليس معناه بالضرورة أن أحدها منقول عن الآخر ، ذلك لأن تشابه الظروف يؤدي إلى تشابه الأفكار . ولكن لما كان مصدر الزير سالم هم عرب الجنوب أي من اليمن ، ولما كان مالك بن فهم الأزدي كذلك من عرب اليمن ، فهناك احتمال قائم بأن يكون مصدر القصتين واحد وان اختلفت تفاصيل كل منها . ولكن يظل هذا مجرد احتمال حتى يتوفر ما يؤكده أو ينفيه ، فكلماتي تساؤلات أكثر مما هي اجابات .

فالتاريخ كلما بعد عنا كانت حقائقه أكثر اختلاطا بالخيال ، لأن التدوين لم يكن قد عرف بعد أو لم يكن يستخدم على نطاق واسع ، فكان ينقله الرواه من جيل إلى آخر ، وكل جيل يحذف منه ويضيف إليه بما يكون قد سمعه من قصص أخرى ليجعله أكثر تشويقا للسامع ، وتعرف هذه النظرية بنظرية التراكم الملحمي بالنسبة للملاحم والقصص الشعبي .

ودليلنا على ذلك أن العلامة نور الدين السالمي لا يورد كلامه عن هذه الحقبة من تاريخ عُمان بألفاظ التأكيد واليقين بل بألفاظ التشكيك ، إذ يبدأ كلامه في «باب دخول العرب في عُمان وأخذها من يد الفرس» ، بقوله : «وسمعت من يدعي المعرفة بذلك ويقول . . .» (تحفة الأعيان ، ص ٢٠) . وعند ما يشير إلى هناة بن مالك يقول إنه لم يجد تاريخا لموته ولا لمدة ملكه (المرجع السابق ص ٤١) . وهذا أسلوب نجد المؤلف لا يستخدمه كثيرا فيما بعد . ومعروف أن مثل هذه الثغرات التاريخية كثيرا ما يملؤها خيال الرواة الذين كانوا يقومون في ذلك الوقت بدور المؤرخين . وكلماتي ـ كما قلت من قبل ـ إثارة قضية أكثر مما هي اثباتها .

أحمد بن ماجد بحار عمانى عظيم

بحـار عُمـاني عظيم
أحمـد بن ماجـد

ترك لنا ابن ماجد خمسة وثلاثين مؤلفا ليس فيها مؤلف واحد يروي لنا فيه تاريخ حياته ، ولهذا تعذرت معرفة تاريخ ميلاده وكذلك وقائع حياته . لكننا يمكن أن نستنتج تواريخ مؤلفاته من أن فترة تأليفها كانت بين ١٤٦٢ ـ ١٥٠٠/١٥٠١ أي فترة تمتد إلى ما يقرب من أربعين عاما . ويشير في بعض أراجيزه إلى بعض التواريخ ، مثال ذلك عند ما يشير إلى أنه بعد الابحارات الفاشلة حتى أول رحلة لفاسكودي جاما وصل البرتغاليون إلى الهند في عام ٩٠٦ (١٥٠٠/١٥٠١) واتخذوا لأنفسهم هناك مساكن وأوطانا وكوّنوا علاقات صداقة مع الأمراء السوامر في كلكتا واعتمدوا عليهم :

وبعـد ذا في عـام تسعمـايـة   وست جـاءوا الهنـد يـا خـايـة
واشتـروا البيـوت ثم سكنـوا   وصـاحبـوا وللسـوامـر ركنـوا

كما يذكر عام ٩٠٦ عند تحديد رسو البرتغاليين على الشاطىء الهندي :

وجـالكاليكـوت خـذ ذي الفـايـدة   لعـام تسعمـايـة وسـت زايـدة

ومن الممكن تحديد ميلاده على وجه التقريب بين سنوات ٨٣٥ ـ ٨٤٠ هـ . وذلك بالرجوع إلى قصيدته المسماة «ضريبة الضرائب» ، وفيها ذكر عام ٩٠٠ هـ . وفيها يقول أيضا إن سنه تجاوز ستين حجة .

أما اسمه الكامل فهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي ، ويدل نسبه على أن أصل أجداده من الشمال العربي ، أما هو نفسه فمولود بمدينة جلفار على ساحل بحر عُمان ، لكنه ـ فيما يبدو ـ عاش في ظفار .

يقول المستشرق الروسي تيودور شوموفسكي الذي قام بتحقيق ثلاث منظومات لأحمد بن ماجد إن الموقع الجغرافي لموطن ابن ماجد تحكم في اختيار مهنته ومهنة بعض من حمل اسم أسرته . فعمان تقع عند مدخل المحيط الهندي على شاطىء الخليج العربي ، أي على طريق التجارة المنتعشة التي تأتي من أسواق المحيط الهندي إلى المناطق الغنية المتجمعة حول بيرسبول الساسانية ثم حول بغداد العباسية (أحمد بن ماجد ، ثلاث أزهار في معرفة البحار ، تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي ، ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٧٨) .

ويستطرد شوموفسكي قائلا : فإن شعب كل من الشاطئين العماني والفارسي كان مرتبطا بالبحر منذ وجوده . وكان بعضهم مقيدا طول حياته بعمل شاق هو صيد اللؤلؤ ، وبعضهم حقق ثروة عن طريق السمسرة في التجارة ، وأصبحوا ملّاك سفن ، وقاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط إلى الأراضي الغنية في شرقه وغربه . أما البعض الآخر فقد وهب نفسه لدراسة فن الابحار وتفهم قواعده وأصوله الثابتة الموجودة في أوراق البردي الايرانية القديمة (راه نامك) التي تم نقلها من جيل إلى جيل ، وأصبحوا ملاحين بفضل معرفتهم الجيدة بالبحر . ولكن الواقع القاسي لحياة البحر أدى إلى إدخال بعض التعديلات على القواعد القديمة وضرورة تحديد الخلاف بين النواحي النظرية والعملية . ومن هنا قام كل ملاح بتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات البحرية .

وإلى هذه المجموعة الأخيرة ينتمي ابن ماجد الذي ورث هذا العمل عن جده وأبيه . ففي القرن الخامس عشر لم يكن من النادر وجود عائلات توارثت فن الملاحة .

وفي بداية كتابه «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» نجد بعض الصفات التي أضيفت على هذا الربان مثل «رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله» . وهو حاج الحرمين الشريفين المكنى بالمعلم والمعلم العربي وناظم القبلتين (مكة وبيت المقدس) وشهاب الدنيا وأسد البحار وليث الليوث ورابع ثلاثة من المعالمة المشهورين في البحر وهم محمد بن شاذان وسهل بن إبان وليث بن كهلان . ويقول ابن ماجد : إن خبرتهم مع ذلك محدودة فهم لم يركبوا البحر إلا من سيراف (بإيران حاليا) إلى بر مكران (باكستان حاليا) . ويقول عنهم في احدى مخطوطاته «فأخذوا هؤلاء الثلاثة من كل أحد معرفة بره وبحره ويؤرخونه ، وهم مؤلفون لا مجربون . ولم أعلم له رابعا غيري . وقد وقرتهم بقولي إني رابعهم لتقدمهم في الهجرة فقط ، وسيأتي بعد موتي زمان ورجال يعرفون لكل أحد منزلته» ، أي أن مبدأ الترتيب الزمني هو وحده الذي يضعه في المركز الرابع من الصف اللامع لبناة علم الملاحة العربية . وهو يتجه إلى أجيال المستقبل مؤملا العدل في مزيد من التقدير لأعماله التي تقوم على التجربة من بدايتها إلى نهايتها ، وتتجه من الناحية العملية إلى الناحية النظرية لتفتح أفقا جديدا لتطور المعلومات الجغرافية في الشرق ، وهي أحد الاتجاهات الأولى في التطور التي اكتملت في عصر الفتوحات العظمى . ويقول شوموفسكي إن أوصافه لجميع الأجزاء الهامة من المحيط الهندي توضح أنه كان سيد الموقف .

ويستطرد ابن ماجد قائلا عن المعالمة الثلاثة المشهورين الذين سبقوه : ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيفا بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب ، هذبت ما صح منه ، وذكرت الاختراعات التي اخترعتها وجربتها عاما بعد عام في نظم الأراجيز والقصائد . وفي هذا الكتاب عام ثمانين وثمانمائة (أي ١٤٧٥ م) فاستحسنه الماهرون من أهل هذا الفن وعملوا به واعتمدوا عليه في شدائدهم مثل رؤيا الجبال ومثل القياسات وأسماء النجوم ومعرفتها والهداية عليها .

ثم يعدد ابن ماجد في كتابه «الفوائد» معالمة البحر المشهورين من غير هؤلاء منذ ظهور الاسلام حتى وقته . وأولهم محمد بن شعبان في اليمن وهو من الأزد ، ثم ذلك المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأزكي وكان يسافر في عام ٤٠٠ هـ

(الموافق ١٠٠٩ - ١٠١٠ م) في مركب دبوكره الهندي وغيرهم . ويضيف ابن ماجد ان أكثر علمهم في صفات «البرور من تحت الريح» .

وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة ، فأبوه كان ربانا يلقب بربان البرين (بر العرب وبر العجم) . وقد دون هو الآخر تجاربه الملاحية في مصنف ضخم هو «الأرجوزة الحجازية» التي تضم أكثر من ألف بيت . وكان جده كذلك محمد بن عمر ملاحا مشهورا ومؤلف أرجوزات بحرية أيضا . وكان الأب والجد ملاحين في البحر الأحمر . وكان ابن ماجد يؤمن في كبره بمعلوماتهما بدرجة أكثر من ايمانه بمعلوماته الحديثة نفسها . وهو نفسه يشير إلى أن ما تركه والده من وصف للطرق البحرية في البحر الأحمر هو أحسن ما ورثه عنه .

رئيس علم البحر

يقول المستشرق تيودور شوموفسكي إنه ليس من قبيل العبث أن يظهر إلى جانب لقب أسد البحار الذي يصاحب اسم ابن ماجد عادة لقب آخر هو «رئيس علم البحر» . فقد وهب البحر ما يقرب من نصف قرن من حياته . لقد ورث المهنة أبا عن جد ، وأطال في مسالكهم البحرية . ومن مقتبل العمر حتى آخر أيام حياته قاد سفنا ، يملكها أشخاص مختلفون ، عبر الطرق القديمة للمحيط الهندي من جدة إلى كردافور ، ومن عُمان إلى سفاليه (على شاطىء افريقيا الشرقي) ومنها إلى الهند وإلى جزر الملايو وإلى خلجان جنوب الصين . وفي هذه الرحلات التي تتطلب خبرة مهنية كان ينظر وينصت إلى كل شيء ، ويزن ويقدر بدقة ، وينتقي ما هو ضروري . وبمراجعته لتجاربه وخبراته كان يحسِّن دائما في معلوماته العملية . ومع مرور عشرات السنين اجتمع له بعض الشهرة والفن وجمعته التقاليد بالملاحين الأسطوريين الثلاثة في القرن الثاني عشر . وبصرف النظر عن الفترة الزمنية التي تفصل بينهم فإن ابن ماجد استحق أن يلقب باسم «رابع أسود البحر» (ثلاثة أزهار في معرفة البحار ، ص ٨٩) .

وبعد ستين عاما فإن شلبي أمير البحر التركي (توفي عام ١٥٦٢ م) - مترجم

مؤلفات ابن ماجد ـ وصفه بأنه الباحث عن الحقيقة من الملاحين وأفضل من يوثق به منهم في جنوب الهند في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ومن بين نصف قرن من الجهد في البحر ، هناك أربعون عاما من أعمال ابن ماجد تقدم مثالا للدأب والمثابرة على نشر علم الملاحة البحرية .

ويعلن الدكتور أنور عبدالعليم في كتابه «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» أن عِلْم البحر ظهر لأول مرة في العصور المتأخرة في القرن التاسع الهجري أو الخامس عشر الميلادي في مؤلفات ابن ماجد لا سيما كتابيه القيمين «كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد» و «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» . وقد ضمنها المؤلف كل ما عرف عن البحر على أيامه من الناحية التكنيكية التي تفيد الملاح وتيسر له سبل السير في أودية البحر ودخول الموانىء . فإلى جانب القياسات الفلكية للنجوم الملاحية المختلفة ومواعيد فتح وإغلاق البحر ، يتكلم المؤلف عن السواحل والجزر والتيارات والمد والرياح وطبيعة القاع وما إليها من إشارات تعين الملاح على أداء مهمته بنجاح ، ولم يهمل تطعيمها كذلك بمادة اجتماعية أدبية . وتعرف مثل هذه الكتب في العصر الحديث باسم المرشدات الملاحية (د. أنور عبدالعليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ٧) .

وقد ساد الاعتقاد لدى علماء الغرب بأن الخبرة العربية الملاحية كانت متواضعة محدودة ، وأن العرب لم تكن لهم مؤلفات ملاحية ولم يسهموا في تقدم علم الملاحة ولا في تطوير آلاتها . ورسخ هذا الاعتقاد زمنا طويلا بسبب عدم الاستدلال على مؤلفات عربية في هذا الفن إلى أن اكتشفت في العشرينات من هذا القرن المرشدات الملاحية لابن ماجد وسليمان المهري ، وقد كتبها مؤلفاها على شكل أراجيز كالطلاسم تحتاج إلى مفاتيح لحلها . ثم وضح أنها هي الأصل الذي بنى عليه مؤلف تركي هو الأميرال علي حسين المعروف باسم سيدي علي كتابه القيم في هذا الموضوع المعروف باسم «المحيط في علم الأفلاك والأبحر» وذلك عام ١٥٥٧ م . وقبل هذا التاريخ لم تكن هناك أية مراجع عن الملاحة في بحار آسيا والهند سوى مؤلفات ابن ماجد (المرجع السابق ص ١٠ ـ ١١) .

اسهامات ابن ماجد في تقدم علم الملاحة

وقد كان ابن ماجد رائدا من رواد علم الملاحة من الناحيتين العملية والنظرية ، فمن الناحية العملية كان من أبرز اسهاماته :

ـ البوصـــلة :

يعتبر ابن ماجد أول من طوّر البوصلة الملاحية بالمفهوم الحديث وكانت تسمى الحقة . وعن العرب عرفها الأوروبيون أثناء الحروب الصليبية . يقول ابن ماجد في كتابه «حاوية الاختصار» الذي ألفه عام ٨٦٦ هـ :

وجـدد الآلـة قـبـل السـفـر كـحـقـة أو قـيـاس أو حـجـر
والبلد والفـانوس والـراهمـانـج وان تكن سافرت كمن حجـج

ومعنى هذين البيتين أن الربان العربي يوصي بفحص وتجهيز الآلات الملاحية قبل السفر مثل «بيت الابرة» أو الحقة وآلة القياس (وهي الخشبات) وآلة سبر الأعماق (البلد) والمصباح (الفانوس) والمرشد الملاحي (الراهمانج) .

ويصحح الدكتور أنور عبدالعليم ما يشاع عند الغربيين من أن الربان الايطالي فلافيو جيولا أول من ابتكر تعليق الابرة الممغنطة على محور لتتحرك حركة حرة . فابن ماجد سبقه في ذلك إذ يقول في كتاب «الفوائد» الذي يرجع تاريخ المسودة الأولى منه إلى عام ١٤٧٥ م «ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحقة بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب» وهذا نص واضح لا يحتاج إلى شرح .

ويتكلم في موضع آخر عن «تجليس المغناطيس على الحقة بنفسه» . من كل ذلك يتضح أن ابتكار الملاح الايطالي فلافيو جيولا ليس سوى نقل لآلة ابن ماجد وهي «الحقة العربية» التي كانت مستعملة في المحيط الهندي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

كما أن لابن ماجد آراء في اختيار المكان المناسب لتثبيت بيت الابرة أثناء صنع السفينة نفسها ، مما يدل على أن بيت الابرة كان له مكان ثابت معلوم يوضع فيه ويحدد هذا المكان في هيكل السفينة قبل سحبها إلى الماء ، وهو موضع يحكم فيه اتزان بيت الابرة ويحقق استقرارها حتى مع حركة السفينة وقلقلتها أثناء هياج البحر ، وهو أمر كان فيه ابن ماجد رائدا وسباقا عن أي شخص آخر في أية أمة ، وهو يقول في ذلك : تأمل السفينة وهي فوق الأرض واكتب جميع خللها . . وجلّس (بتشديد اللام) الحقة في مكانها وتفقد كل التفقد أولا في نصب الحقة لأن من المراكب ما يكون في نجارته خلل فيعدى مجراه فاستدرك الأمر بأوله .

ـ القياس بالأصابع وتحديد القبلة :

أوجد ابن ماجد صلة بين تقسيم دائرة الأفق إلى ٣٢ جزءا تماثل أخنان (من لفظ خان أو منزل وهو قسم من أقسام البوصلة الملاحية) البوصلة وبين استخدام قبضة اليد والذراع مبسوطة في اتجاه البصر أمام الراصد . فقبضة اليد من الخنصر إلى الابهام والذراع ممدودة إلى الأمام تمثل ١/٣٢ جزءا من محيط الدائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف . وربما كان هذا هو الأساس الذي بموجبه تم تقسيم الحقة العربية (البوصلة) إلى ٣٢ قسما . فلو استقبلنا الشمال لأمكن باستخدام قبضة اليد فقط التعرف على أي اتجاه آخر على دائرة الأفق . وفي ذلك يقول ابن ماجد في وصف الطريقة لتحديد القبلة في «كتاب الفوائد» :

وكذلك دورة السماء ٣٢ جزءا (يقصد دائرة الأفق) ، وكل جزء قبضة من الخنصر إلى الابهام وأنت مستقبلها مادا بها ذراعك . فحط بيت الابرة أمامك وصل على أي خن جاء في النظم على أي بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار إليها عند عدم وجود الحقة .

وقد جاء في الأخبار أخيرا نبأ اختراع ساعات تحدد القبلة في أي مكان في العالم ، وهي تعتمد على الفكرة نفسها التي تكلم عنها ابن ماجد ، وتتلخص في معرفة المكان الذي أنت به ثم اتجاه الشمال بالبوصلة ، ومن ثم يمكن تحديد القبلة .

غير أن هناك خطأ يجب تصميمه عند استعمال البوصلة وسببه الانحراف المغناطيسي ولم يكن معروفا في عصر ابن ماجد . وهذا الخطأ يساوي خمس درجات بالنسبة لمدينة القاهرة مثلا (المرجع السابق ، ص ١٧٥) .

ـ آلة الكمـــال :

وقد أدرك ابن ماجد أن طريقة القياس المتقدمة طريقة بدائية ، فأدخل عليها تحسينات فيما بعد باستخدام ما يسمى بالخشبات أو الألواح ، وأطلق عليها اسم آلة «الكمال» ، وهي عبارة عن خشبة مربعة على شكل متوازي مستطيلات يربط في وسطها خيط معقود على مسافات بنسب يتفق تدريجها مع ظل تمام منتصف الزاوية بين الأفق وعين الراصد والنجم المرصود .

ولاستعمال هذه الآلة يثبت الراصد الضلع الأسفل لمتوازي المستطيلات على الأفق بحيث يماس الضلع النجم المرصود ، وهو في هذه الحالة يقرب الخشبة أو يبعدها حتى يحصل على هذا الوضع . ثم يقرأ مباشرة عدد العقد التي بين العين ومركز الخشبة . ويوضح هذا العدد ارتفاع النجم بالأصابع . وهذه القاعدة مبنية على حساب المثلثات ، ومنها يمكن معرفة خط العرض برصد النجم القطبي ، ويلاحظ أن تدريج هذه الآلة يتفق مع المراحل الملاحية في المحيط الهندي وبحر الصين بين درجات ٢٠ جنوبا ، ٣٣ شمالا .

وقد وصف جيمس برنسبس هذه الآلة بالتفصيل أثناء مقابلته مع الربابنة العرب في جزر ملديف في أوائل القرن الماضي .

والحكمة في استخدام العقد هي تمكين الملاح من معرفة العدد الدال عليها الذي يوضح مباشرة ارتفاع النجم بالأصابع بطريقة اللمس دون الحاجة إلى قراءة تدريج أثناء الظلام ليلا .

وجدير بالذكر أن الربابنة كانوا يستخدمون خشبات ذات أحجام مختلفة في

الصغر أو الكبر وفقا لنوع القياس المطلوب ولمقدار ارتفاع النجم فوق الأفق . (المرجع السابق ، ص ١٧٨) .

ـ إدراكه لطبيعة الرياح الموسمية والتيارات المنعكسة في المحيط الهندي :

وقد عبر عن ذلك في كثير من مؤلفاته وأراجيزه بما سماه مواعيد غلق البحر وفتح البحر ومواسم السفر . فمن ذلك قوله : أهل جميع الأقاليم الجنوبية إذا أرادوا السفر بآخر الرياح الدبور (أواخر الصيف) فلا بد لهم من الأمطار إلى حدود خط الاستواء وكذلك أرض سفالة (ساحل افريقيا الشرقي جنوبا) والأخوار إلى أرض الزنج ومثلهم أرض تيمور وجاوه وما يليها ، ومن ملوك الغور ولجاوه جميع الجزر الجنوبيات لا يسافرون إلا في آخر الديماني كل منهم على قدر مكانه ومركبه . . وأما الخروج للزنج من الهند آخره في ثمانين النيروز (وأول النيروز هو وقت دخول الشمس برج الحمل ويوافق ٢١ مارس وهو نقطة الاعتدال الربيعي ، ومن هذا التاريخ تحسب مواسم السفر فيقال مائة النيروز أي بعد اكتمال مائة يوم من نقطة الاعتدال الربيعي وهكذا) ولا خير فيها بعد ذلك . والخروج من بر الهند لبر العرب أوله ٣٣٠ النيروز . . والحذر كل الحذر أن تقرب سهيلي (أي جنوبي) سقطره في مائة وخمسين النيروز إلا أن يكون والجاه (أي قطب الشمال) أربعة وربع عند الضرورة ، وإلا فإن عليها مدا شديدا (أي تيارا شديدا) ربما توّه المركب في ذلك المكان .

ويقول في حاوية الاختصار فيما يتعلق بغلق البحر الهندي بالنسبة للمراكب المسافرة من عدن إلى جوزرات (على ساحل الدكن بالهند) في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء حيث لا تكون الرياح مواتية للسفر ، الأبيات الآتية :

وينبغي معرفة الأرياح ومغلق البحر والمفتاح
فغلقه يمكث ربع عام مدة تسعين من الأيام
إذا بدا الدبران وقت الفجر ما ينبغي الفلك عليه يجرى
من أول المايتين يا فطينا لأول المايتين والتسعينا
فهذه التسعون فيها الغلقا حقيق ما جاز بها أن يشقى

من مضض الوحشة والتندم وكثرة الوسواس والتألم
أما الضرورات فكم منها جرى كم جاز فيها أحمق وخاطرا

ـ تفسيره تألق ماء البحر ليلا :

شاهد ابن ماجد الملاح مرارا ظاهرة تألق ماء البحر ليلا وعللها بالطل (أي الندى) أو نتيجة وجود كائنات حية «كالحيات» ويقول إن وجود هذه الظاهرة مما يفسد قياس ارتفاع النجوم حيث لا يتضح الحد الفاصل بين الأفق والماء . يقول في كتابه «حاوية الاختصار» :

تغير الأمواه في الحالات يحصل من طل ومن حيات
حتى يصير الماء مثل النور فذاك لا يخفى على النحرير

والمعروف أن ظاهرة التألق الضوئي لماء البحر أو الاضاءة البيولوجية تعزى الآن إلى عدد من الكائنات البحرية مثل البكتريا والبلانكتون وقناديل البحر وبعض الديدان البحرية وإلى جمع آخر من الحيوانات اللافقرية .

ـ تعريفه المياه الاقليمية :

ولابن ماجد تعريف للمياه الاقليمية جدير بالاعتبار على الأقل من وجهة النظر التاريخية ، ففي كتاب «الفوايد» يقول عن المياه الدولية : ولكن البحر ليس هو بحر أحد من هؤلاء الطوائف (أي لا يتبع أهل الصين والهند والزنج والفرس وغيرهم كما يفهم من سياق الكلام) إنك إذا غيبت البرور (أي البر) عن نظرك ما عندك إلا معرفتك بالنجوم والهداية بها ، أي أنك تصبح في البحر الطليق ولا يحكم مسارك سوى الملاحة الفلكية .

ومعنى هذا أن المياه الاقليمية في نظر ابن ماجد تمتد إلى الحد الذي يغيب فيه الساحل عن بصر الملاح من فوق مركب شراعي وهو يبتعد عن البر ، وهذه المسافة تقدر بنحو أربعة أميال بحرية في الظروف المعتادة ولو أن ابن ماجد لم يذكر هذا

التقدير بالأرقام . أما بعد ذلك فإن الملاح يصبح في البحر الطليق . (المرجع السابق ، ص ٢١٩) .

مؤلفات ابن ماجـــــد

وكما رأينا فإن مؤلفات ابن ماجد التي تركها لنا هي التي ضمت اسهاماته العملية في علم البحار كما ضمت اسهاماته النظرية فيما وضع من قواعد ودستور للملاحة بأركانها الثلاثة : الربان والسفينة ومن عليها من ركاب وما عليها من شحنة .

ويعتبر «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» المؤرخ في عام ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م أكثر أعمال ابن ماجد نضجا ، وينقسم إلى اثني عشر فصلا ، هي :

١ - أصل الابحار والابرة المغناطيسية .
٢ - الصفات والمعارف المطلوبة في المعلم .
٣ - أوجه القمر .
٤ - الأخنان .
٥ - الجغرافيون والفلكيون السابقون .
٦ - في الديرات الثلاثة (أي المسالك البحرية) .
٧ - في الباشيات والقياس .
٨ - في الارشادات والسياسات وتركيب المركب والمعسكر .
٩ - وصف السواحل ومجموعات المعلمين الثلاثة .
١٠ - في الجزر الكبار المشهورات (أي وصف أكبر جزر في العالم) : جزيرة العرب ، والقمر (مدغشقر) ، وسومطره ، وجاوه ، والغور ، وسيلان ، وزنجبار ، والبحرين ، وسوقطره ، وابن جاوان .
١١ - في المواسم (أي الرياح الموسمية) .
١٢ - في صفة بحر قلزم العرب وجزره وشعابه .

يقول المستشرق الفرنسي فيران **Ferran** : إننا يجب أن نعتبر هذا الكتاب لونا من التأليف يتناول علم الملاحة بالصورة التي كان عليها في أواخر العصور الوسطى . ولقد كان ابن ماجد في طليعة الكتاب العصريين في الارشاد البحري ، وكتابه يحوز الاعجاب ، وإن وصفه للبحر الأحمر على سبيل المثال لم يتفوق عليه أحد أو حتى يساويه . أما المعلومات التي قدمها المؤلف عن الرياح الموسمية والمحلية وطرق وخطوط العرض لعبور المحيط الهندي في أنحائه كلها فهي دقيقة متصلة في الحدود التي يمكن أن نتوقعها من تلك الحقبة من الزمن .

ويعلن السيد نفيس أحمد أستاذ الجغرافيا بالكلية الاسلامية بكلكتا أنه بلغ انتفاع الناس بهذا الكتاب أن ظلت ذكرى مؤلفه حية باقية في جزر مالديف وفي السواحل الهندية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وحتى منتصف القرن نفسه هناك كتابات تدل على أن المبحرين من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي بآفاقه المترامية قد اعتادوا أن يقرأوا الفاتحة لروح الشيخ ابن ماجد تقديرا لفضله . (نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، الألف كتاب ٢٧٢ ، دار القلم ، د.ت. ، ص ١٣٦) .

أما المركز الثاني لمؤلفات ابن ماجد فتحتله «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» وهي أولى مؤلفات ابن ماجد إذ يرجع تأليفها إلى عام ٨٦٦ هـ/ ١٤٦٢ م . وتعتبر ملخصا مختصرا لعلم الملاحة البحرية . وهي منظومة بالشعر . وتبتدىء بسلسلة من الأراجيز والقصائد تختلف في أحجامها وموضوعاتها الرئيسية ومن أهمها :

رقم ٤ : «تحفة القضاء» وتصف طريقة إيجاد القبلة بواسطة خطوط الطول والعرض أو بالبوصلة .

رقم ٥ : أرجوزة «بر العرب في خليج فارس» ، وفيها وصف لجزيرة البحرين ، وخارج ، داس وخدي ، لاز ، رعنا ، الكهن ، قيس ، هندراني ، طنب ، هنجام .

رقم ١٣ : أرجوزة فلكية عن أسد الله المظفر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

رقم ١٤ : أرجوزة وصف الطريق بين مكة وجدة إلى رأس الفرتك ، إلى كاليكوت ودابول وكَنْكَنْ وجوزرات والأطواح وهراميز .

وفي مخطوط آخر بالمكتبة القومية بباريس (رقم ٢٥٥٩) توجد ثلاثة مؤلفات أخرى لابن ماجد ، وهي عن الطرق البحرية الصغيرة مشروحة بالشعر وبقواف على مختلف الحروف العربية .

وقد اعتمدت الموسوعة البحرية التركية «المحيط» التي ظهرت في القرن السادس عشر لمؤلفها شلبي على المصادر العربية أساسا وفي مقدمتها كتابات ابن ماجد .

وتحتوي المخطوطة رقم ٢٢٩٢ على معلومات نادرة عن طابع أعمال الملاحين القدامى ومن جاء بعدهم ، يقول ابن ماجد في صفحة ٣ ب : «فلما استوت السفينة وتعلمت الناس صنعت السفن على جميع سواحل البحر في جميع الأقاليم التي قسمها بين أولاده يافث وسام وحام وهو آدم الثاني (يقصد نوح) فصار كل يعمل في البحريات والخلجان وأطراف البحر المحيط حتى انتهت الدنيا لعصر بن العباس ، وكان استقامة ملكهم ببغداد وهي عراق العرب وكان خراسان جميعه لهم ، والطريق من خراسان لبغداد بعيدة مسيرة ثلاثة أشهر أو أربعة» . (الاشارة هنا إلى المسافة الكبيرة بين خراسان وبغداد لتأكيد اتساع دولة العباسيين) . وفي ذلك العصر الثلاثة رجال المشهورين : محمد بن شاذان وسهل بن ابان وليث بن كهلان .

ثلاثة أزهار في معرفة البحار :

كتبت هذه الأراجيز (أي المكتوبة على وزن الرجز) لتخدم غرضا عمليا هو تسهيل استذكار المعلومات المتنوعة اللازمة عن الطرق البحرية .

والأرجوزة الأولى تعرف «بالسفالية» وفي الجزء السادس منها شرح شروط

الابحار في مياه الشاطىء الشرقي لافريقيا . والثانية «المعقلية» ولها علاقة بالهند وجزر الملايو وموانىء جنوب الصين والثالثة «التائية» أي أرجوزة قافيتها التاء ، ولكن بعد هذا مباشرة اشارة إلى أنها من «جدة إلى عدن» وهي عبارة عن دليل أو وصف لذلك الطريق المائي القصير عبر البحر الأحمر ، وهو ما يمكن أن يكون الدليل البحري لابن ماجد نفسه المشهور في عصره «بملاح طريق الحج» .

وبذلك تقدم هذه الأراجيز الثلاث في مجموعها صورة متكاملة لحوض المحيط الهندي ، والجوانب الأساسية المختلفة للملاحة فيه ، وإلى جانب ذلك فإن هذه المؤلفات تمكننا من الحكم على مستوى علم الملاحة في القرن الخامس عشر . ويزيد في أهمية هذه المؤلفات أن المائة عام الأخيرة لتلك الفترة كانت في كثير من النواحي ذروة ما بلغه هذا العلم .

وهناك موضوعان يمتزجان بشكل ملحوظ في كل صفحة تقريبا ، بل وأحيانا في البيت الواحد وهما الفلك أي شرح موضوع النجوم بالنسبة لأي مكان على شواطىء المحيط الهندي ، والاشارة إلى العامل النجمي الذي يتحكم في تحديد الخروج أو عدم الخروج إلى البحر المفتوح ، وبيان الاتجاه الذي يزيد أو ينقص معه هذا العامل . أما الموضوع الثاني فهو الجغرافيا الطبيعية التي تتضح في شرح هذه الأماكن نفسها وبيان أي عمق معين مع تحديد أو تثبيت الجزر التي على نفس الطريق . وكذلك بيان المياه الضحلة والشعب وطبيعة المجرى ، والدوامات واتجاه الريح في مختلف أوقات السنة .

وإذا كان الموضوع الأول تحدده الأرقام الجافة المتعلقة بوضع النجوم بالنسبة لمحاور معينة فإن الموضوع الثاني يتميز بأنه عند شرح الأماكن ترد معلومات تتعلق بالخواص الطبيعية للقشرة الأرضية ، والمزروعات ، والحيوانات ، والثروات الجافة في باطن الأرض . وكذلك ترد أسماء الأجيال والحضارات المتعاقبة ، كما ترد أحيانا الأسماء الجغرافية للأماكن بلغتين إحداهما العربية والثانية لغة ذلك المكان . (ثلاثة أزهار في معرفة البحار ، ص ١١٧) .

معرفته الواسعة العامة

ولا يتميز ابن ماجد بأنه ملاح ماهر فقط ، ولا بأنه جمع بين الناحيتين العملية والنظرية فوضع المؤلفات بناء على خبرته ، بل تتميز شخصيته بالاضافة إلى هذا وذاك بمعرفته العامة الواسعة جدا ، فقد كان ذا معرفة واطلاع شاملين ، تدلنا على ذلك أسماء المؤلفات التي يذكرها في كتاباته . فمثلا يذكر في أحد الفصول خمسة عشر شاعرا معروفا في عصر ما قبل الاسلام وبعده مثل امرىء القيس ، والمهلل بن ربيعه ، وعنتره بن شداد ، وعمر بن أبي ربيعه ، وأبي الحسن بن هانىء (أبو نواس) . كما تدل مؤلفاته أنه قرأ أغلب ما كان متاحا في عصره من كتب في الأدب والفلك والجغرافيا مثل كتب : تقويم البلدان لابن حوقل والبتاني وابن سعيد وأبو الفدا وياقوت والمجسطي والشفاء لابن سيناء وغيرها . يقول في «الحاوية» :

قد راح عمري في المطالعات ... وكثرة التساؤل في الجهات
وكم رأيت في خطوط الشول ... ونظمه والنثر والفصول
وكم نظرت في الحساب العربي ... وحسبة الهند مذ كنت صبي
فلم أر في اتفاق أصلي ... في القمر والزنج صحيح النقل
وفي جنوبي جاوة والصين ... والغال علما صادقا يقيني

والشول أو الشوليات طائفة من الهنود على الساحل الشرقي للهند ، والقمر هي جزيرة مدغشقر ، وساحل الزنج بين ممباسه وسفاله ، والغال جزر اللكايف .

ويبلغ اعتداده بنفسه منتهاه حين يقارن نفسه بالربابنة الآخرين في مثل قوله :

ونهاية المتقدم بداية المتأخر ، وقد عظمنا علمهم وتأليفهم ، وجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا أنا رابع لثلاثة . وربما في العلم الذي اخترعناه في البحر ورقة واحدة تقيم في البلاغة والصحة الفائدة والهدايا والدلالة بأكثر مما صنفوه .

ويبلغ اعتزازه بعلمه قوله :

والقوا سلاح الجهل لما تحققوا   مقالي في عرب وعجم وديلم
بقولي اني رابع لثلاثة   فحق لسادس تموت وتغتم
بوادر علم البحر عني تفرعت   وخير صفات البحر تخرج من فمي

ويطلب ابن ماجد ممن يقرأ مؤلفاته أن يتلو له الفاتحة وسورة الاخلاص . يقول في الحاوية :

اسأل الرحمن يا معواني   إذا تلوت النظم والمعاني
اقرأ لي احمد مع الاخلاص   تنفعني في العرض والخلاص

دستور ابن ماجد

في عصر ابن ماجد كانت الشروط التي ينبغي توافرها في الملاح والملاحة قد أصبحت لها أهمية كبيرة لدرجة أنها كانت مدونة ضمن القوانين الهامة للدولة ، وربما كان ذلك حفاظا على أرواح الناس وممتلكاتهم ، بضائع كانت أو سفنا .

وقد وضع أحمد بن ماجد تعاليم لكل من الربان والسفينة : ركابها وشحنتها وذلك لكفالة السلامة والأمن ، وهي تعاليم لا شك مستخلصة من خبرته الطويلة في البحر من ناحية ومن موهبة التأليف المستخلصة من هذه الخبرة ومما قرأه من كتب الأسبقين . وقد استطاع الدكتور أنور عبدالعليم استخلاص هذه التعاليم من مؤلفات ابن ماجد ، نورد أهمها هنا :

أولا ـ الربـــان :

ــ أن يكون على مستوى أخلاقي رفيع . فابن ماجد يشبه الخروج إلى البحر في كل رحلة بأداء الفريضة ، يتطلب من صاحبها توفر ركنين : الطهارة «طهارة البدن والروح» ، وإخلاص النية ، وفي ذلك يقول في «كتاب الفوائد» : ينبغي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكره .

وفي موضع آخر من قصيدة له تعرف باسم «القصيدة المكية» يقول نظما :

ركبت علــى اسم مجــري سفينتي   وعجلت فيهــا بــالصــلاة مبــادرا

ــ أن يحصل قدرا كافيا من الفنون الملاحية وعلم الفلك يؤهله ليعرف طريقه في البحر سواء بالليل أو بالنهار ، بالقرب من الساحل أو في البحر الطليق .

ــ أن يواصل الدراسة والتحصيل والتدريب على فنون البحر على الدوام .

ــ كما يطالب الربابنة في كتاب «الفوائد» قائلا :

«تأمل في جميع الأشياء لتكون عالما بها عند الشدة ، ولتكن حازما قويا في كلامك وأقوالك وأفعالك ، لينِّ الطبيعة ، ولا تصحب من لا يطيعك في ما يعينك ، وكن شجاعا حازما ذا بأس قليل الغفلة كثير الهمة . .» .

« . . واترك ما لا يعنيك ، وانْهِ جميع الركاب عن كثرة المزاح في البحر فما ينتج منه إلا الشر والبغض والعداوات . ولا تركب سفينة أنت فيها غير مطاع . واستشر وهذب الرأي فإن ركوب الانسان عند من لا يسير مسيره صعب في بحر أو بر» .

ــ ويلخص ابن ماجد الصفات الانسانية التي يجب أن يتحلى به الربان في قوله : . . وينبغي للمعلم (الربان) أن يعرف الصبر من التواني ويفرق بين العجلة والحركة ، ويكون عارفا بالأشياء ، عزاما فتاكا ، لينا في قوله ، عادلا لا يظلم أحدا لأحد ، مقيما على الطاعة لربه ، متقيا الله عز وجل ، لا يغضب التجار على حقوق إلا على شيء وقع عليه القول أو جرت به العادة . كثير الاحتمال ، عالي الهمة ، صبورا مقبولا بين الناس ، لا يسعى فيما لا يصلح له ، أديبا لبيبا ، وإلا فليس هو معلم بالقاعدة .

ثم هو ينصح الربابنة دائما باليقظة وقلة النوم ، وأن ينيبوا عنهم من يقوم مقامهم في مكان القيادة عند الضرورة ، وألا يتهاونوا في أقل خطأ ، فعمل الربان لا يتحمل الخطأ ، وخطأ الربان لا يغتفر . وابن ماجد يعبر عن ذلك بلغة عصره فيقول :

«ولا تكن ذا غفلة ، فإن الخطأ فيه فعل داع لتلف الأرواح والأموال ، وهو أصعب شيء بعد خدمة الملوك . وسائر العلوم خطؤها لفظي يمهلك المراجعة ، وهذا لم يمهلك . والعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» .

وفي الوقت نفسه يحذر الربابنة من أخطار البحر فيقول :

«واعلم أن للبحر عللا فاحذر منها : أولها نوم المعلم ، وحط الجاه (أي النجم القطبي) في الليل في مكان وفي النهار في مكان غيره (أي الخطأ في رصد النجم القطبي) ، وذلك مما يطول الطريق .. خصوصا عند الموجة والتقاصير (القاع الضحل) والمركب الناقع المزمن (أي الذي يرشح من طول بقائه في الماء دون رعاية) . . .» .

«والحذر كل الحذر من صاحب السكان (الدفة) لا يغفل عنه ، فإنه أكبر أعدائك . وما صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي فيه خمسون سنة ما تركت فيها صاحب السكان وحده ، إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامي» .

والمعلم هو عقل السفينة وقلبها المتحرك وروح العمل للمشتغلين عليها ، وكل هذا يضطره أحيانا إلى معاملة نفسه معاملة قاسية ، طالما أن قوانين البحر قد ألزمته بهذا . وهذه الشروط الصارمة التي يتطلبها ابن ماجد نفسه في مهنته حيث يقول : إعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسبابا كثيرة ، فافهمها ، أولها معرفة المنازل والأخنان (جمع خُن وهو كل تقسيم من الـ ٣٢ تقسيما لدائرة الرياح العربية) والدير (جمع ديره : جهاز لقياس سَيْر السفينة) والمسافات والباشيات (جمع باشي وهو ارتفاع نجمة «الجاه» بالنسبة لأدنى علوها على الأفق ، والجاه من الدب الأصغر ، وهي خن من دائرة الرياح التي سبق ذكرها) والقياس والاشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم البحر وآلات السفينة وما يحتاج إليه وما يضره ، وما ينفعها وما يضطر إليه في ركوبها ، وما ينبغي تعرف المطالع والاستوايات وجلسة القياس ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبُعدها وممرها إن كان معلما ماهرا .

وينبغي أن تُعرف جميع البرور (الشواطىء) واشاراتها كالطين والحشيش

والحيات والحيتان . . والأرياح وتغير الأمواه ومد البحر وجزره . . ويكمل جميع الالة ويتفقد في أحضان السفينة وآلاتها ورجالها ، ولا يشحنها غير العادة (أي فوق طاقتها) ولا يطلع في مركب بغير اعتداد (وربما يقصد إعداد) ولا في موسم ضيق ، ويحترز من الأخطار . . » .

ويذكر ابن ماجد قائمة طويلة من المراجع يحث الربابنة على مذاكرتها ويورد تلخيصا لبعضها ثم يعلن قائلا «فإني وقفت على أكثر مما ذكرت» أي أنه قرأ كل تلك الكتب التي ذكرها وأكثر منها .

وإلى جانب الدراسة النظرية التي تعين الربان على فهم صنعته ، فإن ابن ماجد يهتم بالنواحي العملية في الملاحة . ففي معرض تحقيق قياس النجوم يقول كيف أن علمه وتجربته فاقت علم أبيه وجده : «وكان جدي ـ عليه الرحمة ـ محققا ومدققا . . وزاد عليه الوالد بالتجريب والتكرار ، وفاق علمه علم أبيه . فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريبا من أربعين سنة . . انكشف لنا عن أشياء وحكم» .
ويهتم ابن ماجد كثيرا بالتجربة وإعادة تحقيق أرصاده للنجوم على فترات في دقة علمية فيقول : «فوالله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات إلا بعد أن كررت عليهم عشرين سنة . . واني لم أترك في السماء نجما إلا وقد درجته وعرفت نقصانه وزيادته » .

أما الشرط الثالث لتأهيل الربان عند ابن ماجد فهو مداومة العلم والتحصيل ، ولهذا يقول : فاجتهدوا فيه (أي في علم البحر) فإنه علم نفيس ولا يتم إلا بتمام العمر . . وينبغي لعارف هذا العلم أن يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن أهله وعن ضربه حتى يحصل مراده لأنه علم عام عقلي وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه .

ثانيا ـ السـفينة :

وإلى جانب اهتمام ابن ماجد بالربان فإن اهتمامه لا يقل بركاب السفينة

الذين ينهاهم عن الشجار أو المزاح على ظهر السفينة في البحر لأن ذلك يعرضها للخطر كما سبق وأشرنا .

كذلك يهتم بالسفينة نفسها وآلاتها التي تتوقف عليها سلامتها ، وينهى عن شحن السفينة بما يزيد عن حمولتها طمعا في مزيد من الربح ، فلا ينتج عن ذلك سوى الهلاك في عرض البحر .

فمن أقواله فيما يتعلق بآلات السفينة موجها كلامه للربابنة هذين البيتين اللذين سبق شرحهما :

وجـدِّد الآلـة قـبـل السـفـر   مـن حـقـة أو قـيـاس وحـجـر
والبلد والفـانـوس والـرهمـانـج   وان تكن سافـرت كمن حجـج

كذلك يجب معاينة السفينة أثناء صنعها وقبل أن تنزل البحر لضمان السلامة ، فيقول : تأمل في السفينة وهي فوق الأرض واكتب جميع خللها .

وينوه بضرورة معاينة المكان المخصص لبيت الابرة خشية أن يكون صانع السفينة قد أخل بالقاعدة :

«ولا تر خللا في السفينة وتهمله إلى وقت آخر إلا عند ضرورة أشد مما أنت فيه (أي إلا بسبب أقوى) وجوِّد الموسم (أي اختر الموسم الجيد الملائم للسفر) واختصر الشحنة ، واحسب حسابات الحازمين العارفين» .

يقول المستشرق الروسي شوموفسكي إن ابن ماجد كان ينفذ هذه المبادىء والتعاليم بحرفيتها وانه رسمها لنفسه .

ابن ماجـد . . هل ارشاده البرتغاليين إلى طريق الهند
حقيقة نفخر بها أم أكذوبة نبرأ منها ؟

جاء في كتاب «عمان وتاريخها البحري» الذي نشرته وزارة الاعلام والثقافة بالسلطنة عام ١٩٧٩ ما يلي :

تشير المصادر العربية إلى أن أحمد بن ماجد تصادف وجوده في ماليندي (على ساحل افريقيا الشرقي الجنوبي) أثناء زيارة فاسكو دي جاما ، وان الملاح البرتغالي حينما التقى به أعجب بغزارة علمه وشجاعته وطلب منه أن يقوده في أول رحلة تتم عبر المحيط بين أوروبا والهند . وكانت الحوافز العلمية هي الحافز الأساسي لقبول أحمد بن ماجد هذه المهمة التي فتحت آفاقا جديدة في تاريخ العالم البحري ، والتي جعلت منه شخصية تاريخية أسطورية .

وقد قامت شهرة أحمد بن ماجد في الغرب باعتباره المرشد الذي قدم مساعدته للبرتغاليين في رحلتهم إلى الموانىء التجارية في جنوب الهند وأهمها ميناء كاليكوت . واكتسب هذا الحدث أهمية خاصة في نظر المعلقين الشرقيين والغربيين على حد سواء باعتبار أن الوصول إلى الطريق بين شرقي افريقيا والهند ، بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، يمثل مفتاح السيطرة التجارية في هذه المياه .

غير أن الكاتب يعود فيستدرك قائلا : وقد ذكر بعض المؤرخين ، خاصة ممن اعتمدوا على المصادر البرتغالية ، أن المرشد الذي قاد فاسكو دي جاما لم يكن عربيا وإنما كان هنديا مسلما ، وذلك بالنظر ـ كما يقولون ـ إلى الفصول المواتية للابحار بين شرق افريقيا والبحر الأحمر من ناحية وجنوب الهند من ناحية أخرى . غير أن هذا الرأي لا يصمد للحقائق لأننا نعرف أن أحمد بن ماجد كان يلم إلماما تاما بالطريق البحري المباشر بين المليبار والساحل الصومالي ، ويترتب على ذلك أن الملاحين والمرشدين العرب كانوا قادرين بالفعل على الابحار فيه .

ثم يتساءل الكاتب : إذن كيف بدأت تلك القصة وكيف شاعت (قصة أن ابن ماجد أرشد البرتغاليين على طريق الهند) . ويعلل ذلك بأن ابن ماجد كان شخصية فريدة كرّس حياته لتطوير فنون الملاحة والارتقاء بخبرة العرب فيها وذاع صيته بعد وفاته حتى أصبح اسمه مرادفا للملاح الكامل . ولما كانت القصص والشائعات لا تكتسب رواجا ما لم يكن فيها بطل ، كان من الطبيعي أن تظهر بعض الأساطير أو المبالغات التي تلتصق بالأفراد البارزين . وأحمد بن ماجد واحد من هؤلاء . . ومن المحتمل أن تكون هذه القصة قد اخترعت بعد وفاته بجيل أو نحو ذلك .

ثم يورد المؤلف احتمالا آخر حين يذكر أنه ربما كان مصدر هذه القصة المؤرخ قطب الدين النهروالي الذي أورد هذه الحكاية للطعن في هذا الملاح العربي العظيم .

وهكذا نجد عرضا للرأيين أو وجهتي النظر في هذه القضية . وللتحقق من هذه القضية علينا أن نرجع إلى طرفيها الرئيسيين وهما فاسكو دي جاما وأحمد بن ماجد ، وإلى المؤرخين البرتغاليين والعرب في ذلك الوقت إن وجدوا . أما فاسكو دي جاما نفسه فإنه لم يكتب مذكرات بخط يده للرحلة ولكن أرّخ لها بعض كتّاب البرتغال لعل أبرزهم المؤرخ البرتغالي دي باروش ، كما أن هناك دفتر يوميات الرحلة نفسها .

أما دي باروش فيقول إن ملك ماليندي (على ساحل افريقيا الشرقي الجنوبي) أرسل إلى الأميرال البرتغالي ربانا مسلما من جوزرات (على ساحل الدكن بالهند) يدعى المعلم (أي الربان) كاناكا معتذرا في الوقت نفسه عن تباطئه في تنفيذ وعده :

قَبِل هذا العربي أن يتوجه معهم إلى السفينة ورضي دي جاما كل الرضا عن معلوماته بعد التحدث معه ، وخصوصا بعد أن عرض عليه الأعرابي خريطة لكل الشواطىء الهندية مرسومة كما هي عند العرب عامة بخطوط الطول والعرض وفي غاية الوضوح ، ولكن بدون الاشارة إلى الرياح بين خطوط العرض ، وذلك لأن مربعات الطول والعرض كانت في منتهى الصغر . واتضح أن الخريطة في منتهى الدقة . وأطلع دي جاما هذا العربي على أسطرلاب كبير من الخشب كان قد أحضره معه وكذلك أسطرلابات معدنية أخرى لقياس ارتفاع الشمس والنجوم ، وعند رؤية هذه الأجهزة لم تظهر على الأعرابي أية دهشة ، بل قال إن الملاحين العرب في البحر الأحمر يستخدمون أجهزة مثلثة ومربعة الشكل لقياس ارتفاع الشمس ، والنجم القطبي خصوصا . وأضاف الأعرابي أنه نفسه وغيره من الملاحين يبحرون من كمبايه (ميناء على الشاطىء الغربي للهند) ومن كل أنحاء الهند ويستعينون ببعض النجوم الشمالية والجنوبية إلى جانب النجوم الواقعة في منتصف السماء ، وكذلك الشرقية والغربية منها ، ولهذا فهم لا يستخدمون الأسطرلاب ، إنما يستخدمون أجهزة أخرى عرضها عليهم ، وهي تتكون من ثلاثة ألواح لها نفس الهدف عند

ملاحينا . وبعد هذا الحديث مع الملاح حصل دي جاما على انطباع مفاده أنه وجد في هذا العربي ثروة كبيرة ، وحتى لا يفقده أمر على الفور بالابحار إلى الهند . وفي يوم ٢٤ ابريل سنة ١٤٩٨ م اتجه الملاح العربي في الطريق وهو ينصحهم ألا يقربوا الساحل وأن يتوغلوا في البحر ثم يعودوا حتى لا تغرقهم الأمواج .

ووصل دي جاما إلى كاليكوت (كلكتا حاليا) في ٢٠ مايو من العام نفسه أي في أقل من شهر ، وبقيت البعثة هناك حتى ١٠ ديسمبر .

وتوجه الملاح العربي من كاليكوت إلى كابوكات حيث يقيم أعرابي يعرف باسم «أبي سعيد» وهو الشخص المسئول عن أعمال التجارة .

والواقع أن اسم الملاح نفسه لم يذكر صراحة في أي مصدر من المصادر البرتغالية ولا في دفتر الرحلة نفسها الذي دُوِّنت فيه العبارة التالية : «إننا بارحنا ماليندي يوم الثلاثاء ٢٤ ابريل ومعنا الربان الذي أرسله الملك (أي ملك ماليندي) ووجهتنا بلد يسمى كاليكوت التي حدثنا عنها الملك المذكور واتخذنا اتجاهنا إلى الشرق نحو هذا البلد» .

ولكن أول من ربط بين مرشد فاسكو دي جاما والملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد هو قطب الدين النهروالي الذي يرجع تاريخ تأليفه مخطوطه إلى عام ١٥٧٧ م وعنوانه «البرق اليماني في الفتح العثماني» ، وعنه أخذ المستشرق الفرنسي فيران (١٩٢٢) وهو أول من ربط بين الاثنين من الأوروبيين ، وتبعه في ذلك المستشرق الروسي شوموفسكي الذي قام بتحقيق ثلاثة أراجيز لابن ماجد . وفيما يلي النص الذي اعتمد عليه فيران ، وقد جاء في باب عنوانه «في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة» .

وقع في أول القرن العاشر الهجري من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين (يقصد البرتغال) من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون زقاق سِبْتَه (أي مضيق جبل طارق) في البحر الرومي ويلجون في الظلمات (أي المحيط الأطلسي) ويمرون خلف جبال القُمْر - بضم القاف وتسكين

الميم ـ (أي من ناحية جنوب غرب افريقيا) وهي جمع أقمر أي أبيض وهي أصل ماء بحر النيل ، ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات في جانب كثير الأمواج لا تستقر به سفاينهم وتتكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب (سفينة) إلى بحر الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلّهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندي (يقصد الميرانتي أو الأميرال) وعاشره في السكر ، فعلّمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج (هذا الكلام ينطبق أكثر ما يكون على بحر جنوب افريقيا ، أمام رأس الرجاء الصالح ، وليس على الطريق من ماليندي إلى الهند) فلما فعلوا ذلك سار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند وبنوا في كوّه (يقصد جوا المستعمرة البرتغالية بالهند والتي ظلت تابعة للبرتغال حتى أيام الاستعمار الانجليزي ولم تنضم إلى الهند إلا في الستينات من هذا القرن وبعد استقلال الهند بعدة سنوات) . . قلعة يسمونها كوتا .

تلك هي رواية قطب الدين النهروالي التي أشار إليها كتاب «عمان وتاريخها البحري» مشككا في صحتها ، فما مدى دقتها ؟

لقد رجعنا إلى فاسكو دي جاما نفسه فوجدنا أنه لم يكتب ـ أو يترك لنا ما كتبه ـ عن رحلته ، ورجعنا إلى يوميات السفينة والمؤرخين البرتغاليين فوجدنا أنهم لم يذكروا اسم أحمد بن ماجد ، بل ربانا مسلما أحيانا باسم المعلم كانا أو كاناكا أو عربيا من المغرب أحيانا ، ووجدنا أن قطب الدين النهروالي هو وحده الذي ذكر ابن ماجد في هذه الواقعة . وبقي أن نرجع إلى ابن ماجد نفسه الذي ترك لنا مادة غزيرة من كتاباته وأراجيزه ، فنجد أنه قد دوّن بعض وقائع هذا الحدث في أراجيزه ، لكن لا يتضح من كلامه أنه أرشد البرتغال إلى الهند مما يشكك في صحة رواية النهروالي والمستشرقين الذين أخذوا عنه . وممن يؤيدون هذا النفي الدكتور أنور عبدالعليم في كتابه «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» وذلك للأسباب الآتية :

ـــ إن النهروالي كتب كتابه «البرق اليماني» بعد رحلة فاسكو دي جاما الأولى بحوالي ثمانين سنة ، ومعنى هذا أنه اعتمد على الاشاعات ، ومن عادة العوام أن ينسبوا الحوادث الكبرى للأسماء اللامعة . ولو كانت هذه الاشاعة صحيحة لكان من الأولى أن يدونها سيدي علي حسين الربان التركي مؤلف كتاب «محيط» الذي دونه عام ١٥٥٧ م ، أي قبل النهروالي بعشرين عاما ، وهو الذي أتيح له الاطلاع على مؤلفات ابن ماجد وعاشر الربابنة العرب ولم يستمع منهم إلى حكاية ارشاد ابن ماجد لفاسكو دي جاما .

ـــ يروي النهروالي أن ابن ماجد دلّ الأميرال البرتغالي على الطريق وهو في حالة سكر ، وهو أمر غير معقول ، فابن ماجد أولا رجل فاضل نص في تعاليمه على ضرورة الطهارة عند ركوب البحر لأنك في السفينة «ضيف من ضيوف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكره» على حد قوله ، كما كان يبدأ رحلته بالصلاة لله كما يقول في قصيدته المكية :

ركبت على اسم الله مجري سفينتي وعجلت فيهـا بـالصـلاة مبـادرا

فضلا عن أنه كان في ذلك الوقت في سن متقدمة لا تسمح له بأن يتصرف تصرف الشباب الطائش . كما أن الربان البرتغالي لم يكن من السذاجة بحيث يطمئن إلى رجل فاقد الوعي يدله على الطريق .

ـــ يبدو الخلط واضحا في مقال النهروالي ، فهو يعتقد أن ابن ماجد دل البرتغال على الطريق حول رأس الرجاء الصالح الذي كانت سفنهم تتكسر حوله ، وفي ذلك يقول «وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان . . » وابن ماجد لم تكن له تجربة أو معرفة بالساحل الافريقي الجنوبي ولا برأس الرجاء الصالح ليحذر البرتغال منه . وهذا دليل على عدم دقة رواية النهروالي .

إن أغلب المصادر البرتغالية نفسها تقرر أن الربان موضع الخلاف كان مسلما من جوزرات ، وكان يعرف بالمعلم كانا أو كاناكا ، بينما ابن ماجد عربي من ظفار

بالجزيرة العربية ، واسمه سهل النطق والحفظ ، فلماذا تغفله المصادر البرتغالية كلها بلا استثناء إذا كان هو الذي أرشد فاسكو دي جاما .

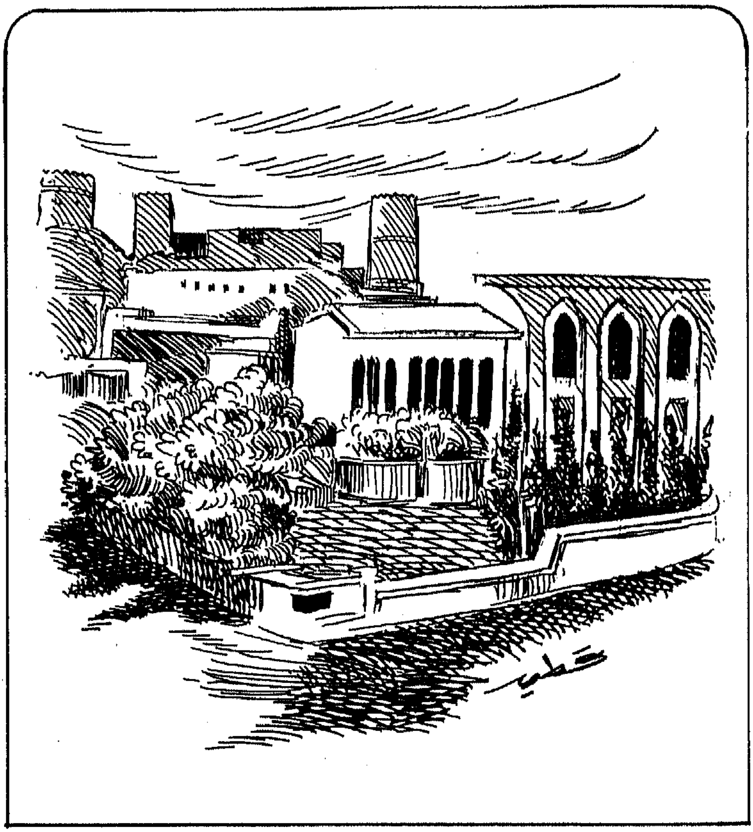
ـ وأخيرا فإن ابن ماجد كان يدرك بأن البرتغال مستعمرون يضمرون الشر للاسلام والعروبة . وكلامه عنهم يؤيد ذلك في أرجوزته السفالية التي يقول فيها إن رحلة البرتغال إلى الشرق استغرقت عامين فوصلوا ساحل الزنج عام ٩٠٠ هـ ، ومالوا بسفنهم إلى الهند ، ومنها إلى بر الزنج . وبعد ذلك في عام ٩٠٦ هـ جاءوا مرة أخرى إلى الهند واشتروا البيوت واستقروا وصاحبوا السوامر (حكام الساحل الهندي) ، ويعجب من أمر هؤلاء الافرنج ، هل جاءوا ليحكموا البلاد أم هم لصوص مجانين كما يقول الناس ! ولا يشير إطلاقا أنه رافقهم أو أرشدهم أو حتى التقى بهم أو تحدث إليهم ، وفي هذا يقول :

جاءتها في عام تسعماية ... مراكب الافرنج يا خاية
فجروا عامين كاملين ... فيه ومالوا الهند باليقين
ورجعوا من هندهم للزنج ... في هذه الطريق الافرنج
وبعد ذا في عام تسعماية ... وست جاءوا للهند يا خاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا ... وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا ... ذا حاكم أو سارق مجنونا
يا ليت شعري ما يكون منهم ... والناس معجبين من أمرهم

***

وهكذا فإن قصة أو اشاعة إرشاد ابن ماجد للبرتغاليين إلى طريق الهند أكذوبة نبرأ منها وليس حقيقة نفخر بها . وعظمة ابن ماجد لا تأتي ـ كما يريدنا الأوروبيون أن نصدق ـ من أنه دلّهم على طريق الهند ، ولكنها تأتي من عبقريته العملية والعلمية وما تركه لنا من آثار كان لها دورها في تطوير الحضارة الانسانية وتقدمها .

مسقط



في قصة «سور المنايا» للقاص العماني أحمد بلال في مجموعته القصصية التي أطلق عنوان هذه القصة عنوانا عليها ، نقرأ في بدايتها قصة شاب عماني أتى في الستينات من هذا القرن في سيارة من أقصى شمال عمان يحمل أمه العجوز المريضة للعلاج في مستشفى طومس (نسبة لأحد الأطباء الأمريكيين الذين كانوا يعملون فيه ، واسمه مستشفى الرحمة حاليا) ، لكنه ما أن وصل إلى سور المدينة القديمة التي بداخلها المستشفى حتى وجده مغلقا لأن الشمس كانت قد غربت ، ولم تفلح توسلاته في اختراق قلب مأمور الجمرك وبالتالي في اختراق السور المغلق . فلما عاد إلى أمه العجوز وجد أنها ماتت في السيارة حيث تركها .

وواضح أن قصاصنا العماني يحتج ويسخر في قصته من الأوضاع التي كانت سائدة قبل عام ١٩٧٠ في كل من مطرح ومسقط ـ فهما تكوّنان الآن جزءا من العاصمة الحالية ـ اللتين كان حول كل منهما سور حتى لقد وصفه بأنه «سور المنايا» ، ويشيد بطريقة غير مباشرة بما جَدّ من تطورات في مقدمتها هدم ذلك السور .

مســـقط القديمـــة :

جاء في كتاب «الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان» للمؤرخ العماني حميد بن محمد بن رزيق (١٢٧٥ هـ) أن مسقط مدينة معروفة ، والعامة تسميها مَسْكَدْ غلطا . . عمرتها بعض عرب عمان ، وهم يمن الأنساب ، فغرسوا فيها

نخيلا وأشجارا تسقيها آبار ، وآثار هذه الآبار باقية إلى هذه الغاية ، سنة الخمس والسبعين والمئتين والألف . ثم اشتراها النصارى البرتكيسيه (يقصد البرتغاليين) منهم فسوّروها من حد جبل المكلا إلى جبل السعالي ، وأحدثوا فيها حصنين كبيرين : شرقيا وغربيا .

فلما اصطلمها (هنا بمعنى استولى عليها) العرب منهم سموا حصنها الشرقي الجلالي ، وسموا الحصن الغربي الميراني .

وأحدثت النصارى فيها بروجا على السور وأبنية على رؤوس جبالها وخمس عقبات : الأولى من أول المطرح إلى أول ريام ، والثانية من آخر ريام إلى أول مسقط ، والثالثة من آخر كلبوه إلى أول مسقط ، والرابعة من آخر سداب إلى أول مسقط إلى جانب سهيل ، والخامسة من آخر جبال مسقط إلى أول الوادي الذي يفضي إلى دارسيت (حميد بن محمد بن رزيق ، الشعاع الشائع باللمعان في ذكرى أئمة عمان ، وزارة التراث القومي ، سلطنة عمان ، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥) .

وكان الفونسو دا البوكيرك قد انطلق في عام ١٥٠٦ م إلى الشرق حاملا رسالة ملكية من الملك مانسيل بتعيينه نائبا للملك على الهند وحاكما لها بدلا من فرانسيسكو ديل الميدا . وقد توقف في طريقه على عدد من موانىء افريقيا الشرقية ، كما توقف على عدة موانىء عمانية منها مسقط التي ذكر أنها «المركز التجاري الرئيسي لمملكة هرمز» . وكتب يقول : إن مسقط مدينة ضخمة كثيرة السكان . . فيها بساتين وحدائق ومزارع للنخيل وبرك من الماء لريها بواسطة محركات خشبية . أما ميناؤها فصغير وله شكل حدوة الحصان ، يوفر الوقاية من كل الرياح . . كانت مسقط في الآونة الأخيرة سوقا لنقل الخيول والتمور . وهي مدينة على درجة كبيرة من الأناقة والجمال ، ومنازلها بديعة جدا يتم تموينها من المناطق الداخلية بكميات كبيرة من القمح والذرة والشعير والتمور تكفي لتحميل كل السفن التي تأتي لشرائها (دونالد هولي ، عمان ونهضتها الحديثة ، مؤسسة ستايس الدولية ، لندن ، ١٩٧٧ ، ص ٢٩) .

وقد قاومت مسقط البوكيرك وجنوده فكان نصيبها التدمير والحرق . فلما استولى عليها أقاموا الحصنين المعروفين اليوم بالجلالي والميراني كتحصينات دفاعية . وفي عام ١٦٥٠ أجلى العمانيون البرتغاليين عن مسقط كما سبق أن أجلوهم عن عمان بعد حوالي قرن ونصف قرن من الاحتلال البرتغالي .

إن الثروة التي جلبتها التجارة البحرية جعلت عمان بلدا ذا منازل يبدو عليها الترف والفخامة ، كما أنها بلد القلاع والحصون . وما يزال في مسقط نفسها حوالي اثني عشر بيتا تم بناؤها ما بين أوائل وأواخر القرن الثامن عشر . وكل هذه البيوت ذات المظهر الخلاب المتناسق لها أفنية في وسطها تحيط بها المباني التي تعلوها بروزات تماثل في شكلها تلك التي نجدها في العمارة المنغولية . ووضع النوافذ في غاية التناسق ، كما أنها ـ وكذلك الأبواب ـ ذات نقوش رائعة ، ويفضي سلم حجري بسيط إلى الدور الأول .

وتعتبر الدكتورة سعاد ماهر أن بيوت مسقط الأثرية ضمن العمارة الحربية باعتبار أن تصميمها المعماري يراعي أن يكون القصر أو الدار قلعة حربية يمكن أن تحمي نفسها وقت الحاجة . وقد ذكرت البيوت التي لا تزال باقية من غرب مسقط إلى شرقها فإذا هي اثنا عشر دارا (الدكتورة سعاد ماهر ، الاستحكامات الحربية في مسقط ، حصاد ندوة الدراسات العمانية ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨١ ، جـ٢ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥) .

ومسقط قبل عام ١٩٧٠ ـ عام بدء النهضة التي قام بها جلالة السلطان قابوس ـ لم تكن أكثر من نصف ميل ساحلي يقع بين قلعتي الجلالي والميراني ، يحيط بها سور تغلق بوابته عند غروب الشمس بعد أن يطلق أحدالمدافع طلقاته إيذانا وإنذارا بإغلاق البوابة ، فلا يستطيع أحد الخروج أو الدخول . وكان السلطان السابق سعيد بن تيمور قد أصدر أمرا عام ١٩٤٨ بأن يحمل كل من يخرج من بيته ليلا ـ لدواعي الأمن ـ فانوسا مضاء بالبترول . وواضح من ذلك أن مسقط في ظل مثل هذه الأوضاع كانت تنتمي إلى القرون الوسطى حتى عام ١٩٧٠ ، لكنها في أقل من خمسة عشر عاما أصبحت في قلب القرن العشرين بفضل جلالة السلطان قابوس

الذي عرف كيف يستغل النفط المكتَشَف لخدمة البلاد وتطويرها وفي مقدمتها عاصمتها مسقط ، يعاونه في ذلك مجموعة من شباب العمانيين المتحمسين لبلدهم .

وهكذا بسطت العاصمة الحديثة جناحيها لتمتد ثلاثين ميلا عبر الأراضي الساحلية ابتداء من مسقط ومرورا بمطرح وبوشر حتى السيب ، يحدها شرقا وغربا القصران السلطانيان : قصر العلم شرقا وقصر السيب غربا .

مســقط الحديثـة :

ولقد كانت سرعة تحول مسقط من عاصمة ضيقة أشبه بمدن القرون الوسطى إلى منطقة إعمار متسعة مترامية سرعة ، سرعة مذهلة . ففي عام ١٩٧٠ كانت أيسر وسائل الانتقال هي المشي ، أما الآن فقد أصبحت السيارة ضرورة لا بد منها لمن يرغب في التنقل في منطقة العاصمة .

ولعل المظهر الذي يرمز إلى زوال الحواجز القديمة زوالا سريعا هو انهيار الباب الكبير ، وهو البوابة المفضية إلى مطرح والتي بنيت في القرن السابع عشر ، فقد انهار عام ١٩٧٣ ، ومن المعتقد أن انهياره يرجع إلى السيارات التي هزت أساسه . وهو يرمز ـ على أية حال ـ لقضاء الجديد على القديم .

وكان أول برنامج انشائي في عمان هو تعمير الشريط الساحلي من مسقط إلى مطرح . وجعلت الحكومة الاسكان من أولوياتها الرئيسية بعد عام ١٩٧٠ ، وأصبحت هناك سجلات للملكية .

وكانت هناك تلال ومرتفعات تعترض سهولة الاتصال بين مناطق العاصمة بسبب طبيعتها الجبلية ، فلم تتردد الدولة في استخدام البولدزرات والوسائل الحديثة في شق الطرق بين الجبال ، بحيث أن ما كان يستغرق عبوره ربما أكثر من نصف يوم صعودا ونزولا على أحد التلال للوصول من منطقة إلى أخرى أصبح الآن لا يستغرق أكثر من خمس دقائق على طريق ممهد .

وربما كان آخر ما شاهدته العاصمة في العام الماضي جسر دارسيت وبعض الكباري العلوية في الشوارع الرئيسة ، مما ساعد على انسياب حركة المرور .

ومن أهم وأفضل المشاريع السكنية الجديدة مدينة قابوس التي تبعد عن مسقط القديمة باثني عشر كيلومترا ، لكنها تقع في منطقة العاصمة عند القرم بين مسقط القديمة والسيب . وكان مشروع هذه المدينة يهدف إلى أمرين : حل أزمة الاسكان ، ومنع طغيان الجانب الحديث من المباني الخاصة والتجارية على مدينة مسقط القديمة .

كما بنيت مدينة الاعلام لتوفير مكاتب ومقر لوزارة الاعلام ، ولانشاء محطة إذاعة واستوديوهات للبث التليفزيوني . كما أنشئت قرية دبلوماسية تضم مباني السفارات ومساكن موظفيها . وكذلك منطقة صناعية تقع غربي السيب هي منطقة الرسيل .

كما أصبحت روي - التي كانت مركزا صغيرا - ترتبط الآن مع مطرح بأوتوستراد وتفخر بمركزها المدني التجاري . وقريبا منها تقع مباني الغرفة التجارية والبنك المركزي وبعض المساجد .

أما الوطية - التي لا تبعد كثيرا عن روي - فقد ضمت المعهد الاسلامي والاستاد الرياضي الذي يقام فيه سنويا الاحتفال بالعيد الوطني . وقد أشرفت شرطة عمان على بناء هذا الاستاد الذي يضم ملعبا تعادل مساحته مساحة الملاعب الأولمبية ومضمارا للعدو يبلغ طوله ٤٠٠ متر وأماكن لعشرة آلاف متفرج .

كما بنيت مجموعة من الفنادق الفخمة الحديثة منها فندق الفلج وفندق روي وفندق انتركونتيننتال وفندق الخليج وفندق نوفوتيل بجوار المطار ، كما أوشك العمل أن ينتهي في فندق البستان المطل على شاطيء البحر والذي يقع في مكان في غاية الروعة لينزل فيه ضيوف الدورة السادسة لمجلس التعاون الخليجي .

كما تضم العاصمة خمسة مستشفيات كان آخرها مستشفى ابن سينا للأمراض النفسية ، إلى جانب العيادات الخاصة لعدد من الأطباء المتخصصين . كما انتشرت مدارس الذكور والاناث من ابتدائية واعدادية وثانوية ، إلى جانب حضانات الأطفال التي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم . ولم يكن بالسلطنة كلها قبل عام ١٩٧٠ إلا ثلاث مدارس ابتدائية ، وكتاتيب منتشرة في القرى لتحفيظ القرآن

الكريم ومبادىء الحساب واللغة العربية . وفي عام ١٩٨٦ سيتم انشاء جامعة قابوس ليواصل الطلبة العمانيون تعليمهم العالي في بلادهم .

وقد كان من أكثر ما تحتاج إليه عمان مطار دولي حديث ليحل محل المطار القديم الذي لم يكن يستقبل إلا الطائرات الصغيرة الحجم ، والذي كان يعرّض الطائرات للخطر أثناء هبوطها بسبب ما يحيط به من جبال صخرية ، لهذا فقد أقيم مطار السيب على بعد عشرين ميلا من مسقط القديمة على السهل الساحلي ، وقد تم انشاؤه عام ١٩٧٣ بممرات تكفي لهبوط جميع أنواع الطائرات الحديثة بما فيها طائرات الكونكورد الأسرع من الصوت ، وبدأت كثير من شركات الطيران في إنشاء خطوط مباشرة لها ما بين مسقط وعواصم الدول الأخرى مما رفع عدد المسافرين الذين استخدموا مطار السيب الدولي عن مليون شخص سنويا .

كذلك من بين الانجازات الهامة التي أضيفت لمدينة مسقط ميناء قابوس الذي توجد به الآن عشرة مراسٍ عميقة . كما أن هناك ميناء الفحل الذي تقع أمامه جزيرة الفحل وأقيمت قريبا منه مصفاة النفط . وفي هذا الميناء تتم تعبئة ناقلات النفط بالبترول .

ومسقط مركز النشاط الصحفي في عمان ، تصدر فيها صحيفتان يوميتا باللغة العربية وثالثة باللغة الانجليزية ، كما تصدر ست مجلات ما بين أسبوع ونصف شهرية ، اثنتان منها باللغة الانجليزية .

وأقل الشهور حرارة في مسقط شهر يناير إذ تتراوح درجة الحرارة ما بين ٢٧° نهارا و ١٦° م ليلا ، بينما تبلغ الحرارة أقصاها في شهر يونيو إذ تتراوح ما بي ٤١° نهارا و ٢٨° م ليلا . أما شهر نوفمبر الذي تنعقد فيه دورة مجلس التعاون الخليجي فإن الحرارة تتراوح بين ٣٠ درجة نهارا و ٢٠ درجة ليلا .

وكما تمثل مسقط في تطورها التاريخي والحضاري تطور عمان كلها فإنها كذلك من الناحية الجغرافية تتمثل فيها كثير من خصائص عمان لا سيما تعانق صخوره بالبحر (ومسقط معناها مكان السقوط) . أما كلمة مطرح فمعناها مكان الرسو ،

مما يشير إلى المكان الذي كانت تُلقِي فيه قوافل الجمال القادمة من الداخل أحمالها بعد رحلة تطول أو تقصر عبر الجبال والوديان .

وأهم معالم مطرح هو سوقها القديم الذي يتميز ـ شأنه شأن جميع الأسواق الشرقية القديمة ـ بطرقه الضيقة المسقوفة الملتوية ودكاكينه المرتفعة عن الأرض قليلا ببضع درجات ، تفوح منه رائحة العطارة الشرقية ، ويزدحم بالمشغولات العمانية الشعبية كالخناجر والدلاّت (جمع دلّة وهي إناء معدني خليجي لاعداد القهوة العربية) والكمات (جمع كمّة وهي غطاء الرأس المطرز للرجل العماني ، وجمعها باللهجة العمانية كميم) والمشغولات الذهبية والفضية العمانية ، كل هذا جنبا إلى جنب مع محلات أحدث الأقمشة والملابس المستوردة ، وألعاب الأطفال الالكترونية ، والأدوات المنزلية الكهربائية . . إلى آخره . إن هذا السوق الذي يجمع بين القديم والحديث رمز لعمان المعاصرة التي تحافظ على تراثها وتتفتح على دنيا القرن العشرين .

ولعل مواطني مسقط ـ وربما مواطنو عمان بوجه عام ـ يمثلون هذين التيارين اللذين يحفظ وجودهمامعا لعمان ـ في مرحلة تطورها الحالية ـ شخصيتها من ناحية وتفتحها على العالم من ناحية أخرى . فهناك العمانيون الذين كانوا قد غادروا عمان قبل عام ١٩٧٠ إلى الدول الخليجية الأخرى وقبل ذلك إلى ساحل افريقيا الشرقي وجزيرة زنجبار (الآن جزء من دولة تنزانيا ، وكانت يوما ما مقرا لسلطان عمان في القرن التاسع عشر) . وهؤلاء عادوا ليشاركوا في بناء النهضة ، وهم أكثر تحررا ، ويتحدثون الانجليزية بطلاقة بحيث تكاد تكون اللغة العربية لغة ثانية بالنسبة لبعضهم . ثم هناك العمانيون الذين آثروا البقاء في الوطن الأم وهؤلاء أكثر محافظة . ولا شك أن عمان الحديثة ستصهر الأجيال الجديدة في بوتقة واحدة بظهور جيل جديد يجلس الآن جنبا إلى جنب في مقاعد فصول دراسية واحدة ، ويستمع إلى برامج إذاعية واحدة وبث تليفزيوني واحد .

وإذا كان صحيحا أن مباني أية مدينة دلالة على قاطنيها ولغة تعبر عنهم ، فإن مقارنة بسيطة بين مباني مسقط القديمة ومسقط الحديثة توضح لنا مدى التطور ، بل

القفزة التي قفزها الشعب العماني في الخمسة عشر عاما الأخيرة ، ولعل وجود المستشفيات والمدارس ومبنى المجلس الاستشاري للدولة في منطقة السيب بالعاصمة دلالة على أن بناء الانسان العماني يسير جنبا إلى جنب مع بناء المصانع والفنادق والبنوك والمصالح الحكومية والمحلات التجارية التي هي أولا وأخيرا من وإلى الانسان العماني الذي يصنع حاضره وهو يتطلع إلى مستقبله .

وأخيرا فإن مسقط تعتبر ـ وعمان عموما ـ من أكثر عواصم العالم ودوله أمنا ، فوقوع الجريمة أمر نادر الحدوث برغم وجود عدد وفير من الوافدين من مختلف الجنسيات يساهمون في عملية بناء عمان الحديثة بدءا من الخبراء حتى العمال . وإذا سرت في شوارع مسقط الهادئة النظيفة ـ رغم طبيعتها الجبلية ـ فإنك تشعر أنك تسير في طرقات بلد شعبه عريق ، ولا عجب فحضارة عمان تمتد جذورها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد .

كما أن من يتجول اليوم في طرقات مسقط يلحظ بوضوح أنه في كل يوم تضاف إليها لمسة هنا وأخرى هناك ما بين تشجير أو إقامة جسر علوي أو مد طريق أو رصفه تطبيقا لقرار تجميل العاصمة الذي صدر منذ حوالي عام ، وذلك استعدادا لاستقبال ضيوفها من دول مجلس التعاون الخليجي عند انعقاد دورته السادسة في نوفمبر القادم ، فهي أشبه بعروس تتهيأ لحفل زفافها .

عمان فى كتاب عجائب الهند

عُمـــــان
في كتاب عجائب الهند
بره وبحره وجزائره

تأليف : برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي

لما كان لعمان تاريخ يمتد إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، فإنه من الطبيعي أن يرد ذكرها في كثير من المؤلفات القديمة كمؤلفات الرحالة والجغرافيين والمؤرخين عربا وغير عرب ، ومن أبرز هذه المؤلفات الكتب المعروفة بكتب العجائب ، وهي كتب ألفها أصحابها في العصور الوسطى ، وقد أحصى حاجي خلفه ما عرفه منها في كتابه «كشف الظنون» الذي ألفه في القرن السابع عشر الميلادي ، فكان عددها أربعة وعشرين كتابا ذكر عناوينها تحت مادة العجائب .

ومن المفروض أن تعالج هذه الكتب موضوعات الجغرافيا والتاريخ الطبيعي ، بمعنى أنها تصف البلدان وأهلها ومسالكها وحيوانها ونباتها وتربتها ، إلا أنها - فيما يبدو - قد ألفها أصحابها بحيث يكون لها الطابع الذي نطلق عليه اليوم اسم «الكتب الشعبية» أي التي تؤلف لغير المتخصصين ، فما يهم مؤلفيها أن يجمعوا فيها غرائب الموجودات ليجذبوا إليها أكبر عدد من القراء .

ويرى الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» أنه كلما كان المؤلف قليل الحظ من العلم ، كانت طريقته في إيراد ما يروي طريقة ذاتية ، لأن معارفه القليلة لا تتيح له النظر إلى ما يروي نظرة موضوعية ، وقد يضاف إلى هذا انه وهو يكتب للجمهور مدفوع بما يتوقع أن يثيره فيهم من دهشة ، مما يغريه بعدم الحرص على الدقة بل يصبح أكثر استعدادا للمغالاة ، كذلك فإن كثيرا مما يروي يكون منقولا عن غيره ، فلم تصل إليه الوقائع إلا مشوهة تشويها بالغا عبر الألسن

والأسماء المخطوطات المغلوطة ، والأوصاف التي عبث بها العابثون جهلا أو رغبة في التشويق والامتاع .

من هذه الكتب «فريدة العجائب وخريدة الرغائب» لابن الوردي ، و «مختصر العجائب» لابراهيم بن وصيف شاه ، وهي كتب مضمونها أقرب إلى الخرافة ، بينما نجد في كتب أخرى من المعارف الايجابية ما يرفعها إلى مرتبة المؤلفات العلمية بمقياس عصرها مثل موسوعة القزويني «عجائب المخلوقات» وكتاب الدمشقي «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» .

ونلاحظ أن المزج بين الوقائع والأوهام لم يكن قاصرا على الكتب العربية وحدها ، إنما كان صفة غالبة على جميع مؤلفات العهود السابقة لعصر النهضة العلمية الحديثة ، سواء فيها كتب بالسنسكريتية أو البهلوية أو الفارسية من لغات الشرق ، أو باليونانية واللاتينية من مؤلفات الغرب . وقد ذكرنا هذه اللغات على التخصيص لأن الكتب التي كتبت بها كانت مرجع العرب في نهضتهم العلمية ، فهي مسئولة عن كثير من المعارف الثمينة الواردة بالكتب العربية في القرون الوسطى ، كما تتحمل تبعة الكثير من التحريف . (د. حسين فوزي ، حديث السندباد القديم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٣٧) .

وفي عام ١٨٨٦ قدم المستشرق الهولندي فان ديرليت إلى مؤتمر المستشرقين السادس بمدينة لايدن كتابا عربيا عنوانه «عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره» لمؤلف اسمه برزك بن شهريار الناخذاه (أي الربان ؛ لأن ناه معناها سفينة وخذاه معناها رب أو سيد) . وقد نشره فان ديرليت عن مخطوط بمكتبة أيا صوفيا باستنبول (القسطنطينيه اليوم) يعد أقدم مخطوط معروف للكتاب ، ونشر إلى جانب النص العربي ترجمة فرنسية قام بها مارسيل ديفيك . وقد أسعدني الحصول على نسخة مصورة من هذا الكتاب من مكتبة جامعة لايدن نفسها عن طريق الصديق أسعد جابر المدرس بقسم اللغة العربية بتلك الجامعة .

وقد قدر فان ديرليت أن برزك ألّف كتابه فيما بين سنتي ٩٠٠ و ٩٥٠ م .

معتمدا في هذا التقدير على التواريخ التي أوردها مؤلف الكتاب تحديدا للزمن الذي حدثت فيه بعض وقائعه ، ثم على قرائن استدلالية من نصوص الكتاب ، وبعض ألفاظه وحوادثه . (المرجع السابق ، ص ٤٣) .

وقد عارض بعض المستشرقين في هذه التواريخ ، وسواء أصاب فان ديرليت في تحديد تاريخ الكتاب وتاريخ نسخ المخطوط أو أصاب معارضوه ، فإنه أحد كتب العجائب المؤلفة فيما بين القرنين العاشر والرابع عشر ، جمع فيه مؤلفه أو مؤلفوه حكايات البحارة والمسافرين ما بين ساحل افريقيا الشرقي وبلاد الهند والزابج (جزائر الهند الشرقية) والصنف (الهند الصينية) والصين ، فهو صورة من الحياة فيما يعرف بالبحر الشرقي ووصف شواطئه وجزائره تساعدنا على فهم كثير مما ورد في كتب الجغرافيا العربية ، كما نجد فيها أكبر المعونة على شرح القصص البحرية وتحليلها في الأدب العربي . وإذا صدقنا روايات صاحب الكتاب فإننا نجد فيها سجلا قيما لما كانت تتناقله الألسن والأسماع في موانىء سيراف ورامهرمز عن ربابنة بحري الهند والصين .

والكتاب خليط من التخريف والصدق ، والوصف البليغ والمبالغة ، تتتابع حكاياته في شيء من التنظيم أحيانا وفي غير تنسيق أحيانا أخرى .

أما أسلوب الكتاب فإنه سهل دارج ، تغلب عليه الركاكة ، ويعلل الدكتور حسين فوزي ذلك إلى أن المؤلف أجنبي عن اللغة العربية ، أو أنه وضعه باللغة الفارسية وعرّبه رجل من العوام . (المرجع السابق ، ص ٤٤) .

عجائب الهند وألف ليلة وليلة :

يقول فان ديرليت في مقدمته إن تشابه بعض قصص الكتاب مع قصص كتاب ألف ليلة وليلة لا يحملنا على القول بأن أحدهما أخذ عن الآخر ، ولكن ما يمكن قوله إن كلا من الكتابين قد استقى قصصه من مصدر واحد .

من هذه القصص قصة الطائر العظيم الحجم الذي يمكن أن يتعلق برجليه

الشخص ويحمله من مكان إلى مكان آخر ويسمى في ألف ليلة بالرخ . وقد استخدم هذا الطير إخوان الصفا (في القرن الرابع الهجري) في بعض ما ورد في رسائلهم من قصص رمزية .

ومنها قصة وادي الماس وكيف يحصل عليه التجار بذبح الغنم وتقطيعها قطعا يقذفون بها في كفة منجنيق ، فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور لتخطفه ، فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم تتبعوه حيث يمضي ويتلقونه بالضجيج والضرب على الصفائح والخشب ، فيهرب تاركا اللحم وقد علقت به حجارة الماس .

وقد استطاع مؤلف قصة ألف ليلة وليلة أن يلائم بين قصتي الطائر العظيم الحجم أو الرخ كما يسميه وقصة وادي الماس في حكاية واحدة شيقة ، ترد على لسان السندباد كأنها تجربة شخصية .

من هذه القصص أيضا قصة الجزيرة التي يرسو عليها الملاحون وما أن يوقدوا نارا حتى تتحرك ثم يتضح أنها حيوان بحري كبير كالسلحفاة أو غيرها كانت قائمة على وجه المياه ، ولما أحست حر النار ولسعها تحركت هاربة . وشبيه بها قصة ذلك البحار الذي رمته الرياح إلى بعض المراسي من بلاد البجم ، فصعد هو وأصحابه إلى غيضة من تلك الجزائر فيها أخشاب قد مضت عليها الدهور مطروحة قد وقع بعضها على بعض ، فطاف في الغيضة يطلب دقلا لمركبه ، فوقع اختياره على دقل أملس حسن في نهايته الاستقامة والغلظة ، والخشب فوقه مشوش كما قد وقع في طول الأيام ، فقدره فوجده زائدا على حاجته ، فأحضر المنشار ليقطع منه خمسين ذراعا بمقدار حاجته ، فلما وضع المنشار عليه وابتدأ ينشر تحرك وانساب وإذا هو حية ، فتبادروا إلى الماء فألقوا نفوسهم فيه ولحقوا المركب وسلموا منه . (برزك بن شهريار الناخداه الرام هرمزي ، عجائب الهند بره وبحره وجزايره ، طبعت على النسخة المطبوعة بمطبعة بريل بلندن سنة ١٨٨٣ ، ط ١ سنة ١٩٠٨ على نفقة الحاج محمد أمين دربال الكتبي ، ص ٣٣) . وقصة ذلك البحار الذي رأى على بعد ما يشبه الجزيرة السوداء ، ولرغبته في سرعة السير لم ينقص منها ، فما أن وصل إليها حتى ضربته وإذا هي دابة من دواب البحر ، فلما لمست المركب ضربته بذيلها فانكسر ،

«فسلمت أنا وابني والكارين في الدونيج ، ووقعنا إلى بعض جزائر الديبجات ، فأقمنا بها ستة أشهر إلى أن أمكننا الخروج ، فوصلنا إلى عمان بعد شدائد عظيمة مرت بنا» . . (المرجع السابق ، ص ٤٦) .

ومن الأخبار الموجودة في كتاب عجائب الهند واستخدمها القاص الشعبي في ألف ليلة جبل المغنطيس ، وأنه لا يسير في ذلك النهر الذي به هذا الجبل مركب فيه حديد لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها ، والفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم ، ولا يكون في سروجهم حديد ولا في ركبهم ولا لجم خيلهم . وهو ما نجده مستخدما في القصة التي يرويها القرندلي الثالث أو الصعلوك الثالث أو عجيب بن خصيب داخل قصة الحمّال مع بنات بغداد .

ومنها كذلك قصة الغول أو الكيكلوپس كما وردت في الأوديسا لهوميروس ، وهو ذلك العملاق الذي يفترس البحارة ممن ألقتهم المقادير حيث يعيش ، فيشوي واحدا منهم كل ليلة وما يلبث أن يستغرق في النعاس وهو يشخر شخيرا هائلا . ولكن ذكاء الانسان يستطيع في النهاية أن يتغلب على هذه القوة البدنية الهائلة ، فما أن يسكر أو يسكروه حتى يضعوا في النار بعض السفافيد التي شوى عليها إخوانهم من قبل ، ويدخلوها وهي حامية في عينيه أو عينه ، وبذلك يتمكنون من الهرب والنجاة من موت محقق . (عجائب الهند ، صفحة ١٣٦ ، ألف ليلة وليلة ، الحكاية الثالثة من حكايات السندباد البحري وهي السفرة الثالثة) .

لهذا فليس غريبا أن نجد اسم عمان يرد في قصص ألف ليلة وليلة مثل قصة هارون الرشيد مع الشاب أبو الحسن العماني . كان أبوه كثير المال له ثلاثون مركبا تعمل في البحر أجرتها في كل عام ثلاثون ألف دينار (وهكذا نرى أثر شهرة عمان البحرية على القاص الشعبي لألف ليلة وليلة) ثم مات هذا الوالد . وكان ابنه أبو الحسن قد سمع عن الحسن البصري وأنه ليس في البلاد أحسن من بغداد وأهلها ، فباع المراكب بمائة ألف دينار وباع العبيد والجواري فصار لديه ألف ألف دينار غير الجواهر والمعادن ، واكترى مركبا شحنها بأمواله وسائر متاعه وسافر بها أياما وليالي حتى جاء البصرة ، فأقام بها مدة ، ثم استأجر سفينة أنزل بها ماله وسار أياما

فلائل حتى وصل بغداد وسكن في حارة الكرخ ، واستأجر دارا في درب الزعفران ، ثم ما لبث أن أنفق ثروته على نزواته حتى لم يتبق معه دينار واحد . وكمعظم قصص ألف ليلة وليلة التي يكون بناؤ ها صعود فهبوط فصعود أو انفراج فأزمة فانفراج ، فإن بطلنا العماني يستطيع أن يعوض ثروته بأضعافها وأن يستعيد حبيبته التي فقدها حين أفلس لتصبح زوجته .

عُمان في كتاب عجائب الهند :

ولهذا فلا غرابة من ناحية أخرى أن نجد في كتاب مثل كتاب عجائب الهند أكثر من قصة إما يرويها عمانيون أو أبطالها عمانيون ، وهي كلها قصص بحرية عددها في الكتاب على وجه التحديد أربعة وعشرون قصة ، منها تسع لا يذكر المؤلف أسماء رواتها بل يصف رواتها بأنهم بعض البحريين أو تجار البحر ومن ركبه أو بعض تجار سيراف أو «بعض أصحابنا» . وخمس رواها إسماعيل بن ابراهيم بن مرداس الناخذا أو القبطان ، ويقدمه لنا المؤلف في أول قصة رواها بأنه من بقية نواخذة بلاد الذهب وهو المعروف باسمعيلويه ختن إشكنين ، وسيكتفى بالاشارة إليه في بقية القصص التي يرويها باسم إسمعيلويه إلا في قصة واحدة أخرى ، وربما تكون قصصه من أكثر قصص الكتاب اكتمالا من الناحية الفنية على نحو ما سنرى ، بينما تقترب الحكايات الأخرى من مستوى الخبر ، ثم هناك راو يطلق عليه المؤلف اسم «العماني محمد» وهو ينقل عنه قرب نهاية الكتاب ثلاثة أخبار ، وراو آخر هو أبو الحسن محمد بن أحمد عمر السيرافي وينقل عنه خبرين عن رؤ يته سمكة في البحر مرة وحية في البر مرة أخرى ، والدافع إلى رواية الخبرين هو الحجم غير العادي لكل منهما . وفي احدى الروايات نجد أن هناك ثلاثة رواة كل منهم ينقل عن الآخر . ونحن نلاحظ الشيء نفسه في قصص ألف ليلة وليلة ، فالقاص الشعبي رغم انه لم يهتم بأن ينسب معظم قصصه إلى راو محدد ، إلا أنه في بعض الأحيان نجده قد حرص على ذلك من باب الايهام بوقوع الحدث . وبرزك بن شهريار رغم أنه يحمل لقب الناخذاه أي القبطان إلا أنه لم يرو لنا قصة واحدة شاهدها ، بل كل رواياته منقولة عن الغير ، وهو غير حريص على اثبات صحة

رواياته للقارىء ، لأنه يعلم أن ما بها من عجائب سيجعله يتغاضى عن البحث في مدى صحة ما يسمع أو يقرأ ، ولهذا فهو أيضا لم يكن حريصا على تفنيد ما يروي إلا في قصة واحدة يتيمة :

«وحدثني (يقصد العماني محمد) أن بجزيرة من جزائر الوقواق (يقال إنها اليابان الآن) دابة تشبه الأرنب تصير الذكور منها مرة أنثى ومرة ذكرا ، والأنثى كذلك . والذي حكى لي ذكر أن بعض الهند قال إن أهل سرنديب يحدثون بهذا وما أدري ما أقول في هذه الحكاية . وقالوا إن الأرانب على هذه الصورة وهو عندي يستحيل ، والله سبحانه وتعالى أعلم» . كأنما باقي رواياته ليس فيها شيء خارج عن نطاق المألوف .

ويمكن أن نقسم العجائب التي ورد فيها اسم عمان من حيث الموضوع أو «العجيبة» إلى قصص تتصل أولا بالمبالغة في الحجم ، وهذا هو سبب روايتها ، فالمؤلف يورد قصة ينسبها إلى من يدعى أبو الحسن محد بن أحمد بن عمر السيرافي ، وسيراف تقع على سواحل فارس وكان أبو الحسن بحكم عمله «ناخذا» يبحر إلى عُمان كما يبحر إلى غيرها من البلاد التي لها سواحل تطل على بحر الهند وما يجاوره من بحار . يقول عنه المؤلف «وكان أيضا من بقية النواخذه الذين سافروا البحار ومضى لهم الاسم والصيت في البحر» . (عجائب الهند ، صفحة ١٠) . يقول أبو الحسن إنه «رأى بعمان في سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان وجزر الماء عنها ، فصيدت فسحبت إلى البلد ، فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها ، وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعظمها ، فإنها ذرعت فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعا ، وأنه بيع من دهن عينيها على ما قيل ببضعة عشر آلاف درهم» . (عجائب الهند ، صفحة ١١) .

ثم يشرح المؤلف هذا النوع من السمك بالفقرة التي تليها حين يقول «وحدثني إسمعيلويه الناخذا أن هذا السمك كثير ببحر الزنج (عند ساحل افريقيا الشرقي) ويلجة سمرقند ويقال له الدال (أي الحوت) وهو بكسر المراكب مولع . فإذا تعرض

للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وضربوا الطبول ، وانه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل النار ويبين من بعد مثل شرع المركب ، وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيرى من بعد أيضا مثل شرع القوارب» . (عجائب الهند ، صفحة ١٢) .

كما يورد قصة أخرى عن نفس هذا النوع من السمك فيما يبدو فيقول «وحدثني (يقصد إسمعيلويه) عن بعض العراقيين ممن يضبط (ربما يقصد ممن لا يبالغ) أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقي عظمه صحيحا ، فدخل الرجل من احدى صدفتيها وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحني ، وكان حمل في سنة عشر وثلثمائة من عمان إلى المقتدر (٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م) من ذلك السمك ، وأن فك سمكة رفع من الروشن ولم يدخل من الأبواب ، وحدثني أن هذه السمكة التي حمل فكها إلى بغداد نزف من عينها خمسمائة جرة أو زيادة عليها دهنا» .

وقيل إن ببلاد الزنج القافه (الكهنه قافة حذاق فهماء) . وحدثني اسمعيلويه عن بعض النواخذه أنه قال له : دخلت بلاد الزنج في سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة فقال لي بعض القافه : كم أنتم مركبا (وصحتها ؛ كم مركبا أنتم) فقلت ستة عشر مركبا ، فقال : يسلم منها إلى عمان خمسة عشر مركبا ، وتكسر واحدة ويسلم منها ثلاث أنفس وتمضي عليهم شدة عظيمة . . قال : فخرجنا كلنا في يوم واحد ، وكنت آخر من خرج منه ، فأغزرت السير لألحق من خرج منهم أولا . فلما كان اليوم الثالث رأيت من بعد مثل الجزيرة السوداء ، فلرغبتي في السير لم أنقص الشراع لأعدل عنها ، لأن السير في ذلك البحر شديد جدا . فما كدت أن وصلت فضربتني ، وإذا هي دابة من دواب البحر ، فلما لمست المركب ضربته بذنبها فانكسر ، فسلمت أنا وابني والكارين (كاتب السفينة) في الدونيج (الزورق) ، ووقعنا إلى بعض جزاير الديبجات فأقمنا بها ستة أشهر إلى أن أمكننا الخروج ، فوصلنا إلى عمان بعد شدائد عظيمة مرت بنا وسلمت الخمسة عشر مركبا بأسرها بإذن الله» . (عجائب الهند ، صفحة ٤٦) .

وكل هذه الروايات تدل دلالة لا شك فيها على وجود الحيتان في بحر عمان والمحيط الهندي ، وانه كان بينها وبين البحارة العرب صراع يتغلب فيه الانسان مرة

لينتفع بدهنه (ولعله زيت كبد الحوت) ويعنبره ، وينهزم مرة مما يكلفه سفينته وقد يكلفه حياته .

ومن عجائب الأحجام الضخمة أن «أحمد بن هلال أمير عمان حمل في سنة ست وثلثمائة في حملة هدية حملها إلى المقتدر نملة سوداء في قفص من حديد مشدودة بسلسلة في قدر السنور (أي في حجم القط) ، وماتت هذه النملة في الطريق بناحية ذي جبلة (بالحجاز) فجعلت في الصبر وحملت إلى مدينة السلم (أي مدينة السلام بغداد) ورآها المقتدر وأهل بغداد ، وذكروا انهم كانوا يطعمونها كل يوم منين شرائح غدوة وعشاء» . (عجائب الهند ، صفحة ٤٩) ، والمن كيل يوازي أربعة كيلو .

العفـــو عنـــد المقـــدرة :

وإذا كانت هذه الروايات تجذب القارىء أو المستمع لغرابة مضمونها ، فإن هناك روايات أخرى تجذب المتلقي لغرابة مضمونها وفنية بنائها القصصي معا بحيث تكون قريبة الشبه بقصص ألف ليلة وليلة . ولعل القصة التالية أكثر قصص كتاب «عجائب الهند» اكتمالا من الناحية الفنية حيث سنجد كيف تلتقي البداية والنهاية وكيف يتتالى الصعود فالهبوط فالصعود ، وإن كنا نتساءل في النهاية هل يرجع ما فيها من روح عدائي للعرب إلى أن مؤلف الكتاب ليس عربيا ! يقول المؤلف :

وحدثني اسمعيلويه وجماعة من البحريين أنه خرج من عمان في مركب يريد قنبلة (مدغشقر) في سنة عشر وثلثمائة ، فعصفت الريح وطرحت المركب إلى سفالة الزنج (ساحل افريقيا الشرقي الجنوبي) قال الناخذاه : فلما عاينت الموضع علمت أنا قد وقعنا إلى بلاد الزنج الذين يأكلون الناس ، فإذا وقفنا في هذا الموضع أيقنا بالهلكة . فتغسلنا وتبنا إلى الله تعالى وصلينا على بعضنا بعضا صلاة الموت ، وأحاطت بنا الدوانيج ، فأدخلوا بنا المرساة فدخلنا ، وطرحنا الأناجر (الهلب) ونزلنا مع القوم إلى الأرض .

فحملونا إلى ملكهم ، فرأينا غلاما جميل الوجه من بني الزنج حسن الخلق . فسألنا ·

ـ ما أخباركم ؟

ـ قصدنا بلدك .

ـ كذبتم ، أنتم قصدتم قنبلة فحملتكم الريح وطرحتكم في أرضنا .

ـ إنما أردنا بقولنا التقرب إليك .

ـ إذن حطوا الأمتعة وتسوقوا فلا بأس عليكم .

فحللنا الأمتعة وتسوقنا أطيب تسويق ، ولم تلزمنا ضريبة ولا مؤونة إلا ما أهديناه إليه وأهدى إلينا مثله وأكثر منه . وأقمنا في بلاده شهورا . فلما حان وقت خروجنا استأذناه فأذن لنا ، فحملنا الأمتعة وفرغنا أمورنا .

فلما عزمنا على رواح عرفناه ذلك ، فقام ومشى معنا إلى الساحل مع جماعة من أصحابه غلمانه ، ونزل في الدوانيج وسار معنا إلى المركب ، فصعد هو وسبعة أنفس من وجوه غلمانه . فلما حصلوا في المركب قلت في نفسي : هذا الملك يساوي في عمان في النداء (أي سوق الرقيق) ثلاثين دينارا ، ويساوي السبعة مائة وستين دينارا ، وعليهم ثياب تساوي عشرين دينارا ، قد حصل لنا على الأقل منهم ثلاثة آلاف درهم ولا يضرنا من هذا شيء . فصحت بالبنانية (البحارة) فشالوا الشرع ورفعوا الأناجر ، وهو مع ذلك يسلم علينا ويؤانسنا ويسألنا الرجوع إليه ويعدنا بالاحسان متى عدنا إلى بلده . فلما رفعت الشروع ورآنا قد سرنا تغير وجهه فقال : أنتم تسيرون ! أستودعكم الله . وقام لينزل إلى دوانيجه ، فقطعنا حبال الدوانيج وقلنا له :

ـ تقيم معنا فنحملك إلى بلدنا ونجازيك على إحسانك إلينا ونكافئك ما فعلت بنا وصنعت .

فقال :

ـ يا قوم لما وقعتم إلي قدرت ، ثم إن أهلي أرادوا أن يأكلوكم ويأخذوا

أموالكم كما قد فعلوا بغيركم ، فأحسنت إليكم . وما أخذت منكم شيئا ، وجئت معكم لأودعكم في مراكبكم إكراما مني لكم ، فاقضوا حقي بأن تردوني إلى بلدي .

فلم نفكر في كلامه ولم نعبأ به . واشتد الريح ، فما مضت ساعة حتى غابت بلدته عن عيوننا ، وظللنا الليل ودخلنا اللج ، وأصبحنا والملك وأصحابه في جملة الرقيق ، وهم نحو مائتي رأس (لاحظ أنهم كانوا في أول القصة سبعة أنفس) ، وعاملناه بما نعامل به سائر الرقيق . وأمسك فما أعاد علينا كلمة ولا خاطبنا بشيء . تغافل عنا كأنه ما عرفنا ولا عرفناه ، ووصلنا عمان فبعناه مع سائر أصحابه في جملة الرقيق .

فلما كان في سنة . . . عشر وثلثمائة ، خرجنا من عمان نريد قنبلة . فحملتنا الريح إلى سفالة الزنج . ولم نكذب أن وردنا ذلك الولد بعينه (لاحظ لهجة التعالي) ونظرونا فخرجوا وأحاطوا بنا الدوانيج ، وإذا الذي نعرفه في تلك الكرة ، فأيقنا على الهلكة حقيقا ، ولم يكلم أحد منا صاحبه من شدة الرعب ، فاغتسلنا وصلينا صلاة الموت وتوادعنا ، فوافونا وأخذونا ، فساقونا إلى دار الملك وأدخلونا ، وإذا بذلك الملك بعينه جالس على سرير كأنا فارقناه الساعة ، فلما رأيناه سجدنا وذهبت قوانا ولم يكن بنا حركة للقيام ، فقال لنا : أنتم أصحابي بلا شك . فلم يستطع أحد منا أن يتكلم ، وارتعدت فرائصنا ، فقال لنا :

ـ ارفعوا رؤوسكم فقد آمنتكم على أنفسكم وأموالكم .

فمنا من رفع ، ومن لم يستطع أن يرفع ضعفا وحياء ، فلطف بنا حتى رفعنا رؤوسنا جميعا ، ولم ننظر إليه حياء وخوفا وخجلا . فلما رجعت إلينا نفوسنا بأمانه قال لنا :

ـ يا غدارين ، فعلت لكم وصنعت لكم ، فكافأتموني بما فعلتم وصنعتم !

ـ أقلنا أيها الملك ، واعف عنا .

ـ قد عفوت عنكم فتسوقوا كما كنتم تسوقتم في تلك الكرة فلا اعتراض عليكم .

فلم نصدق من السرور . فظننا أن ذلك على طريق المكر حتى تحصل الأمتعة في الساحل (أي حتى ننقل البضائع من السفينة إلى البر) فحملنا الأمتعة إلى البر ، وحملنا إليه هدية بمال له مقدار فرده علينا فقال :

ــ ليس مقداركم عندي أن أقبل لكم هدية ولا أحرم مالي بما آخذ منكم ، فإن أموالكم كلها حرام .

فتسوقنا . وحان خروجنا ، فاستأذنا في الحمل فأذن لنا . فلما عزمنا على الرحيل قلت له :

ــ أيها الملك قد عزمنا على الرحيل .

ــ امضوا في حفظ الله تعالى .

ــ أيها الملك ، قد عاملتنا بما لا قدرة لنا عليه ، غدرناك وظلمناك ، فكيف خلصت ورجعت إلى بلدك .

ــ لما بعتموني بعمان ، حملني الذي اشتراني إلى بلد يقال له البصرة من صفتها كذا كذا ، فتعلمت بها الصلاة والصيام وشيئا من القرآن . ثم باعني مولاي لآخر حملني إلى بلد ملك العرب الذي يقال له بغداد (ووصف لنا بغداد) فتفصحت بتلك البلد وتعلمت القرآن وصليت مع الناس في الجوامع ، ورأيت الخليفة الذي يقال له المقتدر ، وبقيت ببغداد سنة وبعض أخرى حتى وافى قوم من خراسان على الجمال ، فنظرت إلى خلق كثير ، فسألت عنهم في أي شيء جاءوا ، فقالوا يخرجون إلى مكة ، فقلت : ومكة هذه ما هي ؟ فقالوا : فيها بيت الله الحرام الذي يحج إليه الناس . وحدثوني حديث البيت . فقلت في نفسي : سبيلي أن أتبع هؤلاء القوم إلى هذا البيت . فعرفت مولاي ما سمعت ، فرأيت ليس يريد أن يخرج ولا يدعني أخرج . فتغافلت عنه حتى خرج الناس ، فلما خرجوا تبعتهم وصحبت رفقة كنت أخدمهم طول الطريق وآكل معهم ، ووهبوا لي ثوبين فأحرمت فيهما ، وعلموني المناسك فسهل الله تعالى إلي الحج . وخفت أن أرجع إلى بغداد فيأخذني سيدي ويقتلني .

فخرجت مع قافلة أخرى إلى مصر ، فكنت أخدم الناس في الطريق ، فحملوني وأشركوني في زادهم إلى مصر . فلما دخلت مصر ورأيت البحر الحلو الذي يسمونه النيل فقلت : من أين يجيء ؟ فقالوا : أصله من ناحية مصر تسمى أسوان في تخوم أرض السودان . فلزمت ساحل النيل أدخل بلدا وأخرج من أخرى ، وأطلب من الناس فيطعموني . وكان ذلك دأبي . فوقعت عند قوم من السودان ، فأنكروني ، فقيدوني وذهبوا يكلفوني من بين الخدم ما لا أطيق ، فهربت ، ووقعت عند قوم آخرين فأخذوني وباعوني ، فهربت . فلم أزل كذلك من خروجي من مصر حتى وصلت إلى البلد الفلاني من أطراف الزنج ، فتنكرت وأخفيت نفسي . ولم أخف على نفسي من حين خروجي من مصر مع ما جرى علي من الأهوال كخوفي لما قربت من بلادي ، وقلت إن بلدي قد جلس فيها بعدي ملك واستولى على الملك وطاعته الجند ، ونزع الملك منه صعب عسر ، فإن أنا ظهرت أو علم بي أحد حملت إليه فيقتلني أو يجسر بعض المتنصحين (أي المتشبهين بالنصحاء) علي فيأخذ رأسي فيتنصح إليه به . فداخلني من الرعب ما ضقت به ذرعا ، فكنت أسعى الليل وأمشي نحو بلدي وأختفي في النهار ، إلى أن جئت في البحر ، فركبت مركبا وأنا متنكر إلى بلد كذا ، ثم ركبت في البحر إلى بلد كذا ، فرماني المركب في الليل إلى ساحل بلدي ، فاستخبرت من امرأة عجوز هل ملكهم هذا الذي جلس عادل . فقالت : والله يا ولدي ما لنا ملك إلا الله تعالى ، وقصت علي قصة الملك وأنا أتعجب كأني لا أعلم بذلك ولا كأني إياه . ثم قالت : اتفق أهل المملكة أن لا يملكوا بعده عليهم أحدا حتى يعلموا ما كان من أمره وييأسوا من حياته ، فقد بلغتهم الأخبار من الكهنة أنه بأرض العرب حي سالم . فلما أصبحت مضيت إلى بلدي هذه فدخلتها ، وأتيت قصري هذا فدخلته ، ووجدت أهلي على ما تركتهم ، غير أنهم يقيمون على بساط الحزن وأهل دولتي ، فأعدت عليهم قصتي فتعجبوا وفرحوا ودخلوا معي فيما دخلت فيه من دين الاسلام . فعدت إلى ملكي قبل مجيئكم بشهر ، وأنا اليوم فرح مسرور لما منّ الله علي به وعلى أهل دولتي من الاسلام والايمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام ، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج ، وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني . ولكن بقي شيء أسأل الله الخروج من إثمه .

ـ وما هو أيها الملك ؟

ـ مولاي الذي خرجت من بغداد إلى الحج من غير إذنه ورضاه ولم أعد إليه ، ولو لقيت ثقة كنت أبعث له ثمني واستحللته ، ولو كان فيكم خير ولكم أمانة لدفعت إليكم ثمني تردونه عليه ووهبت له عشرة أضعاف بدلا من صبره علي ، ولكنكم أهل غدر وحيل .

قال : فودعناه فقال :

ـ امضوا ، فإن رجعتم بهذه المعاملة أعاملكم وأزيد في الاحسان إليكم ، فعرفوا المسلمين أن يأتونا ، فإنا نحن قد صرنا إخوانا لهم مسلمون مثلهم . وأما تشييعكم إلى المركب فما لي إليه سبيل .

فودعناه وسرنا . (عجائب الهند ، صفحة ٣٨ ـ صفحة ٤٥) .

وواضح اننا أمام قصة مكتملة فنيا ، سواء وقعت على هذا النحو أم أضاف إليها راويها وحذف منها بحيث ينقلها مما وقع إلى ما يحتمل أن يقع ، أي من مجال التاريخ إلى مجال الفن والأدب . والعجب ـ كما عرفه القزويني في صدر كتابه «عجائب المخلوقات» ـ هو «حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء» كما عرف معنى الغريب بأنه «كل أمر قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة» ، أما البارون كارا دي فو **Carra de Vaux** في مقدمة ترجمته الفرنسية لكتاب مختصر العجائب لابراهيم بن وصيف شاه فقد قال «العجائب آثار ووقائع ومخلوقات ترد في كتب الجغرافيا والتاريخ وما إليها مما انحدر إلينا من تلك العصور ، ليس ثمة ما يثبت حقيقتها ، ولا ما يقطع ببطلانها» . ولا شك أن اختيار المؤلف لهذه القصة في كتاب يضم العجائب إنما كان أساسا لانطباق تلك التعريفات على ذلك اللقاء الثاني الذي جمع بين الملك الزنجي الشاب ومن غدروا به وكان يبدو لهم ـ وللقراء أيضا ـ أنه شبه مستحيل وأنهم قد اقترفوا جريمتهم بمنأى عن العقاب ، ولكنهم نسوا ـ ونسينا معهم كقراء ـ أن الريح التي عصفت بمركبهم وطرحته إلى هذه المملكة الصغيرة يمكن أن تعصف به وتطرحه مرة

أخرى إلى تلك المملكة نفسها . أما القصة فإنها تتميز بسمات واضحة :

ـ التعبير الداخلي عن المشاعر ، وهو ما يندر في القصص الشعبي والقصص الشفاهي بوجه عام ، أي القصة قبل عصر المطبعة . ولنعد قراءة النص بعد أن حملت الريح الراوية وأصحابه مرة أخرى إلى البلدة التي سبق لهم أن اختطفوا منها ملكها الشاب ، وقد أيقظ الخوف إحساسهم بمدى ما اقترفوه من جريمة وتوقعوا قصاصا معادلا وعادلا إن لم يكن أشد .

ـ والقصة مكتوبة بضمير المتكلم ـ شأنها في ذلك شأن بقية قصص الكتاب التي تروى غالبا على لسان أبطالها ـ لكن الراوية هنا هو الجاني وليس المجني عليه ، ولهذا فنحن على استعداد لتصديقه عند ما يعترف بما اقترف وبإحساسه بالجريمة في الوقت الذي يشيد فيه بكرم أخلاق من جنى عليه ومقابلته الاساءة بالاحسان . ولأن القارىء يتلقى القصة من هذه الزاوية فإنه ينحاز تلقائيا ضد تجارة الرقيق ـ رغم أن القصة كتبت في وقت كانت فيه تجارة الرقيق في أوجها وأمرا معترفا به تماما مثل أي تجارة أخرى ـ فمن الواضح أن نظرة المؤلف أو راويها ـ رغم أنه من تجار الرقيق ـ نظرة انسانية منصفة لهؤلاء الزنوج ـ أو الزنج كما كانوا يلقبونهم ـ بل إنه يجعلهم أنبل عاطفة وأرقى خلقا .

ـ كذلك يلاحظ أن مؤلف القصة يفرق بين الاسلام كدين ـ وهو الذي اعتنقه الملك الزنجي الشاب وأقنع قومه باعتناقه واعتبر هذا فضلا ـ غير مقصود طبعا ـ من هؤلاء التجار الغادرين ـ وبين هؤلاء التجار العرب وما انطوت عليه قلوبهم من قسوة وغدر ، لا تعرف القيم سبيلها إليهم في سبيل تجارتهم ومن أجل الحصول على بضعة عشر درهما .

ـ ونحن نتساءل هل لجنسية المؤلف برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي (نسبة إلى هرمز في بلاد فارس) دخل في هذه الزاوية من الرؤ يا ؟ أو على الأقل دخل في التحمس لروايتها وإثباتها في كتابه ، ولو كان أبطالها من هرمز وليسوا من عمان هل كان يرويها بالطريقة نفسها أو كان يرويها أصلا . فثمة ريبة تطوف بنا ونحن

نتلقى القصة على لسان الجاني الغدار المعترف بجريمته وكيف قابل غريمه إساءته بالاحسان والغفران .

من نوادر القردة :

وهذه قصة أخرى من قصص «عجائب الهند» تقرؤها فكأنك تقرأ إحدى قصص ألف ليلة وليلة حيث نجد البناء الفني المتشابه من أزمة فانفراج فأزمة فانفراج ، يقول المؤلف :

حدثني بعض البحريين أن مركبا كان يمضي إلى صنف (بشاطىء الهند الصينية) من عمان وسلم من أهله نحو عشرة في قارب ، فحملتهم الرياح إلى جزيرة مجهولة لا يعرفونها ، فرموا بنفوسهم على ساحلها وليس لهم حركة لشدة ما لحقهم في البحر من الأهوال والشدائد ، فمكثوا هناك بقية يومهم ، ثم قاموا فاحتالوا في القارب إلى أن جروه إلى الساحل وباتوا ليلتهم .

فلما أصبحوا مشوا في الجزيرة فوجدوا فيها ماء عذبا كثيرا وغوطة حسنة وأشجارا متكاثفة فيها ثمار شتى وموز كثير وقصب سكر ولم يروا فيها إنسيا ، فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء وانصرفوا إلى قاربهم فجروه إلى البر وسندوه بالخشب ، وجمعوا من ورق الموز والشجر فظللوه وأحكموا أمروا وأصلحوا لأنفسهم إلى جانبه موضعا يسترهم .

فلما مضت عليهم خمسة أيام أو ستة فإذا هم بقطعة قرود قد أقبلوا يتقدمهم قرد كبير جسيم ، فوقفوا على القارب . وفزع القوم منهم . فصعدوا إلى القارب ، فلم يعرضوا لهم ، وأقاموا رئيسهم بمكانه فجعل يفرقهم يمينا وشمالا كما ينفذ العامل رجاله ، ثم عادوا إليه ، وجعل بعضهم يومىء إلى بعض كأنهم يتحدثون بشيء . فلما أمسوا انصرفوا . فورد على القوم من هذا أمر عظيم وخافوا على نفوسهم أن تقتلهم القردة ، وجعلوا يفكرون في الخلاص ليلهم وهم بسوء حال ، لا زاد معهم ولا يعرفون الطريق ولا يهتدون لحيلة .

فلما أصبحوا جاءتهم قردة فطافت بهم ثم مضت ثم عادت ومعها قردة أخرى ، فأومت إليها بشيء . قال هذا الرجل ، فحدثت عن واحد من القوم انه قال : فتبعت القرود إلى أن دخلوا الغوطة ، ثم خفت على نفسي فرجعت بعد مدة مضت من النهار إلى أصحابي فسألوني فأخبرتهم .

فلما كان من غد عاودت القرود على تلك الصورة الأولى وجلس رئيسهم مع القارب ، ونفذهم في حوائجه على الرسم . فلما مضت ساعة من النهار جاء قردان مع كل واحد منها قطع ذهب في نهاية الجودة فطرحوها بين يديه ثم عادوا بأجمهم ، فأومى بعضهم إلى بعض فانصرفوا ، ونزلنا إلى الأرض فأخذنا الذهب فإذا هو مثل العروق الغلاظ في نهاية الجودة ، فورد علينا من السرور بذلك ما نسينا معه بعض ما نحن فيه .

فلما أصبح جاءت قردة وطافت بنا ثم مضت ، فمضيت خلفها إلى أن أمعنت في الغوطة ، وخرجت من الغوطة إلى صحراء أرضها رملة سوداء . فحفرت القردة بين يدي ووقفت ، فجلست فحفرت في الموضع ، فوجدت عروق الذهب مشتبكة ، فلم أزل أقلع إلى أن دميت أصابعي ، وجمعت ما قلعته وحملته ورجعت فضللت عن الطريق لاشتباك الشجر ، فتعلقت ببعض ذلك الشجر وبت فيه ليلتي .

فلما أصبحت اذا بالقردة وقد وافت على الرسم فتركتها حتى مضت ثم تبعتها إلى أن رأيت البحر وتعلقت بشجرة من الشجر فأقمت عليها إلى الليل ، فلما انصرفت القرود نزلت فوافيت أصحابي فتلقوني وهم يبكون وقالوا : انا لم نشك انك قد تلفت . فحدثتهم بالصورة ، وطرحت الذهب بين أيديهم ، فتجدد لنا هم وغم لأنا لما استغنينا (أي أصبحنا اغنياء) لم نجد سبيلا إلى حمل ذلك ولا طريقا ولا معنا ما نحمله فيه ، لأنا متى حملناه في القارب لم نأمن الغرق لصغره ، وإذا حملناه لم نهتد الطريق . ثم اجمع رأينا أن نمضي إلى تلك الصحراء ونقلع الذهب ونحمله نحو قاربنا ونتوكل على الله عز وجل . فكنا نمضي في كل غدوة من الغدوات التي لم يجر للقرود أن يجونا (يأتونا) فيها ، فنقلع الذهب ونحمله . وحضرنا عند القارب ودفنا الذهب .

ولم نزل نقلع الذهب وننقله مدة سنة إلى أن حصل لنا شيء عظيم لا يعرف مقداره ، والقرود مع ذلك تجيء يوما ويوما لا تجيء . ونأكل من ثمار تلك الجزيرة ونشرب من ذلك الماء .

فبينما نحن على حالنا تلك إذ مر بنا مركب ماض إلى عمان أو إلى سيراف ، قد أسقطه الريح وركبه البحر ، فرمى كل ما في جوفه ، ومات أكثر رجاله غرقا وشرقا من شدة ما ركبهم البحر . فلما رأوا الجزيرة وأرادوا الانحياز اليها فلم يقدروا ، فبقوا متماسكين إلى أن أحدوا النظر إلى البر ورأونا ورأوا الدويج فوق البر ، فتطارح لنا رجلان من رجاله بحبل ، ولم يزالوا يعاندون . فلما رأيناهم أخذنا حبالنا وتطارحنا إليهم في البحر فتلقيناهم وربطنا حبالنا مع حبالهم . فلما صارت الحبال في البر استوثق بها حتى مضى اثنان فأشرفا على المركب فإذا بالبنانيه (البحارة) والربان وبعض التجار قد أشرفوا على الموت من شدة الهول ، وقد كلوا مما يمتحون الماء وهم حينئذ في وسط اللجة . فقالوا لأصحابنا : اجذبونا إلى البر وخذوا ما بقي معنا من البضائع والمتاجر . وقال الربان : يا إخواننا اجذبونا إلى البر وخذوا المركب ملكا . فقال أصحابنا : ما نفعل شيئا من ذلك بل نجذبكم إلى البر ولنا نصف هذا المركب ملكا . قالوا : حبا وكرامة . وتعاقدوا على ذلك وشهد بعضهم على بعض . ثم قال لهم أصحابنا :

ـ ولنا عليكم شرط .

ـ وما هو ؟

ـ نشحن نصف هذا المركب بملكنا لا يشاركنا فيه أحد ولا يعترضنا فيه أحد .

ـ لكم ذلك .

ـ ونوسقه وسق المتعارف لا يحيف عليه فيغرق .

ـ هذا شيء قد جربناه . وما تخلصنا منه إلى الآن ، فنناشدكم الله إلا ما خلصتم حشاشنا من هذا الهول الذي نحن فيه .

فتطارح أصحابنا إلى البر . وجاءت القرود ، فلما رأونا نجذب حبل المركب جذبوا معنا . فجاءت المركب في أسرع وقت . فتطارحت رجال المركب إلى البر شوقا إليها لما جرى عليهم . فلما أصبحنا عرفناهم موضع الثمار ، فأكلوا وشربوا ورجعت لهم نفوسهم . فجاءت القرود من الغد بالذهب على الرسم فآثرناهم به على نفوسنا لأنا اكتفينا منه . وقدمنا المركب فأوسقنا وشحنا نصف المركب ذهبا ، وأوسق الربان النصف الثاني له ولتجاره ذهبا . وتزودنا مما في الجزيرة ، وواتت الرياح وأسرينا ، فدخلنا بلد الهند ونقل كل واحد منا نايبه إلى موضعه ، فكان الذي وقع لكل رجل منا ألف ألف مثقال ومائة ألف وأربعة وأربعون ألف مثقال (١١٤٤٠٠٠) ، فلم نعد نركب بحرا . وهذا من أغرب ما سمعناه من نوادر القردة .

***

وحدثت انه بظفار . . حداد عنده قرد ينفخ على الكور طول نهاره . أقام عنده كذلك نحو خمس سنين ، وترددت إلى البلد سفرات وأنا أبصره عنده . (عجائب الهند ، صفحة ٥٣ ـ ٥٨) .

فإذا كانت القصة التي رواها الربان اسمعيلويه توضح كيف كانت البحرية العمانية في القرن العاشر الميلادي أو الرابع الهجري ـ أي منذ ألف عام ـ تجوب البحر حتى ساحل افريقيا الشرقية غربا ، فإن هذه القصة توضح وكيف كانت تجوب البحر كذلك حتى تصل إلى سواحل الهند شرقا .

الـــدرة اليتيمـــة :

ولكن نشاط عمان البحري لم يكن قاصرا على الابحار شرقا وغربا ، بل كان يغوص أحيانا في أعماق البحر طلبا للدر واللؤلؤ ، وهذا ما تشير إليه قصة الدرة اليتيمة التي رواها لنا مؤلف كتاب «عجائب الهند» . يقول برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي :

وحدثني غير واحد من البحريين بأمر الدرة المعروفة باليتيمة ، وانما سميت اليتيمة لأنه لم يوجد لها أخت في الدنيا . وأجودهم شرحا للقصة حدث أنه كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشر ، وكان رجلا مستورا جميل الطريقة ، وكان ممن يجهز الغواصة في طلب اللؤلؤ ، وكانت بيده بضاعة . فلم يزل يجهز الرجال للغوص ولا يرجع إليه فائدة حتى ذهب جميع ما كان يملكه ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شيء يجوز بيعه إلا خلخال بمائة دينار لزوجته ، فقال لها أقرضيني هذا الخلخال لأجهز به فلعل الله تعالى يسهل شيئا ، فقالت له : يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شيء نعول عليه وقد هلكنا وافتقرنا ، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن تتلفه في البحر . فتلطف بها وأخذ الخلخال وصرفه وجهز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم .

ومن شرط الغواص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لا غير ، وعلى هذا يتشارطون . فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوما ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يحصل لهم شيء . فلما كان في يوم الستين غاصوا على اسم ابليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفة استخرجوا منها حبة لها مقدار كبير لعل ثمنها يوفي بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان إلى وقته ، فقالوا هذا وجدناه على اسم ابليس لعنه الله ، فأخذها وسحقها ورمى بها في البحر ، فقالوا له :

ـ يا هذا الرجل لم فعلت أنت هذا ؟ قد افتقرت وهلكت ولم يبق لك شيء يقع بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف دنانير فتسحقها .

ـ سبحان الله كيف أستحل أن أنتفع بمال استخرج على اسم ابليس ، واني أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك ، وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي . ولئن انتفعت بها ليقتدين كل أحد بي فلا يغوص إلا على اسم ابليس لعنه الله ، فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت ، ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ في البحر ما تلبست به ، امضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وببركة الله .

فغاصوا على ما رسم لهم ، فما صلى صلاة المغرب من ذلك اليوم وهو آخر يوم من الستين ، حتى حصل بيده درتان : إحداهما اليتيمة والأخرى دونها بكثير . فحملهما إلى الرشيد ، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم ، وانصرف إلى عمان بمائة ألف ، فبنى دارا عظيمة واشترى ضياعا واعتقر عقارا ، وداره معروفة بعمان . فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة» . (عجائب الهند ، صفحة ١٠١ ـ ١٠٣) .

ويعلق الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» على هذه القصة بقوله إنها توضح عنصر الحظ في عمليات صيد اللؤلؤ . فتاجر اللؤلؤ ، وهو الممول لعمليات الغوص ، يضارب بثروته أكثر مما يتجر . فقد يمضي الغوّاصون طيلة الموسم في صيد المحار فلا يجمعون من اللؤلؤ ما يساوي التعب والمشاق والتكاليف لقلة ما يجمعون ، أو لغثاثة اللؤلؤ وكدر لونه وسوء تدحرجه . وقلة اللآلىء أو كثرتها لا علاقة مباشرة بينها وبين عدد ما يصيده الغواصون من المحار . فالقاعدة أن تفتح مئات الأصداف المصيدة على حصى لؤلؤ بخس أو على لا شيّء . وقد تخرج درة أو درتان تعوضان التاجر عن كل خسارته ، وتفيضان عليه بعد هذا بالربح الوفير . (حديث السندباد القديم ، صفحة ١٥٤) .

سمك الكنعد :

ولئن كان بحر عمان شحيحا في الدر واللؤلؤ ، فإنه ليس كذلك في الأسماك ، حتى أن ابن بطوطة في رحلته إلى عمان أبدى دهشته لأن العمانيين يطعمون السمك بهائمهم .

ولم يفت كتاب «عجائب الهند» أن يستخدم السمك ـ وسمك كنعد الشهير بالذات ـ في قصة طريفة دلالة على هبة أخرى يجود بها البحر على عمان والعمانيين . يقول برزك بن شهريار :

وكان من رسم ملوك بلاد الذهب والزابج (جزر الهند الشرقية) أن لا يجلس

أحد بين أيديهم من المسلمين والغرباء كائنا ما كان وسائر أهل ممالكهم إلا مربعا ، ويسمى ذلك البرسيلا ، فمن مد رجليه أو قعد غير تلك القعدة فعليه غرامة ثقيلة بحسب ما يملك ، فاتفق أن كان عند ملك من ملوكهم يقال له سرناتا رجل من النواخذة يقال له جهودكوتاه له موضع ومحل ، وكان شيخا مسنا . وجلس بين يديه فطال عليه الأمر ولم يقم سرناتا ، وكانوا في حديث لهم ، فأخذ جهود كوتاه يحدثهم بحديث آخر ، فأدخل في حديثه ذكرا لكنعد فقال :

ـ وعندنا بعمان سمك يقال له الكنعد تكون الواحدة كذا .

ومد رجله وقبض على نصف فخذه .

ـ ومنه ما يكون مثل هذا .

ومد الرجل الأخرى وقبض على حقوه (خصره) .

فقال (أي الملك) لوزيره :

ـ إن لهذا الرجل سببا ، فإنا كنا في حديث وخرج منه إلى حديث السمك ، فما السبب في ذلك ؟

ـ أيها الملك ، هذا رجل شيخ قد أسن وضعف ولا يحتمل أن يجلس هكذا ، فلما تعب جعل لاستراحته سببا ووجها .

ـ الصواب أن نرفع هذا الرسم عن المسلمين الغرباء خاصة .

فرفع عنهم إلى اليوم رسم أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون ، ويجلس غيرهم على الرسم الأول برسيلا ، فإن غير جلسته كانت الغرامة . (عجائب الهند ، صفحة ١١٦ ـ ١١٧) .

والبحر كذلك بالنسبة للعماني مصدر من مصادر الثروة عن طريق التجارة ،

كما انه مصدر إيراد لحاكم عمان عن طريق الرسوم على ما تجلبه المراكب من بضائع لعمان .

«ومن طريف أخبار تجار البحر ومن ركبه واستغنى فيه (أي أصبح غنيا) ما حدث عن اسحاق ابن اليهودي ، وكان رجلا يتصرف مع الدلالين بعمان فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة ، فهرب من عمان إلى بلاد الهند ومعه نحو مائتي دينار لم يملك سواها ، وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة لا يُعرف له خبر ، فلما كان في سنة ثلاثمائة ورد عمان ، فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين أنه ورد عمان من الصين في مركب لنفسه وجميع ما فيه ، وأنه قاطع أحمد بن هلال صاحب عمان عن المركب لئلا يحصي ما فيه ويعشر عليه على ألف ألف درهم ونيف ، وانه باع على أحمد بن مروان دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفائق ، وقدر ابن مروان أنه ليس معه غير هذا المقدار ، فباع على أحمد بن مروان بردا (البرد : كساء مخطط يلتحف به) بأربعين ألف دينار دفعة أخرى ، وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة أخرى . . » . (عجائب الهند ، صفحة ٨٠ ـ ٨١) .

وحكي أن رجلا خرج من عمان ولا شيء معه وعاد ومعه مركب به مسك بألف ألف دينار وثياب حرير وصيني بمثلها وجواهر وأحجار ظريفة بمثلها ومن غرائب نوادر الصين ما لا يحصى ، وهو شيخ لا ولد له ، وأن أحمد بن هلال أخذ منه من الأمتعة خمسمائة ألف دينار .

فرفع الخبر إلى المقتدر فاستعظمه وأنفذ في الوقت خادما يقال له الفلفل مع ثلاثين غلاما إلى عمان وكتب إلى أحمد بن هلال يأمر بحمل هذا اليهودي مع الخادم ورسول من جهته . فلما وصل الخادم إلى عمان وقرأ أحمد بن هلال الكتاب أمر بالاحتياط على اليهودي وقطع مصانعته لنفسه على أن يدافع عنه على مال جليل . ثم دس إلى التجار من عرفهم بما في حَمْل اليهودي (إلى بغداد) ـ عليهم وعلى سائر الغرباء والقاطنين ممن يتجر ـ من سوء العاقبة والجرأة عليهم ودخول اليد وطمع الفقراء فيهم وأهل الشر . وغلقت الأسواق وكتبت المحاضر وشهد فيها الغرباء والقاطنون بأنه متى حمل هذا اليهودي انقطعت المراكب عن عمان وهرب التجار ،

أنذر الناس بعضهم بعضا أن لا يطرق أحد ساحلا من سواحل العراق أو لا يأمن ذو مال على ماله ، وأنه بلد فيه وجوه التجار وذوو اليسار من أقطار الآفاق ، وإنما سكنت نفوسهم إلى المقام بعدل أمير المؤمنين وعدل أميره وحسن سيرته ورعايته للتجار وكف الطامع عنهم والباغي .

فشغبوا على أحمد بن هلال وصاحوا عليه واختصموه (حتى لا ينفذ أوامر المقتدر) حتى همت نفس الخادم ـ يعني فلفل ـ وأصحابه بالخروج عنهم وتمنوا الخلاص . وكتب أحمد بن هلال يذكر ما جرى ، وأنه قد قامت نفوس التجار وقدموا مراكبهم وأعادوا أمتعتهم التي جاءوا ليردوها ، وأن التجار القاطنين في البلد توغرت صدورهم وقالوا إن بقينا انقطعت معايشنا وأرزاقنا بانقطاع المراكب عنا ، وانما هذا بلد رزق أهله من البحر ، وأنه متى تم هذا على أصغرنا جرى على الكبير أعظم . . ولا طاقة لنا بذلك والخروج من بين يديه أمثل . وأخذ الخادم ومن معه من اليهودي نحو ألفي دينار وانصرفوا . فخبثت نفس اليهودي ولم يزل يحتاج ويجمع ماله وبنى مركبا وخرج إلى الصين ومعه جميع ماله حتى لم يخلف درهما بعمان .

فلما صار بسريره (بالملايو حاليا) التمس منه صاحب سريره عشرين ألف دينار مصانعة ليتركه يجوز إلى الصين ولا يعوقه ، فلم يعطه شيئا ، فدس عليه من قتله ليلا وأخذ مركبه وجميع أمواله . وكان مقامه بعمان ثلاث سنين .

وخبرني من شاهده بعمان في يوم مهرجان وقد أهدى إلى أحمد بن هلال برنيه (البرني إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثمين) صيني سوداء مضيئة الرأس بالذهب ، فقال له :

ــ ما في هذه البرنيه ؟

ــ سكياج أصلحتها بالصين (السكياج طعام من اللحم والخل مع توابل وأفاويه ، والقطعة منه سكياجه) .

ــ سكياج يطبخ بالصين وقد مضى عليه سنتان ، كيف يبقى ؟

فكشف الرأس وفتحت البرنيه فإذا فيها سمك من ذهب عيونه من الياقوت ، وقد عبيء في البرنيه وفي خلله المسك الفائق . وإذا قيمة ما في البرنيه خمسون ألف دينار . . (عجائب الهند ، صفحة ٨١ ـ ٨٤) .

ويروي برزك بن شهريار قصة أخرى فيقول : وحدثني إسمعيلويه الناخذاه قال : اجتمع لي في كرة واحدة وردت فيها من كله (بسومطره حاليا) إلى عمان وذلك في سنة سبعة عشر وثلاثمائة ما لم يجتمع لناخذاه قبلي . فطفت (أي أقلعت) من كله فلقيني في طريقي سبعون بارجة فحاربتهم ثلاثة أيام متوالية ، وأحرقت عدة منها وقتلت جماعة وتخلصت ، وقطعت من كله إلى أن وصلت إلى شط العرب . . في واحد وأربعين يوما ، فأخذ السلطان بعمان من عشور الأمتعة التي في المركب ستمائة ألف دينار وترك على الناس من العشور في بضائع وغير ذلك مما سامحهم فيه ما لعله يكون مائة ألف دينار سوى ما سُرِقَ من العشور ولم يوقف عليه . . (عجائب الهند ، صفحة ٩٨ ـ ١٠٠) .

وهذه القصص تعرفنا بالكثير عن المجتمع العماني في بداية القرن الرابع الهجري وبأنواع البضائع التي كانت تستوردها عمان ، والعلاقات المالية بين التجار وحاكم عمان ، وبينه وبين الخليفة العباسي في بغداد . . وأنه كان هناك خط ملاحي في ذلك الوقت المبكر بين عمان والصين ، وهو ما يزعم الأوروبيون أنهم اكتشفوه بعد ذلك بستة قرون على أيدي البحار البرتغالي فاسكو دي جاما . انهم يعنون اكتشاف أوروبا لهذا الطريق ، أما اكتشاف العرب له فقد سبقه بعدة قرون ، ولهذا فلم يكن غريبا أن يقود فاسكو دي جاما في رحلته أحد الملاحين العرب الذي كان يعرف الطريق من قبل ولا شك أنه قام بعدة رحلات سابقة فيه ، وانه لهذا وقع اختيار فاسكو دي جاما عليه ليقوده في رحلته التي نسبها إلى نفسه أو نسبها الأوروبيون إليه رغم اعترافهم بدور هذا الملاح العربي .

البحر لا يعطي بلا مقابل :

وأخيرا فإن البحر بالنسبة لعمان ليس مصدر خير فقط : لؤلؤ وأسماك وتجارة

وأموال ، بل إنه في سبيل الحصول على هذا الرزق لاقى العمانيون أهوالا منه ، ولهذا كان البحر كذلك مصدر فزع وكوارث وكفاح مع الموت على نحو ما نرى في قصص السندباد .

يقول برزك بن شهريار : وقد كان محمد بن بابشاد حدثني أنه كان يمضي في مركبه من فنصور (بجزيرة سومطره) يريد عمان ، فلما قطع بحر هركند (خليج البنغال) ودخل في بحر الهند وعزم على أن يعبر إلى بلاد الغرب قال له ربان مركبه :

ـــ أي مرسى تعلق من مراسي الغرب ؟

ـــ أعلق ريسوت أو فوقها بفرسخ .

ـــ نحن نعلق المرسى الفلاني دون ريسوت بخمسين فرسخا .

فتخاطروا في عشرين دينارا يتصدقون بها ، وبين الموضع الذي هم فيه وبين ريسوت على الأقل أربعمائة فرسخ . فساروا خمسة عشر يوما إلى أن قدروا أنهم قاربوا جبال الغرب ، وأخذوا يتكلمون فيما كانوا تخاطروا (تراهنوا) فيه إلى الليل . وساروا إلى غد ذلك اليوم . فلما أصبحوا صعدوا بالديدبان إلى رأس الدقل (خشبه طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع وتسمى الصاري وجمعها : أدقال) فلم ير شيئا فنزلوا . فلما صلوا العصر قال محمد بن بابشاد أرى آثار الجبال فقالوا : ما ترى شيئا . فقال للديدبان : إصعد . فلما صعد الديدبان واستقر على رأس الدقل صاح : حم الله من كبّر . فكبروا واستبشروا وبكوا من شدة الفرح والسرور ، وساروا طول ليلتهم إلى قرب السحر . فلما كاد الفجر أن يطلع قال محمد بن بابشاد : اطرحوا الأنجر ، فطرحوه ، وحطوا الشراع . وقال للربان :

ـــ أين نحن ؟

ـــ في موضع كذا ، وذكر موضعا بينه وبين ريسوت أربعون فرسخا . فقال له محمد بن بابشاد :

ـ نحن على ريسوت سواء ، إما أن تكون بين أيدينا برمية سهم أو بحذاء المركب أو دوننا برمية سهم .

فأصبحوا وهم على ريسوت سواء . وقال محمد بن بابشاد : إذا كنت في البحر وأردت أن تعرف هل أنت بقرب أرض أو جبل فانظر بعد العصر إذا انحطت الشمس ، فإنها إذا انحطت وكان في وجهها جبل أو جزيرة تبينت . (عجائب الهند ، صفحة ٦٨ ـ ٦٩) .

وحدثني البلوجي المتطبب بعمان قال : كنت بالتيز (بإيران حاليا) وقعنا إليها بالتواهية (لعلها من تاه يتوه) فتركنا المركب ونجلنا الحمولة وأقمنا ننتظر الشرتا (الريح الطيبة) . فبينما نحن كذلك يوما من الأيام إذ وافت امرأة لها قد وتمام وجسم حسن ومعها شيخ أبيض الرأس واللحية ضعيف الجسم نحيف ، فقالت : أشكو إليكم هذا الشيخ وكثرة مطالبته لي ، واني لست أطيقه . فلم نزل نرفق بها إلى أن وفقناه أن يصطلح في اليوم دفعتين وفي الليل مثله . فلما كان بعد أيام عادت إلينا فشكت مثل ما شكت أولا ، فقلنا له : يا هذا الرجل أمرك عجيب ، فما خبرك ؟ قال : كنت في مركب فلان في سنة كذا ، فأصيب وتخلصت مع جماعة من أهل المركب على الشراع ، فوقعنا بجزيرة فمكثنا أياما لم نطعم شيئا حتى أشرفنا على التلف ، ثم وقعت سمكة ميتة قد قذفها الموج إلى الساحل ، فتحامى القوم من أكلها خوفا أن تكون أكلت شيئا من السموم . فحمل نفس الجهد الذي بي على أكلها وقلت : إن تلفت استرحت مما أنا فيه ، وإن عشت كنت قد شبعت لوقت آخر . فأخذتها والقوم يمنعوني وجعلت آكلها غير مشوية ، فلما حصل لحمها في جوفي التهب في ظهري مثل النار ، ثم صار بطول ظهري كعمود من نار وانتشر على بدني وأتعبني ، فأنا منذ ذلك الوقت وإلى يومي هذا على هذه الصورة . قال (البلوجي المتطبب بعمان) : وكان له منذ أكله السمكة سنين كثيرة . (عجائب الهند ، صفحة ٩٨ ـ ٩٩) .

وقد يحدث أحيانا ما هو أسوأ نتيجة لجوع البحارة الجنسي . فقد أورد برزك بن شهريار قصة عن بعض تجار سيراف كان يركب في مركب من عمان يريد البصرة ، وتعرضت السفينة لما كانت تتعرض له سفر ذلك الزمان من عاصفة بحرية

هددت جميع ركابها ، وفي غمرة هذا التهديد بالموت اغتنم أحد البحارة هذه اللحظة ليعتدي على جارية السفينة وهي متعلقة بالشراع لعلها تنجو ، والجميع مشغولون بأنفسهم ، إنها لحظة اختلط فيها الشبق بالموت ، اختارها برزك بن شهريار ليرينا ماذا يفعل البحر في الأجسام والنفوس ، يقول الراوية عما شاهده «وأنا أرى وليس فينا فضل للقيام ولا خطاب ولا قدرة على منعه ولا الفكر أيضا لأنا هالكين في البحر ، وأصبحنا وقد تلفت الجارية وسقطت عن الشراع في البحر مع أكثر من سلم على الشراع» . (عجائب الهند ، صفحة ١٠٧) .

ومما كانت تتعرض له النساء المسافرات بحرا هو فقدانهن أطفالهن أثناء هبوب العواصف . يقول برزك بن شهريار :

ومن طريف الأخبار ما حدثني به بعض أصحابنا قال : ركبت في سفينة من الأبله (على نهر دجلة على بعد ما بين ١٠ ، ١٢ ميلا من البصرة) أريد بيان (بخوزستان والذهاب منها إلى الأبله يتم عن طريق نهر دجلة أو شط العرب) فأخذتنا الرياح والأمواج ، وزاد الأمر علينا حتى نزعنا ثيابنا ولم يكن عندنا شك أننا تالفون ، وكان في السفينة معنا امرأة معها صبي وكانت ساكتة قبل ذلك ، فلما اشتد بنا الأمر أخذت ترقص الصبي وتضحك . ولم يكن فينا فضل لخطابها (أي بقية من جهد لنكلمها) لأنا يئسنا من الحياة . فلما صرنا في الشط وآمنا الغرق قلت لها : أيا هذه المرأة أما تتقين الله عز وجل وأنت ترين ما حل بنا من البلاء ، وأنا قد يئسنا الحياة ؟ ترقصين الصبي وتضحكين ، أما خفت الغرق كما خفنا ؟

ــ لو سمعتم حديثي لتعجبتم وما أنكرتم علي صبري وتهاوني بالغرق .

ــ حدثينا .

ــ أنا امرأة من أهل الأبلة ، وكان لوالدي صديق من بانانية المراكب المختلفة من عمان إلى البصرة ، وكان إذا ورد المركب الذي هو فيه من عمان نزل إلينا وأقام عندنا أياما وأهدى إلينا ، وإذا أراد الخروج فعلنا مثل ذلك وأهدينا إليه ما يمكننا . وكان رجلا مستورا ، فزوجني أبي به . وما مضت غير ثلاث سنين حتى توفي أبي .

فقال لي قومي حتى أحملك إلى عمان فإن لي بها والدة وأهلا . فخرجت معه إلى عمان ، وكنت مع أهله بها مقدار أربع سنين ، وهو يختلف بين عمان والبصرة ، ثم توفي بعمان بعد أن ولدت هذا الصبي بخمسة أشهر . فلما قضيت العدة لم يطب لي المقام بعمان لأن مقامي إنما كان بسببه ، فقلت لوالدته وأهله : أريد أن أرجع إلى أهلي بالأبلة . فقالوا لي : إن أقمت عندنا قاسمناك حياتنا فليس لنا في الدنيا غير هذا الصبي . وسألوني فأبيْت .

فلما عزمت على الخروج اشتريت للصبي سريرا وثيقا من خيزران وجعلت فيه ثيابا كنت قد جمعتها للصبي ولي وذخيرة كنت ادخرتها ، وغطيت ذلك كله وأحكمته وجعلت الصبي فوقه وخرجت في مركب يريد البصرة .

فبينما نحن إذ أخذنا الخب فانكسر المركب نصف الليل وتفرقت الركاب والبانانية في البحر ، فلم ير أحد منا صاحبه ، وتعلقت بلوح من الألواح . . ولم أزل عليه إلى الغد نصف النهار حتى رآنا صاحب مركب مجتاز ، فجمع من رأس المال نحو عشرة أنفس . كنت أنا أحدهم ، وحملنا إلى مركبه ونكسوا رؤ وسنا حتى قذفنا الماء الذي شربناه في البحر ، وسقونا أدوية وعالجونا . . حتى رجعت نفوسنا إلينا ، وأنا قد نسيت ابني لما أنا فيه ، وزال الفكر فيه عن قلبي .

فلما كان الغد قال صاحب المركب وأنا أسمع : أنظروا هذه المرأة ألها لبن ، فإن هذا الصبي وجدناه يموت . فقالوا لي : ألك لبن ؟ فتذكرت الصبي ، قلت : كان لي لبن ، ومع ما مر بي فما أعلم انه قد بقي منه شيء . فقالوا : أبصري هذا الصبي قبل أن يموت . فجاؤ وني بالسرير وفيه الصبي بحاله ما فتحوه ولا أخذوا منه شيئا . فلما رأيته وقعت على وجهي وصرخت وغشي علي ، فرشّوا علي الماء وقالوا : ما أنت ؟ فأفقت بعد ساعة وأقبلت أبكي وأضم الصبي . فقالوا : يا هذه المرأة ما لك ؟ فقلت : هذا الصبي ابني . فقام صاحب المركب علي وقال : هذا ابنك ، فأي شيء الذي تحته ؟ فأقبلت أعد عليهم ما تحته ، وجعلوا يخرجون شيئا بعد شيء كأنه إنما وضع الساعة ، فما منهم أحد إلا بكى بكاء عظيما وحمدوا الله وشكروه .

فأنا غرقت في ذلك البحر وفرق بيني وبين ابني ، فجمع الله بيني وبينه على

تلك الصورة . أخاف من هذه الرحلة ؟ إن كتب الله علي الغرق لم ينفعني الحذر .

هذه القصة سر عظمتها تفاصيلها الانسانية الحية الدقيقة . إن راويها يصور لنا هول الكارثة بنسيان الأم رضيعها ، وعند إنقاذ الغارقين يروي لنا تفاصيل إسعافهم : نكسوا رؤ وسنا حتى قذفنا الماء الذي شربناه في البحر ، وسقونا أدوية وعالجونا . . حتى رجعت نفوسنا إلينا . وعند ما أفاقت من هول الصدمة وتذكرت طفلها لم يصدقها صاحب المركب مباشرة ، بل طالبها بإثبات الدليل بسؤ الها عما تحت فرش الطفل . وهنا يتكشف لنا العنصر الفني في القصة ، فبغض النظر عن وقوع أحداث القصة أو عدم وقوعها ، فإن موهبة القاص الفنان قد تدخلت ، فهي لا تورد من التفاصيل إلا ما له دلالة ووظيفة وتُسقط أو تحذف ما عدا ذلك ، ولهذا فإنه عند ما ذكر على لسان الأم في أول القصة أنها اشترت للصبي سريرا وجعلت فيه ثيابا وغطتها وجعلت الصبي فوقه ، لم يكن ذلك مجرد ثرثرة ، بل لتوظيفه فيما بعد عند ما سألها صاحب المركب دليلا يثبت أنها أم الطفل .

ولم تكن النساء فقط هن اللاتي يفقدن أطفالهن في مثل هذه السفرات ـ وهذه القصص تدلنا على مدى الحرية التي كانت تتمتع بها نساء ذلك الزمن فيسافرن وحدهن في مثل هذه الرحلات المليئة بأخطار الطبيعة وأخطار الانسان نفسه ـ بل إن الرجال أيضا كانوا معرضين لمثل هذه الحوادث . يقول برزك بن شهريار النواخذا :

ومن طريف أخبار البحريين ما هو مشهور معروف ما حدثني عن مردانشاه أحد نواخذة بلاد الفلفل (أو مالابار بالهند) وغيرها وعاش سبعين سنة ولا ولد له ثم ولد له ولد فسماه المرزبان (ومعناها الرئيس من الفرس) . فاشتدت محبته له وسروره ، وكان يحمله معه في المركب مع والدته .

فإنه في بعض الأيام يسير في بحر باربان (أولاريان) يريد كولم (بجنوب الهند) إذ التمس من والدة المرزبان وهي في البلنج (القمرة بالسفينة) ابنه فدفعته إليه ، فلم يزل يرقصه ويقبله إلى وقت المغرب . . ثم اشتدت الريح . . وأراد أن يدفع الصبي إلى أمه فسقط من يده في البحر . واشتدت الريح واشتغل بأمر المركب إلى صلاة الغداة .

فلما أسفر الصبح سكن البحر واستوى أمر المركب وجلس ، فقال لأم الصبي : ناوليني المرزبان . فقالت له : هو معك منذ أول الليل . فنتف لحيته ودق رأسه بالخشب وشاش المركب . فقال صاحب السكان : إعلم أن السكان ثقيل على يدي من أول الليل فانظروا فيه . فنظروا فى سورة السكان (أي نهايته) مثل مسمار ليس يبرح ، فهبط رجل وأصعد الصبي فإذا هو صحيح لم يصبه شيء . فدفعه إلى أمه فسقته لبنا فشرب ، وله من العمر خمسة عشر شهرا .

فقال لي إسمعيلويه : رأيت المرزبان هذا وقد نيف على السبعين سنة ، وقد تقدم إلى قاضي عمان في يوم واحد ثلاث عشرة كرة يحلف الناس على أموالهم إيمانا كلها كاذبة .

وحدثني خلق من الناس أنه لم يكن في ربابنة البحر أظلم من المرزبان هذا ، وانه كان يعامل التجار في مركبه ما يعامل به أصحاب الشروط (الكتاب الشرعيون) ، (عجائب الهند ، صفحة ٧٠ ـ ٧١) .

ولعل أهم ما تتميز به هذه القصة هو بناؤها الفني الذي يتأرجح بين الأزمة وانفراجها على هذا النحو :

أزمة	انفراج
لا ولد	ولد
سقوط الولد في الماء (ليته ما ولد)	العثور عليه حيا
أصبح ربانا ظالما (ليته ما عاش)	

وهذا مثال عادي مما كان يلاقيه البحارة العمانيون من قسوة البحر عليهم .

وحدثني بعض الربابنة يقال له عمران الأعرج أنه خرج من عمان في مركب مع عدة مراكب إلى جدة في سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، فوقع علينا في بعض الأيام ريح عظيم ، فرمينا بعض الحمولة ، وتخلف بعض المراكب ، وأصيب البعض ، وسرنا . فلما صرنا بين كمران (جزيرة بالبحر الأحمر) و . . . وقع بنا خطب هائل ،

فقطعت الأناجر ولم يضبط المراسي ، وحملتنا الرياح ، وكان معنا عدة مراكب من عدن . . فرأيتها وقد طرحتها الريح والأمواج على جبل في البحر ، ونزلت الأمواج عنها فانقلبت ، فعهدي بالأمتعة والناس يتساقطون إلى البحر من فوق الجبل وغرقت ، فما سلم منها أحد . (عجائب الهند ، صفحة ٦٩ ـ ٧٠) .

ومن الأخبار الظريفة ما حدثني به العباس بن ماها هنر (رئيس المسلمين في صيمور) من صيمور أن بعض التجار أخبره عن نفسه أنه جهز مركبا من سندان وصيمور (على ساحل الهند الغربي) إلى عمان ، وأنه سلم إلى وكيله في المركب خشبة طويلة من الساج عليها علامة ، وقال له : بع هذه واشتر بثمنها كذا وكذا من السقط (الخردة) ، وكتب له بذلك تذكرة وخطف المركب (أي أقلع بها) .

فلما كان بعد شهرين أو زيادة عليها وأنا جالس في منزلي وإذا برجل قد وافى ، فقال لي قد دخلت الخور خشبة طويلة عليها اسمك . فقمت أعدو وليس عقلي معي ، فأنظر فإذا الخشبة بعينها ، فلم أشك أن المركب انكسر في البحر لأنها خشبة طويلة تحت الخشب ، فلم يمكن إخراجها من المركب في وقت الخب وطرح المتاع إلى البحر . وزال الشك عني في أن المركب أصيب . فجاء الناس فعزوني وتعزيت عن المركب وما فيه وعدت إلى شغلي وليس عندي البتة شك في أنه تلف لأنه ما جاءنا من البحر أحد عنده خبر .

فما مضى شهران أو نحوهما حتى جاءني البشير فقال : مركبك قد طلع . فقمت مبادرا ، فإذا المركب قد شارف البلد ، ونزل الوكيل منه وجاءني ، فسألته عن الخبر فقال : سلامة وعافية .

ـ هل ذهب منكم شيء أو طرحتم إلى البحر شيئا ؟

ـ لم يذهب منها خلاله .

ـ ما فعلت بتلك الخشبة ؟

ـ بعتها بنيف وثلاثين دينارا واشتريت لك بالثمن .

وكثر تعجبي من ذلك . ثم تحاسبنا فحاسبني على ثمنها ، فقلت :

ــ لا بد أن تصدقني عن هذه الخشبة .

ــ اني لما حاولت جمع ما في المركب إلى الساحل ، وقع بعمان خب عظيم في البحر ، فحملت الأمواج الخشب إلى البحر ، وقلب البحر الرمل على الساحل ، فغطى ما شاء الله أن يغطيه من الأخشاب . فلما كان الغد جمعت الرجال وطلبنا الأمتعة فلم نفقد شيئا غير الخشبة الطويلة ، فقلت لعل الرمل قد سفا عليها فغطاها . فاستأجرت من حفر بالساحل ليطلبها فما وقعنا لها على خبر ، وإذا الأمواج قد قذفتها إلى البحر فعادت إلى صاحبها . وهذا من أظرف ما سمعته في هذا المعنى . (عجائب الهند ، صفحة ١٠٩ ـ ١١٠) .

«وخرج في سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة مركب لبعض التجار بالبصرة من عمان إلى جده ، ولحقه الخب في بعض نواحي شجر لبنان (يقول المستشرق الهولندي فان ديرليت إنها يمكن أن تكون شجر اللبان ويمكن أن تكون شحر اللبان وهو ميناء بحضرموت) وطرحوا إلى البحر شيئا من الحمولة وفيها طرح خمسة أعدال قطن حليج ، وسلم المركب .

واتفق أن خرج مركب لهذا التاجر في هذه السنة أيضا من البصرة يريد عدن وغلافقه (باليمن) ، فلما صار إلى تلك الناحية من شجر لبنان انقطع القارب أو الدونج من خلف المرسب وأخذته الأمواج ، فطرح البانانية نفوسهم في القارب أو الدونيج ومضوا خلفه ليأخذوه ، فدخل موضعا شبه البطن في البحر (البطن خليج صغير) فدخلوا معه ، فإذا على الساحل خمسة أعدال قطن حليج (العدل نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير) بعلامة صاحب المركب ، فحملوها في القارب ، ورزق الله السلامة ، وقد كانوا قدروا أن مركبا انكسر فيه الأعدال ، فعرفوا بعد ذلك الخبر أن هذه الأعدال من جملة ما طرح من ذلك المركب» . (عجائب الهند ، صفحة ١١٠ ـ ١١١) .

ويلاحظ أن القصص الأخيرة تروي كيف يتعرض المسافرون بحرا لفقدان

شيء عزيز عليهم : انسانا أو بضاعة ، بسبب ما تتعرض له السفن من عواصف ، وكيف أن الحظ أسعدهم بأن يعثروا عليها مرة أخرى . ومؤلف عجائب الهند يختار هذا النوع من القصص لأنه يعتبره من باب العجائب وبالتالي لندرته ، أما معظم ما كان يبتلعه البحر فلم يكن يعود . وهذا دلالة على ما كان يعانيه البحارة والتجار العمانيون في ذلك الزمن ليشقوا طريقهم في شجاعة : غربا حتى ساحل افريقيا الشرقي وشرقا حتى شواطىء الصين واليابان التي أطلقوا عليها اسم بلاد الواقواق . لقد كان البحر مكونا أساسيا من مكونات حياتهم يلوح لهم بالثروة حينا ويشبح الموت حينا ، وكتاب مثل كتاب «عجائب عمان» يوضح لنا أنه لم يكن أمامهم خيار ، وأن البحر ـ برغم مخاطره ـ كان وسيلة اتصال أيسر سواء بين مدن عمان الساحلية أو بين عمان والدول المطلة على ما كان يعرف بالبحر الشرقي الكبير ، فالكتاب مصدر من المصادر الهامة التي تعرفنا بالمجتمع العماني في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أي منذ ألف سنة . وإذا كانت السلبيات تعرفنا شيئا كما تعرفنا الايجابيات ، فإننا لا نقرأ من بين المخاطر التي كانت تتعرض لها السفن كثيرا من مخاطر القرصنة ، ومعنى ذلك أن البحر كان وسيلة آمنة من هذا الجانب في ذلك الوقت .

إن كتاب عجائب الهند ـ وغيره من الكتب المماثلة ـ مرجع هام لتاريخ عمان الحضاري يقدمه لنا عن طريق الفن . فهو ـ قبل كل شيء ـ وثيقة أدبية تقدم لنا لونا من ألوان الأدب التي كانت منتشرة في ذلك الوقت أو التي ترتد إلى نفس الأصول التي ترتد لها قصص ألف ليلة وليلة أسلوبا وموضوعا . (فأول اشارة إلى ألف ليلة وليلة جاءت في كتاب مروج الذهب للمسعودي المتوفى عام ٣٤٦ هـ ، وهو تاريخ قريب من تاريخ تأليف كتاب عجائب الهند) .

هل وصل العمانيون إلى اليابان قبل الف سنة ؟

هل وصل العمانيون إلى اليابان قبل ألف سنة ؟

العرب عرفوها باسم واق الواق نسبة إلى اسم آطلقوه
على شجر ثمره يشبه رؤوس النساء

في قصة حسن البصري في كتاب ألف ليلة وليلة عبّر القاص الشعبي دراميا عن بعد اليابان السحيق عن بغداد مركز الخلافة الاسلامية وقتئذ ، وذلك بأن جعل الوصول إليها والعودة منها دونه الأهوال . وتخيل أن سكانها من الجن ، وأن السفر إليها يستغرق سبع سنوات . وكان ذلك كله من خلال تصميم حسن البصري على ملاحقة زوجته منار السنا ابنة أحد ملوك الجن ، وكانت قد هربت من حسن البصري مع ولديها أثناء غيبته عن بيته . وقالت لأم حسن وهي تطير بإبنيها : والله يا سيدتي أم حسن إنك توحشيني ، فإذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق ، واشتهى القرب والتلاق ، وهزته أرياح المحبة والأشواق ، فليجئني إلى جزائر واق الواق .

وكانت رحلة حسن على سبع مراحل عبر فيها الجبال والأودية ، وركب البحر في المرحلة الخامسة منها . وفي أول مرحلة قال له الشيخ عبدالقدوس : اعلم يا ولدي أن جزائر واق الواق سبع جزائر فيها عسكر عظيم ، وذلك العسكر كله بنات أبكار . وسكان الجزائر الجوانية شياطين ومردة وسحرة وأرهاط مختلفة . وكل من دخل أرضهم لا يرجع ، وما وصل إليهم أحد قط ورجع .

وهكذا نجد في النص الربط بين بلاد واق الواق وما يعرف بجزر النساء . وعند ما قابل حسن العجوز شواهي ذات الدواهي على أطراف جزر واق الواق أبلغته أن زوجته في الجزيرة السابعة من هذه الجزر «ومسافة ما بيننا وبينها سنة كاملة للراكب المُجِدّ في السير . وعلى شاطىء هذا النهر جبل يسمى جبل واق . وهذا الاسم عَلَم على شجرة أغصانها تشبه رؤوس بني آدم ، فإذا طلعت الشمس عليها تصيح تلك الرؤوس جميعا وتقول في صياحها : واق واق ، سبحان الملك الخلاق . فإذا سمعنا صياحها نعلم أن الشمس قد طلعت» ، وكذلك الأمر عند ما تغرب الشمس . (ألف ليلة وليلة ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، مجلد ٤ ، ص ٣٣ - ٣٤) .

وعند ما سمعت منار السنا بحلم أبيها أن رجلا غريبا سيأتي ويخطفها استنكرت قائلة : من هذا الذي يطرق بلادنا ويصل إلى جزائر واق الواق ومن يقدر أن يصل إلى الأرض البيضاء والجبل الأسود ، ويصل إلى جزيرة الكافور وقلعة الطيور ثم وادي الوحوش ثم وادي الجان ، ثم يدخل جزائرنا . ولو دخل إليها غريب لغرق في بحر الهلكات . (المرجع السابق ص ٦٦) .

وهذا كله تعبير درامي من القاص العربي عن مدى بعد تلك البلاد عن بلاده وعدم معرفته بها .

وجاء في كتاب عجائب الهند لبرزك بن شهريار الناخذاه الرمزي «وحدثني محمد بن بابشاد ممن دخل الواق واق أن هناك شجرا كبارا له ورق مدوّر منه ما هو إلى الطول يحمل حملا على مثال القرع ، إلا أنه أكبر منه وصورته صورة الناس ، تحركه الرياح فيخرج منه صوت . وان داخله منفوخ مثل حمل العُشْر ، فإذا قُطع عن الشجر خرج الريح من ساعته وصار مثل الجلد . وإن بعض البانانيه (البحارة) رأى الحمل (أي الثمرة) فتعشّق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه ، فلما قطعها خرج الريح منها فبقيت كالغراب الميت» (برزك بن شهريار ، عجائب الهند ، الحاج محمد أمين دربال الكتبي ، القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ٤٩) .

وجاء في كتاب «مختصر العجائب» المرجح نسبته لابن وصيف شاه بأن من

الأجناس الغريبة التي تسكن في أقاصي شرق العالم جنسا أقرب إلى الانسان يعيش في جزائر الوقواق «وكلهم على شكل النساء يصحن واق واق . وإذا قُبض على واحدة منهن سقطت مائتة ، وان المسافر إذا عبر إلى جزيرة أخرى من هذه الجزائر رأى جنسا آخر من النساء أجمل وجها ، وأحسن قواما ، وأطيب رائحة . يعيش يوما واحدا في الأسر . وجو تلك الجزيرة عبق برائحة الكافور ، وليس بها رجال قط» . (عن كتاب د. حسين فوزي : حديث السندباد القديم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٩٥) .

وفي هذا النص نلاحظ ارتباط أسطورة شجر الواقواق بأسطورة جزيرة النساء ، وهو ما سيتكرر فيما بعد .

وفي كتاب مطّهر بن طاهر المقدسي «البدء والتاريخ» وهو معاصر لكتاب «مختصر العجائب» أنّ ببلاد الهند شجرا يعرف بالواقواق يحمل ثمرة يقال إنها تشبه الرؤوس الآدمية .

وفي بعض مخطوطات القصة الفلسفية التي ألفها ابن طفيل في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي إشارة إلى جزيرة في الهند فوق خط الاستواء يولد فيها الناس بلا أبوين (طبقا لنظرية التوالد الطبيعي التي كانت سائدة قبل باستير) ، كما تنبت هناك شجرة تثمر جنسا من النساء ذكره المسعودي باسم «نبات الواقواق» .

أما البيروني في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي فإنه في كتابه عن الهند كذّب أسطورة الواقواق حين قال «جزائر الواقواق من جملة قمير (أي كمبوديا بالهند الصينية حاليا) وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كرؤوس الناس تصيح» .

ويقول الدكتور حسين فوزي في كتابه حديث السندباد القديم إنه حينما وضع ياقوت الحموي كتابه معجم البلدان بعد مضي نحو قرن على كتب البيروني كانت الخرافة قد توطدت على الرغم من تكذيب البيروني لها إلى درجة أن صاحب المعجم اكتفى بالاشارة الآتية إلى جزائر الواقواق «الوقوقة : نباح الكلب . والواقواق كثير الكلام . وهي بلاد فوق الصين يجيء ذكرها في الخرافات» . (المرجع السابق ، ص ٩٦) .

أما القزويني (٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م) فهو يؤيد أسطورة الواقواق في كتابيه «آثار البلاد» و «عجائب المخلوقات» إذ يقول إن الواقواق جزائر في بحر الصين ، تتصل بجزائر الزابج (أي مجموعة جزر الهند الشرقية) . والمسير إليها بالنجوم . وانما سميت بهذا الاسم لأن بها شجرة لها ثمرة على صورة النساء معلقات بشعورها ، يُسمع منها صوت واق واق . ونُقل عن الرازي أنها بلاد كثيرة الذهب حتى إن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب ، ويأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب . وحُكي عن عيسى بن المبارك انه سافر إلى تلك البلاد ، ودخل على ملكتها فرآها على سريرها عريانة وفوق رأسها تاج وعندها أربعة آلاف وصيفة عراة أبكار .

وجاء الدمشقي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي (٦٥٤ ـ ٧٢٧ هـ) فقال في كتابه «نخبة الدهر» : وأما جزائر الواقواق الداخلة في المحيط فإنها خلف جبل أصطيفون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين . والواق شجر صيني شبيه بشجر الجوز وخيار الشمبر ، ويحمل حملا كصورة الانسان . فإذا انتهت الثمرة سمع السامع منها واق واق مرات ثم سقطت .

وهكذا حاول الدمشقي تفسير الخرافة تفسيرا علميا بأن ردها إلى شجر ثمرته تشبه صورة الانسان ، وهو ما سبق أن فعله مؤلف كتاب «عجائب الهند» ـ كما رأينا ـ قبله بنحو أربعة قرون ، لكن أحدا لم يتنبه إلى ما ذكره مؤلف كتاب العجائب ، إذ يبدو أن الميل إلى ترديد الخرافة كان أكثر جاذبية . حتى اتخذت الخرافة شكلها النهائي مقترنة بأسطورة جزائر النساء في كتاب «خريدة العجائب» التي ألفها عمر بن الوردي في القرن الرابع عشر الميلادي .

يقول ابن الوردي بأن جزائر الواقواق متصلة بالزابج ، وهي ألف وسبعمائة جزيرة عامرة . والذهب بها كثير . ملكتهم اسمها دمهرة رآها عيسى بن المبارك السيرافي عريانة على سرير من ذهب ، وبين يديها أربعة آلاف وصيفة أبكار حسان ، وفي رؤ وسهن أمشاط إلى عشرين مشطا . وبهذه الجزائر شجر يحمل ثمرا كالنساء أجساما وسيقانا ، صباح الوجوه ، معلقات بشعورهن يخرجن من غُلُف (أي أغلفة)

كالأجربة (جمع جراب) الكبار . فإذا أحسسن بالهواء صحن واق واق حتى تنقطع شعورهن . فإذا انقطعت سقطن أمواتا . وقد رأى المسافرون بعض نساء تلك الأشجار أكبر من النساء وأطول شعورا ، وأرشق قواما ، وأطيب ريحا إذا قُطعن من شعورهن عشن يوما أو أياما . عرف الرحالون بقربهن نعيما لا مثيل له . وأرض الجزائر كثيرة غنية بالذهب والأبنوس والطيور ، لا يعرف ما بعدها سوى علاّم الغيوب .

الوصف العلمي لشجرة الواق واق

وقد حاول المستشرق الفرنسي دي جويه في القرن التاسع عشر أن يبحث عن نوع من الشجر ينبت في بلاد اليابان يمكن أن يكون مصدر هذه الخرافة فلم يستطع . لكنه عرف أن أسطورة الواق واق شائعة بين اليابانيين وأنها انتقلت إليهم من بلاد العرب . ففي دائرة معارف يابانية أُلفت في القرن الثامن عشر حكاية شجرة تنبت ببلاد الخلفاء المسلمين وتحمل ثمرا شبيها بالرؤوس الآدمية ، وهي رؤوس تضحك ، فإذا ضحكت طويلا ذبلت وانفصلت عن الشجرة . بل إن الانسيكلوبيديا الصينية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر تصف شجرة عجيبة ببلاد العرب ، ثمرها أطفال طول الواحد ٧ بوصات ، يضحكون لمن يقترب منهم ، ويحركون أيديهم وأرجلهم ، ويموتون إذا قُطعوا من الشجرة ، وتسودّ وجوههم . (ام . جي . دي جويه ، اليابان التي عرفها العرب ، تعليق رقم اف ، ص ٣٠٤ ، على الترجمة الفرنسية لكتاب عجائب الهند التي قام بها مارسيل ديفيك ، بريل ، لايدن ، ١٨٨٣ - ١٨٨٦) .

ويشبّه مؤلف كتاب عجائب الهند شجرة الواقواق بشجرة القرع ، ويقول إن داخلها منفوخ مثل حمل العُشر . وشجرة العُشر لها ثمرة كروية يُسمع لها صوت انفجار عند نضجها ، وهي تنبت في اليمن وفلسطين وبلاد السودان والنوبة ، وربما كان شكل جذوعها وأغصانها وخشبها الأملس الناعم هو الذي دعا البعض إلى تشبيهها بسيقان النساء وأذرعهن .

ويعتقد الدكتور أنور عبدالعليم أن شجرة الواقواق هي شجرة الخبز التي تنمو بالفعل في المحيط الهندي وعلى سواحل الهند وافريقيا الشرقية وفي جنوب شرق آسيا وتمتد حتى سواحل الصين واليابان ، ويقول إنه رآها بالفعل على ساحل افريقيا الشرقية في كينيا وتنزانيا وعلى ساحل الهند جنوبي بومباي وعلى بعض جزر المحيط الهندي ، وتُعرف هذه الشجرة باللاتينية تحت اسم الجنس «أتروكاربس» وموطنها الأصلي أرخبيل الملايو ومنه امتدت إلى جزر المحيط الهادي .

وقد سُميت الشجرة بشجرة الخبز لأن ثمارها تحتوي على مادة نشوية كالدقيق الأبيض . وهذه الثمار مستديرة أو بيضاوية يصل قطرها نحو عشرين سنتيمترا أي في مثل حجم رأس الانسان تماما ، وتبدو معلقة من الأغصان بأعناق طويلة ، ولونها بني مخضر وبها برقشة . ثم إنك لو نظرت إليها وهي بهذا اللون والبرقشة لأمكنك أن تتخيل وجه آدمي بسهولة وخاصة لو كنت قد قضيت أياما وحيدا في جزيرة موحشة .

ثم إن الثمرة إذا جفت يخرج منها الهواء وتتطاير بذورها وأليافها . والأوراق كبيرة مفصصة لونها أخضر داكن ذات ألياف طويلة إذا تنسلت اختلطت بالثمار فبدت على صورة نساء معلقات من شعورهن ، وهي الصورة نفسها التي انطبعت في ذهن ملاحينا القدامى . ثم إنك لو كشطت لحاء الشجرة بالسكين لخرج منه سائل أبيض كاللبن يشبه لبن الرضيع . وهذا هو الوصف العلمي لهذه الشجرة . (د. أنور عبدالعليم ، جزائر واق الواق ، مجلة الدوحة ، ابريل ١٩٨٥ ، ص ١٣٠ - ١٣١) .

موقع جزائر الواقواق

أما موضع الجزائر التي ينبت فيها هذا الشجر وسُميت على اسمه فقد اختلف فيه الجغرافيون العرب . لكن المستشرق الفرنسي دي جويه يستنتج مما جاء في كتاب «عجائب الهند» أنه بلاد اليابان وأن العرب عرفوها منذ ألف سنة . فقد حكى برزك بن شهريار مؤلف كتاب عجائب الهند قصصا عن قوم رأوا من دخل الواقواق وأبحروا بها فوصف سعة البلاد والجزائر وقال : «ولست أعني بسعة البلاد أن البلدان

كبار ، ولكن أهل الواقواق كثير . وفيهم تشابه من الترك . وهم أحذق خلق الله بالصنائع . وهم أهل مكر وحِيَل وخديعة وخبث وشدة بأس في كل شيء . وحدثني ابن لاكيس أنهم شاهدوا من أهل الواقواق ما يدهش . وذلك أنهم وافوهم في سنة أربع وثلاثين وثلثمائة في نحو ألف قارب فحاربوهم حربا شديدا ولم يقدروا عليهم (أي على ابن لاكيس وقومه) لأن حول قَنْبَلَة (ميناء على ساحل افريقيا الشرقية في كينيا) حصنا وثيقا وحول الحصن خورا فيه من ماء البحر . وقنبلة في ذلك الخور مثل القلعة الحصينة . وانه وقع إليهم قوم منهم (أي أسروا جماعة من أهل الواقواق) فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون سائر البلاد ، فذكروا أنهم إنما جاءوهم لأن عندهم ما يصلح لبلادهم والصين ، مثل العاج والذُبْل (أي ذُرْق الطيور أو فضلاتها التي تستخدم كسماد عضوي) والنمور ! والعنبر . ولأنهم يريدون الزنج لصبرهم على الخدمة وجَلَدهم . وأنهم جاءوهم من مسيرة سنة . ونهبوا جزائر بينها وبين قنبلة مسيرة ستة أيام . وظفروا بعدة قرى ومدن من سفالة الزنج (ساحل افريقيا الشرقي) . فإذا كان قول هؤلاء وحكاياتهم صحيحة ، أنهم جاءوا من مسيرة سنة ، فهذا يدل على صحة ما ذكره ابن لاكيس من أمر جزائر الواقواق وأنها قبالة الصين والله أعلم» . (عجائب الهند ، ص ١٣٢ - ١٣٣) .

وإذا صدق هذا الكلام فمعنى ذلك أن اليابانيين وصلوا في ذلك الزمن هم أيضا إلى ساحل افريقيا الشرقية في حملة بحرية حربية ولو أنها كانت حملة فاشلة ، إلا أنها كانت حملة جريئة لبعد المسافة وصعوبة وسائل الابحار وقتئذ ، فضلا عن نقل المؤ ن والعتاد التي تتطلبها مثل هذه الحملة . وإن كان واضحا من النص أنها لا بد تزودت بما غزته من بلاد في طريقها .

وقد عرف العرب جزر اليابان باسمها الحقيقي القديم وهو «واكوكو» ، ولكنهم كانوا ينطقونه حسب لهجة سكان كانتون : وو- كوك . والجزء الأول هو اسم اليابان أما الجزء الثاني فمعناه «بلاد» . أما كلمة اليابان أو جيبين **Jipen** الحديثة ومعناها أصل الشمس أو كما نقول «بلاد الشمس المشرقة» فلا يرجع إلا إلى نهاية القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) . ولم يختف الاسم الأول إلا منذ وقت قريب . (ام . جي . دي جويه ، التعليق السابق ، ص ٢٩٩) .

والمعروف أن البحارة العرب ـ والعمانيين على رأسهم ـ كانوا قد وصلوا الصين قبل الاسلام ، وأن العلاقات البحرية التجارية قد ازدادت منذ عام ٦٥١ م أي في القرن الأول الهجري حيث وصلت الزيارات الرسمية لمندوب تاشن (أرض العرب) للصين إلى ٣٩ مرة خلال ١٤٨ سنة بين عامي ٦٥١ ـ ٧٩٨ م (تشانغ زون يان ، الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلسلة تراثنا ، العدد ٢١/١٩٨١ ، ص ٨) .

طائر السمندل

وقد وردت قصص أخرى عن بلاد الواقواق في كتاب «عجائب الهند» منها أنّه «بجزيرة من جزائر الوقواق طير ملون بحمرة وبياض وخضرة وزرقة على لون الشقراق (طائر يستوطن شمال عمان) وفي قد الحمام الكبار يسمونه السمندل (طائر خرافي كالرخ ، حجمه أكبر بكثير من ذلك) يدخل النار فلا يحترق ، ويمكث الأيام لا يطعم إلا بالتراب ، فإذا أحضن بيضه لم يشرب الماء حتى يفقس ، فإذا خرجت فراخه تركه أياما لا يدنو منه ، ويطوف بالفراخ الذباب والبق إلى أن يخرج ريشه فإذا ريّشوا وتحركوا زقهم حينئذ» . (عجائب الهند ، ص ١٣٠) .

وأرنب يتغير جنسه

«وحدثني أن بجزيرة من جزائر الوقواق دابة تشبه الأرنب تصير الذكور منها مرة أنثى ومرة ذكرا والأنثى كذلك» . (المرجع السابق ، ص ١٣٠) .

العقارب الطائرة

«وحدثني محمد بن بابشاد أن بناحية الوقواق عقارب تطير كالعصافير ، إذا ضربت الانسان ورم جسمه واعتل وانقشر جلده ومات» . (المرجع السابق ، ص ٣٨) .

مذكرات أميرة عربية

مذكرات أميرة عربية
ولقاء الشرق والغرب

نشرت هذه المذكرات لأول مرة باللغة الألمانية في برلين عام ١٨٨٦ . وتعترف المؤلفة في مقدمتها القصيرة أنها انتهت من كتابة فصول مذكراتها قبل ذلك بتسع سنوات أي عام ١٨٧٧ ، ولم تضف إليه جديدا سوى الفصل الأخير عن عودتها إلى زنجبار بعد غيبتها عنها بحوالي عشرين عاما . وتقول إنها كتبتها أصلاً ليقرأها أولادها حين يكبرون ، فلم يكونوا ـ وقت أن كتبتها ـ في سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئا عن ماضي حياتها ووطنها زنجبار وقومها العرب ، حتى ألح عليها أصدقاء ـ لا تذكرهم ـ لنشرها .

ونحن نعرف أن أدب الاعترافات والمذكرات لم يكن أدبا شائعا في لغتنا العربية حتى القرن العشرين ، لأن تقاليدنا تحد من الجرأة والصراحة اللتين تتطلبهما مثل هذه الاعترافات سواء بالنسبة لصاحبها أو لمن يذكرهم ، فما بالنا إذا كانت كاتبة هذه المذكرات سيدة شرقية عربية كتبتها منذ أكثر من مائة عام .

أما المؤلفة فهي السيدة سالمة (١٨٤٥ ـ ١٩٢٢) ابنة السيد سعيد بن سلطان ، سلطان عمان وزنجبار من ١٨٠٤ إلى ١٨٥٦ ، وهو حفيد الامام أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية في عمان . وقد قام الأستاذ عبدالمجيد حسيب القيسي بترجمتها إلى اللغة العربية عن الترجمة الانجليزية ، فبذل فيها جهدا مشكورا لكنه للأسف لم يثبت لنا عنوان الكتاب الأصلي بالألمانية وناشره ولا الترجمة الفرنسية التي أشار إليها في مقدمته ولا الترجمتين الانجليزيتين اللتين ترجم عنهما حتى يسهل

الرجوع إليها . وقد قامت وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان بنشر هذه الترجمة عام ١٩٨٣ .

وحرص المترجم أن يقدم لترجمته بمقدمة يوضح فيها المناخ السياسي والاجتماعي الذي كتبت في ظروفه هذه المذكرات . وفي بداية المقدمة يلخص لنا حياة المؤلفة فيقول : أميرة شرقية عربية وابنة سلطان عربي كبير تخرج قبل أكثر من مائة عام على تقاليد قومها فتتزوج شابا ألمانيا وتهجر من أجله وطنها وملك أبيها وتترك حياة العز والقصور لتطوح بها الأقدار في ديار الغربة بين لندن وبرلين ، وتستبدل حياة ا الاختلاط والسفور في أوروبا بحياة الحريم والحجاب في الشرق وباسمها العربي السيدة سالمة بنت سعيد اسما أعجميا هو البرنسيس إميلي روث ، ثم تضيق بها الحياة بعد عشرين عاما أو تضيق هي ذرعا بالحياة الأوروبية فتحن إلى الرجوع إلى وطنها الأول ، ولكن أبواب العودة تغلق في وجهها فتعكف تكتب باللغة الألمانية قصة حياتها وتجاربها وتستعيد ذكريات بلادها وبني قومها (السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان ، مذكرات أميرة عربية ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٣ ، ص ٩) .

وتكتسب هذه المذكرات أهمية خاصة بسبب ما تكشفه من جوانب هامة في الحياة السياسية والاجتماعية في زنجبار في القرن التاسع عشر ، فضلا عن أنها تقدم صورة عن الحياة الداخلية للقصر السلطاني لا يستطيع المؤرخ العادي أن يصل إليها . ويقول المترجم إنه لا يعرف نظيرا للسيدة سالمة إلا الشريفة مصباح حيدر التي كتبت مذكراتها عن الحياة في بيوت شرفاء مكة المكرمة في استنبول في مطلع هذا القرن . ونحن نضيف أن وجود السيدة سالمة في بلد غربي ربما هو الذي شجعها على كتابة مثل هذه المذكرات التي لا بد وأنها قرأت مثيلات لها في الأدب الغربي .

ويقول المترجم إنه مما يزيد في أهمية ما تضمنته هذه المذكرات أن مسرح أحداثها زنجبار ، ذلك البلد الذي قلّ منا من يعرف من أخباره شيئا ، وقل من يعرف أن هذا البلد ظل عربيا حتى عام ١٩٦٤ حيث فقدناه في مأساة دامية أضيفت إلى مآسي العروبة في الأندلس واسكندرونة وفلسطين ، بل وأكثر من هذا فإن علمنا

بتاريخ عمان ـ التي كانت زنجبار جزءا منها بل شبه عاصمة لها يوما ما ـ ظل سطحيا حتى الأعوام الأخيرة حين خرجت عمان من عزلتها وعاد اتصالها بالعالم . (وعمان دولة تقع على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية بين جمهورية اليمن الشعبية جنوبا ودولة الامارات العربية شمالا) .

وباختصار شديد نقول إن نزوح العرب من جنوب جزيرتهم إلى ساحل افريقيا الشرقي وجزرها الشرقية بدأ منذ آلاف السنين ، وكانت اليمن وعمان مصدري الهجرة الأساسية وذلك لتفوق أهل عمان خاصة في صناعة السفن وفي الملاحة البحرية ، تدفعهم إلى ذلك عوامل كثيرة في مقدمتها كثرة الثروات في تلك الجزر وما يقابلها من قسوة الجو وفقر الأرض في بلادهم ، ثم الفرار من الفتن والحروب التي كانت لا تكاد تهدأ في عمان إلا لتثور مرة أخرى بين القبيلة والقبيلة ، بل بين أفراد الأسرة الواحدة ، ومع ذلك فلم تنقطع صلتهم بعمان الوطن الأم .

ثم احتلت البرتغال في القرن الخامس عشر مسقط وعمان وكذلك جزر افريقيا الشرقية وبعض أجزاء من ساحل افريقيا الشرقي ، واضطهدوا أبناء البلاد بما فيهم العرب ، فاستغاثوا بوطنهم الأم عمان ، فأعد سلطان بن سيف اليعربي ـ الذي كان قد سبق أن حرر مسقط وعمان من البرتغاليين عام ١٦٥١ ـ أسطولا ضخما وهاجم الجزر وحررها واحدة بعد الأخرى وترك في كل منها حامية عربية من أبناء القبائل العمانية وعيّن فيها حكاما تابعين له من أبناء تلك القبائل بما فيها جزيرة زنجبار .

وكانت هذه الجزر تدين بالولاء لعمان طالما كان حكامها أقوياء ، وتساور أبناءها أطماع الانفصال عن الوطن الأم كلما ضعف حكام عمان أو انقسموا على أنفسهم . حتى تولى السيد سعيد بن سلطان الحكم فكان في أول عهده يتردد ما بين زنجبار ومسقط ثم انتهى به الأمر في آخر أيام حكمه إلى الاستقرار في زنجبار تاركا عمان ومشاكلها إلى ابنه ثويني (١٨٢١ ـ ١٨٦٦) لا يزورها إلا حين تقتضيه دواعي الخطر أو ظروف الحرب حتى ليقال إن السيد سعيد قضى ثلثي وقته من عام ١٨٣٠ حتى وفاته ١٨٥٦ إما في عرض البحر أو في زنجبار . وقد قضى السنوات العشر الأخيرة من حياته في زنجبار لم يفارقها إلى عمان .

وقد أدت وفاته إلى انقسام مملكته بين أبنائه ، فأعلن السيد ثويني نفسه حاكما في مسقط والسيد ماجد سلطانا في زنجبار ، وبدأت المناوشات بينهما مما أضعف الجانبين حتى انتهت إلى زيادة النفوذ البريطاني لا سيما في زنجبار التي وضعت تحت الحماية البريطانية في ٤ نوفمبر ١٨٩٠ . وفي الخمسينات من هذا القرن بدأت في تلك البلاد حركات عنصرية مريبة بين السواحليين والزنوج تهدف في مجموعها إلى التخلص من العرب واعتبارهم عنصرا دخيلا على الجزيرة . وبعد تطورات سياسية لا مجال هنا لشرحها انسحبت بريطانيا في ديسمبر ١٩٦٣ من الجزيرة وأعلنت زنجبار مملكة مستقلة ، وبعد خمسة أسابيع قامت حرب أهلية استهدفت القضاء على كل ما هو عربي . أما في عمان فقد ظهر النفط عام ١٩٦٧ . وكانت بداية النهضة الحديثة بعد تولي جلالة السلطان قابوس مقاليد الحكم في عام ١٩٧٠ .

تلك لمحة شديدة الاختصار عن هذا التاريخ المجهول للكثيرين حتى من أبناء العالم العربي رغم ازدحامه بأحداث العنف وبالتغييرات المتلاحقة ، ولهذا كان لا بد منها حتى نعرف الخلفية التاريخية والسياسية للفترة التي عاشت فيها السيدة سالمة . فقد ولدت بين سنتي ١٨٤٤ و ١٨٤٥ لأنها تقول في مذكراتها إنها كانت في حدود التاسعة حين غادر أبوها زنجبار في رحلته الأخيرة التي كانت في مايو ١٨٥٤ ، وانها لم تكن قد أتمت الثانية عشر عند وفاة أبيها في أخريات عام ١٨٥٦ ، وانها اشتركت فيما تلا ذلك من أحداث سياسية بسبب نزاع الاخوة أبناء السلطان المتوفى على وراثة الحكم ، فتخلت عن أخيها الحبيب ماجد الذي تولى سلطنة زنجبار بعد أبيه من عام ١٨٥٦ إلى ١٨٧٠ ، وانضمت إلى منافسه وأخيه برغش بتأثير من أختها خولة التي كان لها نفوذ كبير عليها ، وقد أضيرت بسبب هذا التورط لأن أخاها ماجد حين صالحها وصفح عنها عادت بينهما علاقات يمكن وصفها بأنها علاقات رسمية ، ولكن عودة هذه العلاقات أثارت ضدها شركاءها في المؤامرة وعلى رأسهم برغش وخولة مما لا بد وأنه أوقعها في الاضطراب النفسي بحيث يبدو أنها آثرت أن تهجر الجزيرة ومن فيها ، فما أن التقت بشاب ألماني تاجر يعمل وكيلا لاحدى الشركات الألمانية في زنجبار حتى تعلق به قلبها وبادلها الحب ، وإذ لم يكن زواجهما ممكنا في زنجبار فقد

هربت إلى عدن في ٢٦ أغسطس ١٨٦٦ وهي في حوالي العشرين من عمرها ، وبعد عشر سنوات من وفاة أبيها ، ثم لحق بها صاحبها بعد شهور ، ومن هناك سافرا إلى ألمانيا . لكن زوجها توفي في حادث بعد وصولهما بثلاث سنوات تاركا لها ثلاثة أطفال ، كما مات أخوها ماجد في الوقت الذي كانت تطمع فيه أن يعينها في مصيبتها أو يسمح لها بالعودة إلى بلادها . وقد تولى عرش السلطنة بعده أخوها برغش (١٨٧٠ ـ ١٨٨٨) الذي كانت شريكته في المؤامرة ضد ماجد ، والذي لم يغفر لها مصالحتها مع ماجد ، فلم يسمح لها بالعودة إلى وطنها . لكنها بإصرارها استطاعت أن تقوم بزيارة زنجبار عام ١٨٨٥ ـ أي وهي في حدود الأربعين ـ زيارة قصيرة أثارت قلق الانجليز الذين كان نفوذهم قد أخذ يزداد ، كما أثارت قلق السلطان ففرض عليها رقابة صارمة ، بينما أثارت لدى أهل الجزيرة حماسا وفضولا . (المرجع السابق ، المقدمة ، ص ٤٥) .

ذلك أن التنافس كان على أشده في تلك الفترة بين النفوذين البريطاني والألماني وكان النفوذ الألماني قد وجد له موضع قدم في افريقيا ويحاول الامتداد . ونعلم من المذكرات والتاريخ أن الحكومة الألمانية أولت بعض الاهتمام لهذه الأميرة حتى حصلت على لقب برنسيس وكانت موضع عطف الامبراطور الألماني ومستشاره بسمارك . ويرجح مترجم الكتاب في مقدمته استغلال الحكومة الألمانية وجود هذه الأميرة على أرضها كأداة في التنافس على افريقيا بين الامبراطوريتين ، كما يرجح أن يكون هذا السر الكامن وراء رفض الانجليز طلبها بالتوسط للصلح مع أخيها السلطان برغش عند زيارته لندن عام ١٨٧٥ والسماح لها بالعودة إلى بلادها . كما يرجح أن يكون ذلك وراء قلق كل من الانجليز وأخيها السلطان عند زيارتها زنجبار في حماية الأسطول الألماني ، الأمر الذي كان يحمل معنى الاذلال والاهانة للسلطان لو تعرض لها بأي سوء لأن الحماية الألمانية في هذه الحالة تجد مبررا للتدخل بحجة حماية مصالح أحد الرعايا الألمان . وينهي المترجم رأيه بقوله إن هذه الزيارة لم تحقق غرضا سياسيا ملموسا للحكومة الألمانية على ما يبدو ، ولا نفعا شخصيا للأميرة . وقد أهمل الألمان أو قللوا من اهتمامهم بهذه الأميرة غالبا بعد أن ساد التفاهم بين الحكومتين الانجليزية والألمانية في السياسة الخارجية (المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٧) .

ولما كان الفصل الأخير من هذه المذكرات قد كتب عام ١٨٨٦ وهو الفصل الذي أضافت فيه زيارتها لزنجبار ، ولما كانت المؤلفة قد توفيت بعد ذلك بست وثلاثين عاما (١٩٢٢) أي وهي في حدود الثمانين عند ما كان السلطان خليفة بن حارب بن ثويني (١٩١١ ـ ١٩٦٠) سلطانا على زنجبار ، فلعلها نجحت فيما لم تستطع أن تنجح فيه من قبل وقابلت سلطان عمان في زيارتيه للندن ، الأولى عام ١٩١١ والثانية عام ١٩٢٠ أو احداهما لا سيما وأنه عند زيارته الثانية للندن أقامت له الجمعية الآسيوية حفل تكريم ألقى فيه سعيد رودلف ابن السيدة سالمة وحفيد السلطان سعيد بن سلطان (والد جد السلطان خليفة) محاضرة عن تاريخ أسرة البوسعيد الحاكمة في عمان وزنجبار .

والمذكرات كما سبق أن قلت وثيقة هامة سياسيا واجتماعيا عن هذا البلد المجهول في تلك الفترة المجهولة بالنسبة للكثيرين لأنها تتناول الحياة الداخلية للقصر السلطاني لا يستطيع المؤرخ العادي أن يصل إليها لا سيما وأنها بقلم سيدة . ففي فصولها الأولى تتحدث عن الحياة في ثلاثة قصور للسلطان في زنجبار : بيت المتوني وبيت الواتورو وبيت الساحل . ولأنها تتحدث إلى أجانب أو ـ كما تقول في مقدمتها ـ إلى أولادها الذين لا يعرفون شيئا عن وطنها زنجبار ، فإنها كانت حريصة على التعرض للعادات والتقاليد كأنها دليل يرشد مجموعة من السائحين . فتتناول الحياة اليومية في بيت السلطان ، وولادة الأطفال وتربيتهم ، والتدريس ، وأزياء النساء في بيوت السلطان ، وشعائر الحداد بمناسبة وفاة السلطان ، ووضع المرأة في الشرق ، والخطوبة والزواج في بلاد العرب ، وزيارات النساء ومجالس الرجال ، والصيام والأعياد في الاسلام ، والطب والعلاج والنذور والأرواح ، وقضية الرقيق التي كانت قضية الساعة في ذلك الوقت . فالمذكرات تتأرجح بين الجانبين الوصفي والحركي أو التاريخي ، وأهم ما يتناوله الجانب التاريخي وفاة السلطان ، ثم مؤامرة برغش الفاشلة على أخيه ماجد ، وفرار سالمة من زنجبار ، ومحاولتها التي لم يكتب لها النجاح لمقابلة أخيها برغش أثناء زيارته لندن ، وأخيرا عودتها القصيرة إلى زنجبار . وواضح أن الجانب الوصفي له الغلبة على الجانب التاريخي .

ولا نستطيع أن نلم بكل هذه المذكرات في مثل هذا الحيز الضيق ، إنما يكفينا

أن نتتبع خيطا واحدا له دلالته على تفكير المؤلفة من ناحية ، كما يمكن أن يقدم لنا مفتاحا لما بالمذكرات من معلومات تحرص المؤلفة على إيصالها لنا . ذلك هو موضوع اللقاء بين الشرق والغرب ، وهو الموضوع الذي تعرض له معظم من عاش في الشرق ثم سافر إلى الغرب من كتابنا العرب ، منذ رفاعه رافع الطهطاوي في كتابه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» وعلي مبارك في «علم الدين» ، والمويلحي في «حديث عيسى بن هشام» وطه حسين في «أديب» وتوفيق الحكيم في «عصفور من الشرق» و «زهرة العمر» ويحيى حقي في «قنديل أم هاشم» والطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال» . . الخ . فالمؤلفة عاشت طفولتها وفترة من شبابها في زنجبار ، وهذه العشرون سنة الأولى من حياتها كانت المحور الرئيسي لمذكراتها ، لكنها لا تكتب هذه المذكرات في وطنها ولا توجهها إلى أهلها ، إنما هي تكتبها بعد عشرين عاما أخرى من هجرتها وطنها وتكتبها لقوم ـ من خلال أولادها ـ لا يعرفون شيئا عن ذلك الوطن . ورغم أنها لا تكتب مذكراتها وهي عمانية زنجبارية إلا أنها لا تكتبها بروح الألمانية لأنها كانت أقرب إلى جذورها وماضيها مما هي إلى حاضرها . فرغم روح الانصاف الذي تكاد تتسم به نظرتها كلما تعرضت إلى مجال من مجالات المقارنة بين الشرق والغرب ، إلا أن القارىء لا يفوته ذلك الميل الخفي أو العلني إلى تراثها ، وكأنما حاضرها مجرد قشرة رقيقة سرعان ما يسهل إزالتها ، ولعل هذا هو السر في حنينها الدائم للعودة إلى وطنها، ومحاولاتها المستمرة لمقابلة إخوتها وأقربائها سلاطين عمان عند زيارتهم لأوروبا .

وأبرز أسباب سوء التفاهم بين الشرق والغرب ناتج عن طريقة استقاء الغربيين المعلومات عن الشرق ، والتسرع في الأحكام ، والأخذ بمظاهر الأشياء ، فهي تعلن قائلة إن الشرق ما يزال «في نظر الغربيين بلد الغموض والسحر وقصص الخيال والخرافات . وعلى هذا الأساس فهو يستهوي الكثيرين للكتابة عنه لغرض الربح والشهرة . فإذا حدث أن مر سائح مرورا عابرا في الشام أو تونس أو القسطنطينية أو القاهرة فإنه لا يتأخر عن الكتابة عن هذه الأماكن كتابة الخبير العالم بها ، وكل مصادر علمه هو خدم الفندق الذي ينزل به أو أصحاب الحمير التي تنقله في تنقلاته . وليته يكتفي بما يسمع ويرى بل إنه يطلق لخياله العنان فيضيف إلى كتابه

أشياء خيالية لا أساس لها من الصحة والواقع ليضفي على كتابه مظهرا من مظاهر الجدة والأهمية ويضمن له النجاح وسرعة الانتشار . ولا يمر وقت طويل حتى يصبح هذا الكتاب مصدرا وحجة تستقى منه المعلومات وتبنى عليها الأحكام» ، (ص ١٩٤) . وتقول إنها وقعت في الخطأ نفسه عند وصولها أوروبا بسبب انخداعها بظواهر الأمور ، فقد خدعتها علائم البشر التي تغمر الوجوه وهي تزور بعض الأسر أو تخرج معهم ، فظنت أن حياة الأسرة في أوروبا أقرب إلى السعادة مما في بلادها . ولكن عند ما ازدادت علاقاتها وكثر عدد معارفها ونفذت إلى دخائل حياتهم الأسرية اكتشفت مقدار خطأ أحكامها الأولى ، فما يضمر الكثيرون غير ما يظهرون . وتعرفت على الكثير من الزيجات التي ظاهرها السعادة وباطنها شر أنواع العذاب . وقد انتهت بها ملاحظاتها إلى أن السعادة الأسرية والانسجام الروحي ـ في رأيها ـ «لا علاقة لها بنظم الزواج ولا بدين المرء أو معتقده أو تقاليده ، وإنما يعتمدان أولا وأخيرا على مقدار تفهم كل من الزوجين للآخر» ، (ص ١٩٤) .

ورأيها هذا في السعادة الزوجية نموذج لطريقة تفكيرها التي كونتها جذور عشرين عاما في الشرق ، وقشور عشرين عاما أخرى في الغرب مما جعلها تنتقد نظام الزواج الغربي ولا تتحمس لنظام الزواج الشرقي وتنتهي إلى التخلص من أي أثر اجتماعي أو ديني على السعادة الزوجية وتجعله أمرا فرديا خالصا متوقفا على «مقدار تفهم كل من الزوجين للآخر» .

ولكن موقفها ليس دائما مثل هذا الموقف الذي لا مع الغرب ولا الشرق بل إن كفته أميل في أحيان كثيرة إلى الشرق . فعند ما انتقلت مع أمها من بيت الموتني إلى بيت الواتور ولأسباب يضيق المجال عن شرحها وسأل أهل الدار أمها عن سبب رحيلها كان ردها أن الانتقال لم يتم بإرادتها إنما هو قضاء من الله لا رد له . ثم تخاطب المجتمع الغربي بأن كلمة قضاء من الله ربما تصدم تفكير بعض القراء . وهؤلاء لا شك ممن أغلقوا أبصارهم وبصائرهم دون عظمة الخالق . . وتجاهلوا إرادته العليا معتقدين أن الصدفة لا غيرها هي التي تقرر مصائر الانسان (ص ٧١ ـ ٧٢) . ثم تذكر القراء «أن صاحبة المذكرات إنما تروي ذكرياتها عن الحياة العربية في البيوت العربية حيث لا وجود هناك البتة لكلمتي الصدفة والطبيعة ، كما يجب ألا يفوت

هؤلاء القراء أن الكاتبة قد ولدت ونشأت على دين الاسلام ، والمسلم يؤمن بأن الله ليس هو الخالق والحافظ والقابض فحسب ، بل هو العلي المهيمن المدبر أيضا ، وانه لا يكون شيء إلا أن يشاءه ، وأن إرادته ـ لا إرادة الانسان ـ هي العليا والسائدة في كل الأمور صغيرها وكبيرها» ، (ص ٧٢) .

وإذا كان هذا أحد الجوانب الفكرية التي تقارن فيها صاحبة المذكرات بين الشرق والغرب ، فإنها تناقش كذلك جانبا من الجوانب الاجتماعية حين تتناول وضع المرأة الشرقية . فبعد أن تصف ما تعمله المرأة الشرقية في بيتها من الصباح حتى المساء تعلن أنه «من الخطأ الكبير القول بأنه ليس لدى المرأة الشرقية ما تفعله طيلة يومها ، فصحيح أنها لا تعمل خارج بيتها لعدم حاجتها للعمل ، وصحيح أنها لا ترسم أو تعزف على البيانو أو ترقص (كما هو مفهوم الرقص عند الغربيين) أو ترتاد حفلات الليل . ولكن هذه الأمور ليست هي كل الوسائل المتيسرة لقضاء الوقت ، بل إن هناك وسائل أخرى غيرها . وإذا كانت المرأة الأوروبية تمارس هذه الهوايات والأعمال بحثا عن السعادة أو جريا وراء اللذة فنحن الجنوبيات سعيدات راضيات بحياتنا ولا نعرف هذا اللهاث المسعور وراء المال والملذات ، ولا نقره ولا نرضى به ، ولا يهمنا بعد ذلك أن تتهمنا المرأة الأوروبية بالتخلف والجمود» ، (ص ١١٢ ـ ١١٣) .

وتقف موقفها الذي كونته ظروفها حين تعلن عدم رضائها عن كل من الشرق والغرب عند ما تقول إن التقاليد الصارمة في الشرق تمنع المرأة «من الاسترسال وراء ميلها الغريزي للتخفيف من مظاهر الستر والحجاب التي تبدو فيها بالشارع وكأنها دمية ملفوفة ، ومع اعترافي بأن النظرة الشرقية في هذا الأمر كثيرة الشدة والصرامة فإني أجد أيضا أن تبرج المرأة الأوروبية في لباسها وزينتها وهي تظهر في الحفلات العامة لا يعدو كونه هو الآخر تطرفا ممقوتا في الاتجاه المعاكس» ، (ص ١٩٦) .

وتكرر هذا الرأي في موضع آخر بطريقة أخرى فتقول «لا أستطيع بأية حال من الأحوال أن أنكر ما في الكثير من عادات الشرق من التزمت أو التطرف ولكن هل تخلو أوروبا من أمثالها ؟ فهناك العزلة التامة بين الجنسين ، وهنا الاختلاط والاباحة

بينهما ؛ وهناك التستر والغطاء والحجاب في بلاد تبلغ الحرارة فيها أقصاها ، وهنا في بلاد البرد والجليد نجد الصدور المكشوفة والسيقان العارية . ولهذا فإنك تجد التطرف في كلا الجانبين وما منهما من استطاع أن يكتشف القاعدة الذهبية ، قاعدة الاعتدال والتوسط بين الأمور» ، (ص ٢١٩ ـ ٢٢٠) .

وعند ما تتعرض لموضوع تعدد الزوجات تقول إن التقاليد وواقع الحياة في الشرق قد خففت إلى حد كبير من انتشار هذه القاعدة في حين أن الغربيين يتعمدون آثمين مخالفة تعاليم دينهم باتخاذهم الخليلات بالخفى والفجور . ولعل الفرق الوحيد بين المرأة الشرقية وزميلتها الغربية أن الأولى تعرف بوضوح وبالضبط من هي منافستها أو منافساتها وعددهن وشكلهن ووصفهن في حين تبقى المرأة الغربية في جهل تام بهذا كله (ص ١٩٧) . ثم تشير إلى مظهر آخر من مظاهر الحياة الزوجية في الشرق قد يستغربه القراء في الغرب وهو أن الفتاة لا تفقد في الزواج اسمها الأسري (وقد بدأت بعض الدول الأوروبية تأخذ حاليا بهذا النظام لمن ترغب من النساء مثل هولندا) ثم تقارن بين ألوان أثواب النساء الشرقيات وأثواب الأوروبيات ، فالألوان المفضلة لنساء الشرق هي الألوان الزاهية البراقة التي قد لا تستسيغها الأوروبية ، وهو نفس ما حدث لها عند ما شاهدت الأوروبيات أول مرة يرتدين الملابس القاتمة الألوان حتى تقول «وقد بقيت مدة طويلة قبل أن أقنع نفسي بقبول هذا الزي الأنيق» ، (ص ٢٣٢) أي أن الذوق هنا يعود إلى مجرد التعود .

وعند ما تتكلم عن الطب والعلاج واختلاطهما بالنذور والأرواح تورد بعض القصص من ذكرياتها في زنجبار عن أثر وضع المرأة على علاجها . فالمهم تجنب أن يكشف عليها طبيب رجل ، لهذا كان اللجوء إلى وسائل أخرى كالأدعية «والأدعية آيات من القرآن الكريم يكتبها رجل من أهل الورع بماء الزعفران على صحن أبيض ثم يغسلون الكتابة بماء الورد ، فيصبح الدعاء شرابا سائغا يشربه المريض ثلاث مرات في اليوم مع وجوب الحذر الشديد من أن تنسكب قطرة من هذا العصير الغالي على الأرض فيبطل مفعوله» ، (ص ٢٣٨) .

ونقتبس القصتين الطريفتين التاليتين لنبين إلى أي حد كان أثر وضع المرأة على

علاجها . تقول المؤلفة «في حالات نادرة جدا حين يشتد المرض على مريض عزيز على الوالد ، فقد يستدعي (مطببا) للكشف على المريض ، وأقول مطببا لأن هذا الرجل قد يكون طبيبا حقا وقد يكون مجرد دجال . وأذكر في هذا المجال أن أختي خولة ظلت أمدا طويلا تعاني من ألم شديد مزمن في أذنها ، فلما اشتد عليها الألم استدعى لها أبي (حكيما) فارسيا مشهورا ، ولأني كنت صغيرة آنذاك فقد سمح لي بحضور المعاينة الطبية . وقد جاءت خولة ملفوفة من أعلاها إلى أسفلها في عباءتها السوداء لا يظهر منها شيء إلا أذنها المريضة ، وجلست على كرسي مُعَدّ لها وقد وقف أبي عن يمينها وأخي خالد عن يسارها وتحلق حولهم اخوتي الآخرون بلباسهم الرسمي وبكامل أسلحتهم . ثم أدخل الطبيب الغرفة محاطا بعدد من الخدم والخصيان في حين انتشر عدد كبير آخر منهم في أنحاء الدار ليبعدوا أية أنثى عن طريق هذا الحكيم الفارسي ، ولم يكن هذا الحكيم ليجرؤ بالطبع على توجيه الكلام إلى المريضة مباشرة ، بل كان يوجه أسئلته ويتلقى أجوبتها عن طريق أبي أو خالد .

وفي مرة ثانية ، وفي تاريخ متأخر جدا ، أُصبتُ بالتيفوئيد ، وبعد أن فشلت كل محاولات العلاج معي ، قررت عمتي عائشة أن تستدعي لي طبيبا أوروبيا . وكان أبي قد توفي في ذلك الحين وأصبحت إلى حد كبير سيدة أمري ، لذلك فلم تتكرر مراسم العيادة التي جرت لخولة . وقد كنت في الواقع فاقدة الشعور فلم أحس بما جرى ، ولكن عمتي روت لي فيما بعد قصة ما حدث . فإن الطبيب الأوروبي رغم علمه التام بالتقاليد العربية أصر على أن يجس نبضي مما اضطر عمتي التي كانت جد قلقة عليّ على الموافقة على ذلك . ومع هذا فقد كان لفيف من الخصيان يحرسون المكان ويحيطون بنا في الغرفة وكان عليّ ، كما كان على خولة ، أن أحضر إلى الطبيب ملفوفة لفا محكما بحيث لا يمكن لأحد أن يميزني . ولما طلب الطبيب المداوي أن يرى لساني نهره جوهر رئيس الخصيان على هذا الطلب السفيه ، مما اضطر تلميذ بقراط إلى الانسحاب من القصر في الحال لاهانته في كرامته المهنية» ، (ص ٢٣٨ - ٢٣٩) .

ولهذا فهي تختتم هذا الفصل بمناشدة العالم المسيحي أن يرسل إلى زنجبار طبيبا بدل البراندي والمشروبات المسكرة المحطمة للروح والمفسدة للأخلاق ، حتى تقول

«وإني لأعجب من أمر الغربيين ولا أدري لماذا يجب أن تقترن المدنية عندهم بالرذيلة» ، (ص ٢٤٤) .

وأخيرا حين تتحدث عن ذكرياتها المدرسية يبلغ تحيزها لجذورها البيئية أنها ـ وبسبب تجربتها الخاصة في أوروبا ـ ترى الجهل والعلم سواء بسواء . فهي تقول إنها تعلمت القراءة والكتابة وعد الأرقام وكتابتها من الواحد إلى المائة ، وحفظها دون كتابتها من المائة إلى الألف . أما عن التاريخ والجغرافيا والفيزياء والرياضيات فإنها لم تسمع بها إلا بعد وصولها إلى ألمانيا وبذلها جهدا مضنيا في تعلمها . ثم تتساءل قائلة «هل أصبحت الآن وبعد هذا الجهد المضني أحسن حالا أو أكثر ذكاء من رفيقاتي في ذلك الجزء من العالم (تقصد زنجبار) اللواتي لم يسمعن بهذه العلوم ؟» ثم تجيب قائلة «إن اكتساب هذه العلوم لم يحمها من التعرض لضروب الفشل والاستغلال ومن أناس يتقنون هم أيضا هذه العلوم والمعارف» ، ص ١٢٨) ، وتمضي في إبداء رأيها صراحة لتبرز الجانب السيء من العلم وأن الجهل به أفضل ، فتناشد أهلها في زنجبار قائلة «فيا أيتها النفوس الحبيبة الصافية السعيدة في بلادي الجنوبية . . إنعمي بجهلك معارف الكيمياء والفيزياء وفلسفة اليونان وتاريخ الرومان وثقافة الغرب ، فإنكم لا تستطيعون أن تتصوروا ما يرتكب هنا من أعمال الدس والدناءة باسم الثقافة السامية . وإنني لأقولها بكل صراحة وصدق بأنني لم أتعرض في كل حياتي لأسوأ ضروب الابتزاز والاستغلال وأدنى أساليب الغش والاحتيال كما تعرضت لها بعد اتقاني كنوز المعرفة الأوروبية . . ومع الأسف على أيدي أربابها وأساطينها» ، (ص ١٢٨) .

وتحاول في الفقرة التالية أن تشيع روح الفكاهة ، ربما لتقيم توازنا مع هذه الكلمات التي تقطر مرارة . فتبحث أولا عن نقطة يتلاقى فيها الشرق والغرب في نظم التعليم رغم ما بينهما من تباين ، فتعثر عليها فيما تسميه ذلك الميل الغريزي إلى إرضاء المعلمين بالهدايا . فعند ما يلح عليها أطفالها لشراء باقة أزهار لمعلمتهم الألمانية لا يسعها إلا أن تذكر أيام طفولتها في الزمن البعيد والمكان النائي «أيام لم أكن أعرف أن في الوجود شيئا اسمه ألمانيا أو أوروبا ، حيث اعتدت كما اعتاد اخوتي وأخواتي أن نقدم لمعلمتنا أنواع الهدايا من الفواكه والحلويات لكسب رضاها . ولكم

ضحيت بالشيكولاتة الفرنسية النفيسة التي يوزعها علينا أبي وآثرت بها معلمتي العزيزة» . ثم تعقب قائلة «وقد نجحت دبلوماسيتنا معها بادىء الأمر فكسبنا رضاها كما كسبنا نتيجة لم تكن متوقعة هي كثرة العطلات ، فإن كثرة أكل الشيكولاتة أتلفت أسنانها اتلافا كبيرا كان يضطرها إلى الانقطاع عن الدروس . وقد أعرضت بعدئذ عن قبول الهدايا للحفاظ على أسنانها ، وعلى انتظام الدوام في دروسنا» ، (ص ١٢٩) .

ثم تعود وتقارن بين نظم التعليم البدائية التي تعلمت بموجبها ، ونظم التعليم الأوروبية التي يتعلم طبقا لها أطفالها . ومن هذه المقارنة تنفذ إلى أسباب سوء استخدام العلم في أوروبا الذي أشارت إليه سابقا . وأول هذه الأسباب هو حشو أدمغة الطلبة بأكثر مما يستطيعون أن يستوعبوا ، واستنفاد المدرسة جل نهارهم . فإذا عادوا إلى البيت شغلتهم الواجبات المنزلية والتحضير لدروس اليوم التالي فلا يراهم أبواهم في اليوم إلا لماما ، ففقدت الحياة العائلية وفقد التأثير الأبوي المستمر والتربية البيتية ، وبفقدان هذه وتلك يتعرض أطفال النشء الجديد إلى مخاطر شتى .

سبب ثان لسوء استخدام العلم في أوروبا هو طريقة تدريس الدين ، فهي طريقة غير مجدية لأنها طريقة آلية تقتصر على حفظ كشوف لا تنتهي بالأسماء والحوادث المتعلقة بالتاريخ الكنسي . وفي رأيها أن الأفضل هو ممارسة الشعائر الدينية بالذهاب المنتظم إلى أماكن العبادة وسماع المواعظ التي تنمي فيهم روح الفضيلة والتقوى . (ص ١٣٠) .

فالدراسة المثالية في نظرها هي التي تهدف إلى تنمية العقل والروح ، لكن نظام التعليم الأوروبي يهمل الجانب الروحي لحساب الجانب العقلي ، حتى أصبحت الشهادة الجامعية التي تؤمن المظهر الاجتماعي مطمح الجميع ، وحتى أصبح العمل اليدوي في تلك البلاد غير مرغوب فيه أبدا . ثم تعلن رأيها في أن علاج الثقافة الغربية يكون في مزيد من الايمان الروحي والتفكير في قدرة الله وملكوته . كما تعلن أن مما يؤلمها أن ترى «الأوروبيين يتحاملون على الاسلام والمسلمين بشتى الأساليب ويوجهون إليهم شتى التهم دون أن يفهموا حقيقة الاسلام والمسلمين» ، (ص ١٣١) .

وبالمذكرات جوانب أخرى لعل أبرزها الجانب التاريخي التي اشتركت في بعض حوادثه مما يهم المؤرخ بصفة خاصة . ولكن هناك جانبا نحب أن نشير إليه وهو قدرة المؤلفة على رسم الشخصيات التي كانت تعرفها . ففي فصل خصصته عن أخبار إخوتها وأخواتها نجدها تقدم لنا عشر أخوات وأخوين هما هلال وثويني ، فضلا عما في المذكرات من شخصيات متناثرة تقدمها للقارىء بين الحين والحين . وهي تقدم شخصياتها عادة ببعديها الجسمي والنفسي أو كما تسميهما المؤلفة السمات والصفات ، (ص ١٨٩) . كما أن في معظم شخصياتها الجانبين الأسود والأبيض ، أي أنها لا تقف منها موقف الكراهية الخالصة أو الحب الخالص ـ نفس موقفها بين الشرق والغرب ـ بل تحاول أن تقف منها موقفا موضوعيا فجاءت شخصيات درامية وليس شخصيات مسطحة . تصف مثلا ابنة أحد الضباط العمانيين التي جاءت واستقرت مع زوجها في زنجبار فتقول «كانت قارصة اللسان حاضرة البديهة كثيرة المزاح والتنكيت ، وأفظع من هذا كله كانت على جانب كبير من القبح مخيف ، ولكنها مع هذا كانت سليمة الطوية متينة الخلق . وكان زوجها دون شك متيما بحبها ، فكان يتقبل نزواتها وأهواءها بصبر أيوب . . الخ ، (ص ٢٠٢) . كما أن بعض شخصياتها متطورة مثل شخصية نونو العمياء الشرسة التي كانت تتربص بكل طفل في البيت أصغر منها لتقلع عينيه ، ثم تغيرت بعد بلوغها العاشرة من النقيض إلى النقيض إذ أصبحت فتاة هادئة رقيقة . (ص ١٨١) .

وواضح أن مترجم الكتاب قد بذل جهدا في كل من المقدمة ـ التي نفهم منها أن الكتاب قد تمت ترجمته عام ١٩٧٤ وإن لم يتم نشره إلا بعد حوالي عشر سنوات في عام ١٩٨٣ ـ والترجمة التي جاءت في أسلوب عربي جزل رصين أحيانا وشاعري رقيق أحيانا أخرى معبرا عن الحالات النفسية للمؤلفة . ولعل نشر الترجمة أو نشر هذا المقال تدفع أحد الباحثين إلى تحقيق أمنية المترجم باستقصاء سيرة حياة المؤلفة استقصاء كاملا ، فمكتبة هامبورج ـ حيث عاشت المؤلفة أول حياتها في ألمانيا (وقد انتقلت بعد ذلك إلى درسدن ثم سافرت إلى لندن ثم عادت إلى ألمانيا لتسكن في رودول ستات وأخيرا استقرت في برلين) ـ تحتفظ بأوراق الأميرة سالمة وفيها رسائل إلى أصدقائها وأجوبة هؤلاء الأصدقاء على رسائلها . كما أنه قد يعاد نشر الأصل الألماني مع دراسة عنه في مقدمته .

علوم

ـ التراث الطبى العمانى

التراث الطبى العمانى



التراث الطبي العماني

أصدرت وزارة التراث القومي والثقافة كتابين في سلسلة كتبها التي تصدرها يدوران حول الطب في التراث العماني هما «فاكهة ابن السبيل» تأليف راشد بن عمير بن ثاني بن خلف بن هاشم (عام ١٩٨١) . وقد دون ناسخه سالم بن سعيد بن سليمان القويطعي تاريخ نسخه ، وكان ذلك منذ حوالي ثلاثة أرباع القرن (عام ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م) ولكن المحقق لم يذكر شيئا في المقدمة عن تاريخ المؤلف ولا عن تاريخ تأليف الكتاب . وهو نفس ما حدث مع الكتاب الآخر «الأزرق» المنقول عن كتاب «تسهيل المنافع» لمؤلفه ابراهيم بن عبدالرحمن بن أبي بكر الأزرق الذي ذكر ناسخه أنه نسخه عام ١٢١٨ هـ (أي في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حوالي عام ١٨٠٤ م) ، بينما لم يذكر لنا المحقق شيئا عن تاريخ المؤلف أو تاريخ تأليف الكتاب ، ولا ذكر لنا سببا لاغفال ذلك كأن يكون عدم توافر المراجع بين يديه ، فضلا عن أنه نسب تأليف الكتاب خطأ إلى ناسخه ثم استدركت مشكورة وزارة التراث القومي والثقافة هذا اللبس في ورقة منفصلة أرفقتها بالكتاب لتنبه إلى مؤلفه الصحيح . ورجاؤنا من وزارة التراث القومي والثقافة أن تشير على محققي كتب التراث التي تقوم بنشرها بضرورة ذكر تاريخ المؤلف وتاريخ تأليفه الكتاب كلما أمكن ذلك ، فإن هذا من شأنه أن يساعد على تقييم الكتاب وبيان المرحلة التاريخية التي تم تأليفه فيهاوالظروف الثقافية التي أحاطت به وما تأثر به مما سبقه وما أثر فيه مما جاء بعده .

والكتاب الثاني الذي نشرته وزارة التراث القومي والثقافة عام ١٩٨٢ «الأزرق» أقدم ـ في نسخته المحققة على الأقل ـ من كتاب «فاكهة ابن السبيل» .
وعلى كل فقارىء هذين الكتابين يمكن أن تتكون لديه فكرة عن التراث الطبي العماني فيما قبل انتشار وسائل العلاج الطبي الحديث . وكل من يقرأ هذين الكتابين ـ وأمثالهما من كتب الطب في التراث العربي وفي مقدمتها الجزء المخصص للطب من كتاب الشفاء لابن سينا ـ يدرك مدى تقدم العلم من ناحية ، كما يدرك أن هذا التقدم لم يأت من فراغ من ناحية أخرى ، بل هو نتيجة تطور دؤوب صبور للبشرية أخذ فيه العرب عن غيرهم كما أسهموا فيه بدورهم فأخذ عنهم غيرهم .

وقد آمن المشتغلون بالطب العربي أن العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، أو علم للدين وعلم للدنيا كما جاء في الحديث (الأزرق ، ص ٩ ، ١٠) .

ويمكننا أن نأخذ فكرة عن مراجع الطب العربي مما أورده كتاب الأزرق في مقدمته من قائمة كانت بمثابة مراجعه في تأليفه كتابه مثل كتاب «شفاء الأجسام» لشيخنا وقدوتنا العلامة جمال الدين محمد بن أبي الغيث الكراني ، وكتاب «الرحمة» للحكيم المقري مهدي الصنيري ، و«اللفظ» لابن الجوزي و «برء ساعة» للرازي ، و «المنصور في الطب» لمحمد بن زكريا الرازي ، و «الدرة المنتخبة في الأدوية المجربة» للقاضي الفاري ، و«الأسباب والعلامات في الطب» للنجيب السرقندي ، و «والجامع في الطب من الأدوية المنفردة» لأحمد الفائقي ، و «شفاء الأسقام وحياة الأجسام» مختصرا مفردات ابن البيطار .

فإذا ألقينا نظرة على فهرست الأبواب التي اشتمل عليها كل من الكتابين نجد أن كلا منهما حاول أن يحيط بموضوعه أعم احاطة وأشملها ، بمعنى أننا نجد في الكتابين تمهيدا لما يعرف اليوم بعلم التشريح ، ثم نجد كتاب فاكهة ابن السبيل يخصص بابا لما عرف عند العرب باسم الفراسة ، ويفرد فصلا للقوانين التي يجب على الطبيب أن يستعملها عند الكشف على المريض . بينما يتحدث كتاب الأزرق عن غذاء المريض وغذاء الذي يتماثل للشفاء ، وكيف ينبغي للناقه تخفيف الغذاء وأكل المزوزات ثم يتدرج إلى ما غلظ ، ويشيد كل من الكتابين بفائدة الرياضة ، كما

يذكران طبائع الأغذية والأدوية ومنافعها مما يدخل فيما يعرف اليوم بالصيدلة ، ومعظمها في ذلك الوقت مستمد من الطبيعة سواء أكان نباتا أو معدنا ، ثم يتناول كل من الكتابين ما يعرف اليوم بالطب الوقائي فالطب العلاجي .

أعضـــاء الجســـم :

ففي كتاب فاكهة ابن السبيل نجد أن الباب الأول عنوانه «في ذكر خلق آدم وعجائب تركيبه» ، يبدأ فيه بذكر تكوُّن الجنين فولادة الطفل . «وإذا ولد الطفل لم يحصل النوم ولا اليقظة ، وإذا تحصلا منه ضحك بعد أربعين يوما» (فاكهة ابن السبيل ، ص ١٣) ، فالرضاعة فالفطام فظهور الأسنان . . الخ ، «ويقال ابنك ابن سبع سنين ريحانتك وتسع سنين خادمك ، وأربع عشرة سنة إما أن يكون شريكك أو عدوك» (المرجع السابق ، ص ١٥) .

ثم يصف الدماغ من الوجهة التشريحية طبقا لما وصل إليه الطب في زمانه . وهو يعلن أنها ابتداء الحس والحركة الارادية ، وهو يعمل تارة بنفسه وتارة بآلة ، فالذي يفعله بنفسه ثلاثة أشياء : التخيل والتفكير والتذكر ، أما الذي يفعله بآلة فهو الاحساس والحركة وآلته في ذلك العصب (الاحساس) والعضل (للحركة) . ثم يحاول أن يحدد لكل وظيفة من وظائف الدماغ مكانا فيه ؛ فالتخيل في مقدمته ، والتفكير في وسطه ، والتذكر في مؤخرته . وقد أعلن علم التشريح الحديث أماكن لكل وظيفة من وظائف المخ بطريقة أكثر دقة بفضل تقدم الاختراعات الطبية .

ثم يذكر الحواس الخمس ويرتبها ترتيبا تنازليا ـ كما جرت العادة في زمانه في ترتيب الموجودات والمخلوقات من أشرفها إلى أدناها ـ فحاسة البصر ألطف الحواس وبعدها في اللطافة السمع ، وبعدها حاسة الشم ، فحاسة الذوق ، وأغلظه حاسة اللمس . ويمكن تفسير هذا الترتيب بأن حاسة البصر أكبر هذه الحواس مجالا خارج الانسان وداخله ، حتى قيل إن الانسان حيوان بصري بمعنى أن معظم إدراكه يأتيه عن طريق البصر أولا وأنه يمكن أن يرى على بعد ملايين الأميال إذا كان المصدر شديد الضوء كالشمس أو كان مضيئا ولم تخفه أضواء أشد كالقمر والنجوم ليلا ،

ومن ناحية أخرى فإن ما يصل للانسان عن طريق بصره أكثر أثرا فيه عقليا ووجدانيا وأكثر دواما عما يصل إليه من أية حاسة أخرى حتى لتصبح معظم ذكرياتنا وتخيلاتنا بصرية . تلي ذلك حاسة السمع سواء من ناحية مدى مجالها الخارجي أو تأثيرها الوجداني ودوام هذا التأثير . ومن هنا كانت معظم الفنون إما بصرية أو سمعية أو بصرية سمعية معا كالمسرح والسينما والتليفزيون . . حتى إذا وصلنا إلى حاستي الذوق واللمس نجد أنهما تكادان تكونان حسيتين خالصتين ، وتأثيرهما قاصر على لحظة عملهما لا يمتد إلى أبعد أو ما بعد ذلك .

والحكمة من وجود عينين هو أنه متى عرضت لاحداهما آفة قامت الأخرى بالبصر . والأهداب خلقت للوقاية مما يطير إلى العين أو ينحدر من الراس ، ولتعديل الضوء بسوادهما .

أما الأذن فإن الحكمة من اعوجاج ما يسميه صدفها هو استقبال كل الأصوات والعمل على طنينها ، ووجود ثقب ملولب معوج ليكون تعويجه مطولا لمسافة الهواء الداخل حتى لا يتأثر الداخل بالحر والبرد بل يأتيان إليه متدرجين . والأذن غضروفية لتتحمل الصدمات .

أما الأنف ففائدة شكله استنشاق الهواء والعمل على تعديله قبل النفاذ إلى الدماغ ، كما أن للأنف مهمة صوتية إذ يعين على تقطيع الحروف وتسهيل اخراجها في التقطيع ولا يزدحم الهواء عند الموضع الذي يحاول فيه تقطيع الحروف بمقدار . أما فائدة الحاجز الأوسط بالأنف فهو أنه إذا نزلت فضلة مالت إلى إحداهما ولم تسد جميع الطرق .

أما اللسان فهو عضو ضروري في اتصال الغذاء إلى الجوف الأسفل ، ويشارك في اتصال الهواء إلى الجوف الأعلى (لعله الصدر أو الدماغ كما كان يظن) . وهو نافع في قذف الفضلات المجتمعة في فم المعدة إلى الخارج إذا تعذر دفعها إلى أسفل . كما يصفه بأنه الوعاء الكلي لأعضاء الكلام في الانسان والتصريف في سائر الحيوان المصوت أي الذي يخرج أصواتا . كذلك فإن اللسان آلة تقليب الممضوغ ، وإليه تمييز الذوق .

أما الشفتان فهما غطاء للفم والأسنان ، ومحبس للغات ، ومعين على الكلام وجماله وهما من لحم وعصب .

واللهاة جوهر لحمي معلق في أعلى الحنجرة كالحجاب ، ومنفعته تدريج الهواء ومنع الدخان والغبار .

ثم يصف الأسنان وعددها ، وأن لها حسا بسبب ما فيها من عصب ، فإذا تألمت أحس الانسان بما يعرض فيها من ضربان واختلاج . . ويظل يذكر أعضاء الجسم على هذا النحو عضوا عضوا ، مما يتكون وهيئة تكوينه وفائدته . ثم يخصص فصلا للعضل والعصب والأربطة ، حتى يقول إن بالانسان نوعين من القوة الطبيعية : نوع غايته حفظ الشخص وتدبيره وهو المتصرف في أمر الغذاء (غريزة حفظ الذات) ومصدر أفعالها الكبت ، ونوع غايته حفظ النوع وهو المتصرف في حفظ التناسل (غريزة حفظ النوع) ومصدر أفعالها القلب . مما يذكرنا بفرويد في النصف الأول من هذا القرن وحديثه عن التعارض بين هاتين الغريزتين .

الفراســـــة :

يخصص مؤلف فاكهة ابن السبيل بابا فيما عرف عند العرب باسم الفراسة ، وهو الاستدلال على شخصية الانسان من هيئة بعض أعضائه ، وهو ما تطور فيما بعد على يدي العالم الايطالي لامبروزو الذي وضع بعض المقاييس لجماجم المجرمين بوجه خاص . وفي هذا الفصل تختلط الخبرة الانسانية القائمة على الملاحظة الصحيحة بكثير من الأحكام التي لا نرى اليوم أنها تقوم على أساس ما مثل قوله الشعر اللين دليل على الجبن والخشن على الشجاعة ، وكثرة الشعر على الكتفين والعنق يدل على الحمق والجرأة ، وعلى الصدر والبطن يدل على قلة الفطنة . والحاجب الكثير الشعر صاحبه كثير الهم والحزن . . الخ .

وقد نما علم الفراسة في مجتمع كان محتاجا إليه عند شراء المماليك والجواري أو خطبة النساء والزواج بهن . والاستدلال على شخصية الانسان من أعضائه مرتبة في هذا الباب ابتداء من الرأس فالرقبة فالعين فالشعر (على الرأس والجسم كله)

فالأسنان فالبدانة والنحافة . . الخ فمثلا عند ما يتعرض لموضوع السمنة والهزال يقول إن الأبدان المعتدلة أحسن الأبدان حالا وأدومها صحة وأصبرها على الأعمال وأبعدها عن الأمراض . أما الأبدان السمينة فرديئة جدا لأنها مستعدة لحدوث الأمراض ، لذلك فإنها أقل أعمارا ، وهم معرضون للسكتة والفالج وعسر النفس . ومن أفرطت سمنته وكان ممراضا فهو على خطر . أما الأبدان النحيفة فهي لا تقدر على الرياضة والأعمال كثيرا ، ولا يقدر أصحابها على الحر والبرد لأنهما يصلان إلى أعضائهم بسرعة .

وعند الكلام عن تخير المماليك قبل الشراء يلاحظ ملاحظة ذكية إذ يقول : واعلم أنه ما من شيء إلا فيه مضرة . فإن الخادم الذكي الفطن الذي يريحك من كد الافهام ، ويقنعه منك الاشارة في تبليغ الأغراض ، لا يقدر أن يستر عنه شيء من أمرك فسرك معه شائع ، وهو قادر بفطنته على الاحتيال عليك في كل ما تريده . وإن كان الخادم غبيا وقفت أمورك وانكسرت أغراضك ولا بقي كتمان سرك . . فينبغي أن تستخدم الفطناء في الأمور الخارجة عن المنزل ، وتستخدم البلداء في الأمور الداخلة . ثم يطالب بتعميم هذا المبدأ على الأصدقاء ومن تتعامل معهم (المرجع السابق ، ص ٤٦) .

أما أوصاف المرأة المحبوبة فهي أوصاف كلها حسية ، ويلاحظ أنها قائمة على نظام عددي ، مثال ذلك أن الذي يحمد في وجهها من السواد أربعة أشياء : شعر رأسها وأهداب عينيها وشعر حاجبيها وسواد عينيها . ومن البياض أربعة . . والحمرة أربعة . . والطول أربعة : طول العنق والقامة والحاجب وشعر الرأس . . الخ .

ثم يتكلم عن الفصول الأربعة وما يؤكل في كل منها ، والأمراض التي تنتشر في كل فصل عن غيره ، كأن تكون في الربيع أكثر الأمراض وأقتلها .

القوانين التي يجب على الطبيب أن يتبعها عند الكشف على المريض :

ثم يفرد كتاب فاكهة ابن السبيل فصلا للقوانين التي يجب على الطبيب اتباعها عند الكشف على مريضه فيقول إن على الطبيب أن يعرف أربعة أشياء منها سبب

المرض (التشخيص) ويلاحظ مزاج المريض وسحنة بدنه أي مظهره العام ، وعمره ، ثم يضع في اعتباره الوقت الحاضر من آفات السنة (أمراض الموسم) ، والبلد (ربما يقصد الأمراض المستوطنة) ، والعادة (عادات البلد أو عادات الشخص) ، والصنعة ، فكل ذلك يساعد على تحديد العلاج .

ومتى اجتمع مرضان في العين (على سبيل المثال) مرض حاد وآخر مزمن ، فابتدىء بالحاد حتى ينصرف ، ولا تغفل عن المزمن فيقوى ، ثم تعود إلى علاج المرض المزمن (ص ١١٠) .

ثم يلتفت التفاتة جميلة إلى وجوب مراعاة الطبيب للناحية النفسية لمريضه ـ وهو مبدأ ما يزال معمولا به إلى اليوم وكل يوم ـ إذ يجب على الطبيب أن يقوي قلب العليل ويمنيه ويبشره بالسلامة ويقرب عليه العافية وينيله من الغذاء ما هو موافق له إن شاء الله .

الطـب الوقـائي :

ويظن الكثيرون أن المؤلفات التي تتصل بالطب الوقائي سواء على مستوى الجماعات كالوقاية من الأوبئة والأمراض المعدية عن طريق النظافة ومنع تلوث البيئة ومراقبة الأغذية والمأكولات والتطعيم والتحصين . . الخ أو على مستوى اللياقة البدنية كتلك التي تتحدث عن تنظيم الغذاء (الرجيم) أو عن عمل تمارين رياضية معينة . . يظن الكثيرون أن مثل هذه المؤلفات لم تعرفها البشرية إلا حديثا ، والواقع أن البشر اهتموا بها منذ أصبح الطب على مستوى يمكنه أن يتصدى لمثل هذه الموضوعات . وها هو ابن الأزرق يعلن أن الطب ينقسم إلى قسمين أحدهما حفظ صحة موجودة (الطب الوقائي) ، والثاني رد صحة مفقودة (طب علاجي) . ويفرد أحد قسمي كتابه لحفظ الصحة الموجودة . ويعلن أنه لتحقيق ذلك لا بد من مراعاة أشياء ضرورية يستعمل الانسان القدر الأصلح من كل واحد منها . من هذه الأشياء الأكل والشرب ، والحركة والسكون ، والنوم واليقظة ، والعوارض النفسانية ، وما يسميه تدبير البدن الصحيح .

تــــدبير الأكــــل :

أما أولى القواعد في تدبير الأكل فهو ما شهدت به الآية الكريمة ﴿**كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ ، أي الأكل دون الشبع وألا يملأ الانسان بطنه البتة . وقال النبي ﷺ : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فإن كان لا محالة ، فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس» (الأزرق ، جـ ١ ، ص ١٥٠) . وقال ثابت بن قرة : راحة الجسم في قلة الطعام وراحة الروح في قلة الآثام وراحة القلب في قلة الاهتمام ، وراحة اللسان في قلة الكلام .

وثاني هذه القواعد أن للأكل أوقاتا فلا ينبغي إدخال طعام على طعام قبله لم ينهضم ، كما ينبغي ألا يؤخر الغذاء عن وقت الحاجة .

كذلك للأكل كيفية «وليجود مضغه حتى يسهل على المعدة هضمه ، وليأكله جالسا ، ويبدأ باسم الله ويختم بالحمد لله ، فهذا هو الحال الأصلح» (المرجع السابق ص ١٥٠) .

أما ثالث هذه القواعد فهو اجتناب الأكل والشراب الضار مثل الطعام النيىء أو الماء الذي تستعفيه الناس . كما ينبغي ألا يأكل الانسان شيئا صلبا ولا شديد اللزوجة تعجز الأسنان عن قطعه لأنه يصعب على المعدة هضمه . كما ينبغي تجنب الفواكه العفنة ، والادام المقيم في آنية نحاس ، ولا تأكل لحما حتى ينضج .

وقد نبه الأقدمون إلى علاقة الرياضة بالطعام ، قال بعضهم : إذا تحركت الشهوة للطعام فبادر إلى إتعاب البدن بصراع أو مشي عنيف أو ركوب أو رفع أثقال وما أشبه . ومنافع الرياضة تنشيط البدن وتقويته ، وهي تشد المفاصل وتذيب الفضول والبلاغم . أما الحركة بعد الطعام فرديئة ، ويعلل ذلك بقوله : أنها تنزل الطعام إلى غير هضم فيورث أسقاما (المرجع السابق ص ١٥٤) .

تدبير الشراب :

وكما يجب الاعتدال في الطعام كذلك يجب الاعتدال في الشراب . قال

المقري : إعلم أن الأصلح في الشراب ما يشربه الانسان ويكون دون الري . فانظر قدر ما يرويك ، فاشرب نصفه فذلك أصلح لبدنك وأقوى لمعدتك وأهضم لطعامك . والعطش يجفف الجسم ويظلم البصر .

وينبغي أن تشرب ماء عذبا باردا ، ولكن بحيث لا يكون شديد البرودة فإن ذلك يؤذي الانسان . ويكون من بئر كثيرة الماء (حتى لا يكون الماء آسنا) ويكون لا ريح فيه ولا طعم .

وأن يشرب في إناء من طين (لأنه يكون مساميا يرشح الماء على جوانبه فيتبخر فيبرد الماء في جوف الاناء) وهذا هو الشراب الهنيء المريء الصالح . وقال بعض الحكماء : الشرب في إناء نحاس رديء لا هنيء ولا مريء .

ويحذر من الماء الحار إلا لقدر أو ضرورة ، وكذا الماء المالح والكدر والنتن . ولا يشرب في إناء لا يبصر فيه الماء فإنه لا يعرف أحد ما يندفع إليه من باطنه ، ولكن يسكب الماء منه إلى إناء الشرب وينظره ثم يشربه . ويعلق المؤلف على كلام المقري قائلا : هذا إذا كان الشرب بالنهار أو في ضوء ، ولكن ما الحيلة في الشرب بالليل أو في ظلمة ؟ (المرجع السابق ، ص ١٦٠) .

وللشرب أوقات ، فلا ينبغي شرب الماء حتى ينحدر الطعام عن البطن الأعلى ، ولا يشرب في أثناء تناول الطعام ولا عقبه ، فإنه يمنع الطعام أن ينهضم . والكاتب يؤمن بأن الطعام والشراب عادات يمكن تكوينها ، ولهذا فإنه ينصح بأن يحبس الانسان نفسه عن شرب الماء على الطعام حتى يصير عادة . ولا ينبغي للعطشان أن يشرب الماء الكثير فإنه يهلكه .

أما آداب الشرب والشراب فمنها النهي عن النفخ في الطعام والشراب ، وعن الشرب من فم القربة لأنه ينتنه . كما يجب تغطية الاناء ، فمما يروى أن الشيطان لا يكشف إناء .

في تدبير الحركة :

والرياضة ضرورية للجسم لأنها تصلب أعضاء البدن وتقويها وتنشر الحرارة

وتفتح المجاري فيسهل دفع الفضلات على الطبيعة . فإذا لم يتحرك الانسان حركة في وقت مخصص اجتمع من ذلك ضرر عظيم ، فينبغي أن يتحرك حركة معتدلة يسخن منها جسمه وتنهضم تلك الفضلة .

والأصلح في الحركة أن تكون وقت خلو المعدة من الطعام وتسمى الرياضة ، ولا خير في الحركة عقب الأكل وخصوصا مع الشبع ، فربما أدى ذلك إلى علة عظيمة .

ومعنى ذلك أن هؤلاء القدماء تنبهوا إلى أهمية الرياضة وإلى أن لها أوقاتا مفضلة . ومن أنواع هذه الرياضة التي نصوا عليها ركوب الخيل وقد عرفه ابن الأزرق بأنه رياضة للبدن كله ، وكذلك المسابقة به (ما نسميه اليوم سباق الخيل) . ومنها ركوب السفن وهو قالع لأكثر الأمراض المزمنة ، ويعلل ذلك بما يقع للانسان من فرح وفزع وتقوية المعدة والهضم ، وحتى لو هاج عليه بسبب ذلك غثيان وقيء فلا ينبغي منع هذه الرياضة لأنها نافعة جدا ، وإن كثر ـ أي الغثيان والقيء ـ يوما أو يومين فيجب علاجه لمنعه .

أما اللعب بالصولجان فهو رياضة للبدن والنفس ، وذلك بسبب ما يحدث لك من الفرح حين تنتصر ، والغضب حين تنهزم ، مثله مثل كثير من الألعاب الرياضية اليوم وفي مقدمتها كرة القدم .

وفي الصلاة نوع رياضة . قال في كتاب البركة : والصلاة شفاء ، وهي تبرىء ألم الفؤاد والمعدة والأمعاء وكثير من الآلام ، وكثرة الصلاة والتهجد تحفظ الجسم لأنها تشتمل على انتصاب وركوع وسجود وغير ذلك ، فتتحرك معها أكثر الأعضاء لا سيما المعدة والأمعاء (الأزرق ، ص ١٦٥) .

وللرياضة قدر معلوم ، وهو ريثما تحمر البشرة ويبدو أول العرق ثم ينقطع ، ولا خير في الحركة العنيفة التي تؤدي إلى التعب والملل . فمتى بدأ التعب والسأم ينبغي للانسان أن يستريح في الحال . كما لا يجوز الرياضة على الوجع . أما السكون المفرط فهو يولد في البدن فضلات رديئة .

في تدبير النوم :

قال المقري : النوم رجوع الحواس عن الحركة ، وسكون النفس الحاسة . ويشرح النفس الحاسة بأنها تلك التي يكون بها العقل والتمييز والتصرف . أما النفس التي تفارق الانسان عند الموت فيسميها «نفس الحياة» . ويورد تفرقة أخرى فيقول : إن للانسان نفسا وروحا ، فعند النوم تخرج النفس وتبقى الروح . ويروى عن ابن عباس أن في ابن آدم نفسا وروحا ، العلاقة بينهما مثل العلاقة بين الشمس وشعاعها . النفس بها العقل والتمييز ، والروح بها الحياة . وكلاهما يتوفيان عند الموت ، ويتوفى الأنفس وحدها عند النوم (المرجع السابق ، ص ١٦٨) .

وينبه المؤلف إلى أن من قل نومه ينبغي أن يتداوى بالأشياء التي تجلب النوم ، لأن كثرة السهر تجلب الجنون وتضعف البدن وتضر الدماغ . ويقترح لذلك أكثر من علاج منها وضع الأقدام في الماء الدافىء قبل النوم . أما كثرة النوم فعلاجها تخفيف الأكل والشرب (المرجع السابق ، ص ٢٣٧) .

وتفسير رؤيتنا أشخاصا آخرين في الأحلام أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله ، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها ، والله أعلم . (المرجع السابق ، ص ١٦٩) .

كذلك للنوم أوقاته . وينقل الأزرق عن كتاب اللفظ لابن الجوزي قوله : إن كان الزمان صيفا فالقيلولة مستحبة . وتعليل ذلك أن القيلولة لا تستحب في الشتاء لأن ليلها طويل ونهارها قصير - ولم تكن وسائل الاضاءة وقتئذ تساعد على السهر الكثير- ففي ليل الشتاء من الطول واستيفاء النوم ما يغني عن القيلولة بخلاف الصيف . وكذلك فإن النوم بعد الغداء مستحب . أما من يتعشى فيجب أن يمشي بعد العشاء خطوات ، وهذا ينطبق على المثل الشعبي القائل تغدى وتمدى (أي تمدد ونم) ، وتعشى وتمشى .

أما فوائد النوم فهي استرخاء الأعضاء مما يلاقي الجسم من التعب عند

الحركات في اليقظة ، وراحة النفس مما تلاقي من النكال على الهموم ونحو ذلك ، أي أن في النوم راحة عظيمة للبدن والنفس .

وأخيرا يطالبنا ابن أبي بكر الأزرق ألا نهمل الجوانب الروحية فلا ننام إلا على اسم الله تعالى وذكره ، ولا نستيقظ إلا على ذلك .

في العوارض النفسية :

ولم يغفل التراث الطبي العماني الجانب النفسي بل تنبه له . ويظن الكثيرون ـ وكنت أنا واحدا منهم ـ أن الطب القديم لم ينظر إلى المريض إلا باعتباره جسدا ، وأنه لم يعالج منه إلا عضوه المريض منفصلا عن بقية أعضاء جسمه فضلا عن نفسه ، ولكن ها نحن نرى ابن الأزرق يخصص بابا في كتابه تسهيل المنافع بعنوان «في العوارض النفسية» ، ويعلن في أوله على لسان مرجعه الرئيسي ابن المقري في كتابه «الرحمة» أن الهم والغم آفة القلب ، وراحته الفرح والسرور . وأن الغم قد يشتد حتى يموت بعض الناس عند ذلك . قال علي رضي الله عنه : أقوى خلق (بتسكين اللام) ربي ابن آدم ، وأقوى منه السكر (بتسكين الكاف) الذي يزيل العقل ، وأقوى من السكر النوم ، وأقوى من النوم الهم ، فالهم أقوى خلق ربي الله (المرجع السابق ص ١٧٧) . ويورد تفرقة بقراط بين الهم والغم ، فالهم يشبه الخوف مما يكون ، والغم يشبه الحزن على ما انقضى .

والفرح المفرط ـ كالغم ـ قد يقتل لشدته . فالمطلوب الاعتدال وعدم الافراط .

ومن العوارض النفسانية شدة الغيظ والغضب . وقد أورد لذلك دواء نفسيا عظيما (فعلاج العارض النفسي بدواء نفسي من جنسه) ، فقد جاء في الحديث أن من اشتد غيظه «فليغتسل بالماء ، ويسبغ الوضوء ، ويصلي ركعتين ثم يقول : اللهم اغفر لي ذنبي ، واذهب غيظ قلبي وأعذني من الشيطان الرجيم . فيهون غضبه وغيظه ويسكن» (ص ١٧٨) . وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل : «يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك مع من أمحق»

(ص ١٨٠) . والغلط أوله غضب وآخره غم ، والغضب هو غليان دم القلب فتتحرك الحرارة الغريزية وتخرج طلبا للانتقام من المؤذي ، وهو يسحب الدم ويخففه ويقويه . . الخ وما أشبه هذا التعليل بما يقوله الطب الحديث إن الانفعال يسبب إفراز الأدرينالين في الدم لتوليد طاقة تحترق عند مواجهة الموقف هجوما أو هربا ، ولكن الحضارة الحديثة تطالب الانسان بضبط أعصابه فلا يتحرك هجوما ولا هربا ، وبالتالي لا يحرق الطاقة التي أعدها الجسم لذلك ، فيترسب الأدرينالين على جدران الشرايين على هيئة كولسترول يسبب تصلبها وبالتالي أمراض الشيخوخة المبكرة .

ومن العوارض النفسانية الحزن على فائت . فينبغي للانسان ألا يكثر من الأسف فإن الدنيا بأسرها فانية ، وليدرك أنه لو أصيب بمصيبة أعظم منها لكان أعظم حزنا ، مثل أن يقع الحزن على فائت من المال فيقولون لو وقع هذا في الولد لكان أعظم مصيبة . . ونحو ذلك مما يهون عليه الحزن فيهون . وأذكر في هذا المجال أن أحد أقربائي توفي فجأة في ليلة كان يستعد فيها لسفر طويل ، فرأيت الناس يهونون على أرملته وقع الحادث بقولهم إنه من رحمة الله أن زوجها مات بين أهله ولم يمت وهو على سفر في غربة . قال بعض الأدباء :

لا تلق دهرك إلا غير مكترث   ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به   ولا يرد عليك الفائت الحزن

ويضيف المارديني إلى العوارض النفسية في كتابة «الرسالة» الفزع والسهو والحسد . فهذه كلها تغير الأبدان ، وتخرجها عن الحالة الطبيعية وخاصة لمن كان مزاجه حارا فإن هذه تحدث منها حميات دقيقة وأمراض رديئة . فعلى الانسان أن يهيىء نفسه بالسرور والانبساط ، فهذا من شأنه أن يقوي الحرارة الغريزية وينشرها في الجسم .

والفكر من العوارض النفسية ، والمقصود بالفكر الطموح المفرط ، فيفكر الانسان في الأشياء الغامضة البعيدة ، ونيل المرادات المتناهية ، فإن لم يقدر على بلوغها تجدد له الغم والهم . فينبغي للانسان أن يصرف نفسه عن الفكر فيما لا يقدر عليه .

والكآبة كذلك من العوارض النفسية . والكآبة سوء الحال والانكسار من الحزن .

وعلاج ذلك كله أن يلهم الانسان نفسه الفرح بقدر أي دون افراط ، وكذلك السرور واللذة . فكم أنهك الغم جسما فلما سُرَّ عوفي ، فالسرور المعتدل يقوم النفس ويخصب الجسم .

في تدبير أعضاء البدن الصحيح :

أما مصدر العناية بالجسم أنه لا يظل على حالة واحدة ، ولكنه بطبيعة الحياة له أوضاع وحالات يحتاج معا إلى تدبيرها وتعهدها . فالبدن ككل مثلا يتسخ بسبب عوامل المناخ فلا بد إذن من الاستحمام والاغتسال ولو مرة واحدة في الأسبوع على الأقل ، وليكن الماء في الشتاء حارا معتدل الحرارة أي فاترا ، وفي الصيف باردا . الأزرق يتنبه وينبه إلى أثر الاستحمام على الحالة النفسية للانسان فيقول : وإن وقع الانسان في ضيق نفسي شديدة ، وعرق من شغل ، فليغتسل من ذلك مرة كل يوم فهو سنة تذهب الهم والحزن .

كذلك يكون حفظ البدن جملة باتقاء الحر الشديد والبرد الشديد ، واختيار الهواء الصالح والغذاء الجيد وتناول الموافق له ، وإخراج الفضلات ، والرياضة المعتدلة الحركة ، والنوم والسهر المعتدل .

ولا يجب إطالة الجلوس في الشمس لأن ذلك يسبب المرض . ولكن الأمر مختلف في الشتاء .

ثم يتناول العناية بأعضاء الجسم ابتداء من الرأس ، فيبدأ بالعينين اللتين تتضرران بأشياء وتنتفعان بأشياء . وقد نبّه في ذلك الزمن إلى ما نسميه اليوم تلوث البيئة وأثرها على صحة الجسم . فالعين تتضرر بالغبار والدخان كما تتضرر بالجو الخارج عن الاعتدال حرارة وبرودة ، «والرياح المعجة السمومية والباردة تضر بها» (ص ١٨٢) .

كذلك يضر العين التحديق إلى الشيء الواحد ، والنظر إلى الدقيق من الأشياء يجفف بإفراط كالملح والمالح ، والنظر إلى المضيئات مثل عين الشمس وإلى كل ضوء قاهر للعين من نور ونار وما أشبههما .

أما ما ينفع العين فهو النظر إلى الخضرة والوجه الحسن . ويستشهد بقولهم أربعة يفرح بها القلب : النظر إلى الخضرة والنبات ، وإلى زرقة السماء الصافية ، والقعود إلى طرف ماء جار ، وإلى المحبوب (ص ٢٠٢) .

كذلك مما يجلو العين الغوص في الماء الصافي وفتح العين داخله . وهو علاج ما نزال نلجأ إليه اليوم عند ما تدخل إحدى الشوائب العين ، إذ يمكن إخراجها بالتحديق في فنجان مليء بالماء النقي . وقال المارديني في «الرسالة» إنه يجدر البكاء لحفظ صحة العين ، وهو ما يتفق مع الطب الحديث حول فائدة الدموع .

أما تدبير حفظ صحة الأذن فيكون بتعهدها بالتنقية من الوسخ ، وتوقي الحر والبرد والماء . والأصوات الشديدة تصم السمع بسبب عنف الحركة الهوائية التي تخرق الصماخ .

وتدبير الأسنان يكون بتعهدها بالسواك عند الانتباه من النوم ، وعند طهور الصلوات الخمس ، وعند تغيير الفم برائحة كريهة ، فكل ذلك سنة (ص ١٨٤) . كما يستحب ذلك أيضا عند اصفرار الأسنان وإن لم يتغير الفم . والأصل فيه ما روي عن العباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ لعله قال : «استاكوا ، لا تدخلوا عليّ قلحا» ، والقلح جمع أقلح وهو من كانت أسنانه صفراء . والمعروف أن صفرة الأسنان دليل على وجود طبقة جيرية عليها تسبب تآكلها وتعرية جذورها .

ويجب أن يستعمل السواك باعتدال ، لأن المغالاة في استعماله تجعله يذهب بطلاوة الأسنان وصفائها ، ويتهيأ بذلك لقبول الأوساخ والأبخرة المتصاعدة من المعدة . أما استعماله باعتدال فيجلو الأسنان ويقويها ويثبت اللثة ، ويطلق اللسان ويصفي الكلام ويمنع الحفر ويطيب النكهة ويشهي الطعام ويصح المعدة ويوافق السنة . ويعد ذلك يغسل الفم بالماء البارد صيفا وبالحار شتاء .

كذلك هناك التخلل بعد الفراغ من الطعام وبعد السواك ، والخلال يراد لاستخراج ما بين الأسنان من الغذاء لأنه إذا بقيت فضلات الطعام هناك تعفنت فتصاب الأسنان واللثة . قال أبو أيوب ، قال رسول الله ﷺ : «يا حبذا المتخللون من أثر الطعام ، إنه ليس شيء أشد على الملكين من بقية تبقى في الفم من أثر الطعام» . (ص ١٨٦) . وأضر ما يستعمل الخلال للعادة لا للحاجة ، أي أن يكون مجرد عادة حتى ولو لم تكن هناك حاجة لاستعماله . أما المضمضة بعد الطعام فسنة (ص ١٨٧) .

ويضيف مؤلف كتاب فاكهة ابن السبيل أنه لحفظ صحة الأسنان يجب اجتناب كسر الصلب واجتناب كل شديد البرد وخصوصا على الحار ، وشديد الحرارة على البارد (فاكهة ابن السبيل ، جـ ١ ، ص ٩١) .

كذلك يتحدث عن طريقة حفظ صحة الصوت وتحسينه بالزيت والتين والحلبة والتمر واللوز خصوصا المر وقصب السكر وشراب العسل كله يحفظه ويحسنه والله أعلم . (المرجع السابق ، ص ٩٢) . مع اجتناب الصياح القوي .

كذلك يجب غسل اليدين قبل الطعام وبعده خصوصا من الدسم .

ومن النظافة غسل الثياب ، كما أن له أثره النفسي . قال ﷺ : «الثوب النظيف ينفي الهم» (الأزرق ، ص ١٨٧) .

كذلك من تدبير صحة البدن تدبير صحة الأظافر بقصها حتى لا يجتمع الوسخ تحتها في اليدين والرجلين ، وكذلك تسريح شعر الرأس وتمشيط اللحية ، كما يستحب قص الشارب بحيث تبين الشفتين بيانا ظاهرا ، وحلق شعر الرأس ، ويكره كراهية شديدة تأخرها أربعين يوما ، وكذلك قص ما طال من شعر الأنف والابط . . وأقل ما يكون ذلك مرتين في الشهر .

ومنها تدبير المعدة بما يحفظ عليها صحتها ويعينها على الهضم . فمن أراد أن يصح جسمه ، ويمرئه أكله وغذاؤه ، فليصغر لقمه ، ويجيد مضغه ويدقق بلعه .

ومنها تدبير إخراج الفضلات ، فالحذر كل الحذر من إمساكها ، وليبادر بإخراجها ولو على ظهر دابة . ويشبه ابن الأزرق احتباس الفضلات بالنهر الجاري إذا اشتد مجراه ، فإنه يتلف ما حواليه من العمران والنبات ، وكذا البول والغائط إذا احتبسا ولم يخرجا سريعا ، أتلف الأعضاء وأفسد جميع البدن . قال بعضهم شعرا :

لا تحبسن البـول حـين يحضـرك ... ولـو على سـرجك كي لا يعقـرك
فـإن فـيـه آفـة المـثـانـة ... فـلا تكـون بـالبـول ذا استهـانـة

وجاء في كتاب فاكهة ابن السبيل أن الطعام إذا بقي في المعدة أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو ضرر ، وإن خرج قبل مضي ست ساعات فليس بمحمود العاقبة ، (فاكهة ابن السبيل ، جـ ١ ، ص ٩٣) .

أما حفظ صحة القلب فيكون بوسائل منها وسائل نفسية مثل اجتناب حملان الهم وكثرة الفكر وكثرة المزاح (المرجع السابق ص ٩٣) .

كذلك هنالك ارتباط بين الايمان والصحة ـ وهو ما يعترف به الطب الحديث أيضا ـ فحفظ صحة العقل هو «ألا تشرك في توحيده بشيء من الشرك ، وأن تكون راضيا بما قسم الله وما قدر ، حامدا شاكرا لمن أخرجك من العدم إلى الوجود» ، (ص ٩٤) .

كما أن هناك ارتباطا بين الصحة والأخلاق ، فحفظ صحة اليدين بعدم السرقة ، وصحة الأرجل بعدم التهجم على أحد بالدخول إلى منزله بغير إذنه .

بل هناك ارتباط بين الصحة والعلم ، فصحة الأرجل بالمشي إلى ما يعين على طلب العلم ، كما أن صحة العقل بطلب زيادة العلم والعمل إلى منتهى الأجل ، (ص ٩٤) .

وهكذا نرى كيف قام هذا الطب العظيم على تلك النظرة الشاملة الرحبة .

ونذكر آخر ما تناوله هؤلاء العلماء الأجلاء بشأن تدبير البدن اثباتا لنظرتهم

الشاملة إذ تحدثوا عن أثر التزين والتعطر وأنواع الثياب . فيشير ابن الأزرق أولا إلى الحناء في الرأس واللحية واليدين والرجلين ، فإنه سُنّة . ويناقش أقوال مختلف الفقهاء فيما يجوز منه للرجل والمرأة وما لا يجوز . وعلى سبيل المثال فإن بعض الفقهاء يرى أنه لا يجوز الخضاب بالسواد إذا كان الهدف منه الغش والتدليس ، كأن تخضب المرأة لكي تغري من يتزوجها ، أو الرجل ليغري من يخطبه ، أو المملوك ليغري من يشتريه .

أما الطيب فمن مزاجه حار فالأطياب الباردة صالحة ، ومن كان مزاجه باردا فالأطياب الحارة صالحة له .

أما اللباس فهو يذكر أنواع الأقمشة ومزايا كل منها ابتداء من الكتان والقطن من حيث ملاءمتها للصيف ، أما الصوف فهو مسخن للبدن بينها الحرير معتدل .

الطب العـــلاجي :

بعد ذلك يخصص كل من كتابي «الأزرق» و «فاكهة ابن السبيل» الجزء الأكبر منهما - إذ يبلغ ثلاثة أرباع كل منهما - لما يعرف اليوم بالطب العلاجي ، وعنوانه في كتاب الأزرق «في علاج الأمراض الخاصة بكل عضو من أعضاء الجسد» . وهو علاج يختلف في كثير منه عن الطب الحديث بما وصل إليه من اكتشافات واختراعات سواء في معرفة أسباب الأمراض أو ما ترتب على ذلك من معرفة بطرق العلاج ، وهو ما عجز عنه ذلك الطب القديم الذي اعتمد معظمه مرغما على حواس الطبيب وعلى خبرة الانسانية ، وهي خطوة أولى كان لا بد منها ليعقبها ما جدّ من تطورات في علم الطب مثلما تطورت بقية العلوم .

فهناك مفاهيم أخرى في هذا الطب القديم نحس أنها لا بد وأن تكون قد قامت على أساس خبرة ضيقة ، بمعنى أن يكون عدد قليل من الأشخاص قد جمعوا مثلا بين صنفين من الطعام فاعتلت - بمحض الصدفة - صحتهم ، فيعمم تحريم الجمع بينهما على أساس أن ذلك يضر بالصحة . من ذلك مثلا قوله إن الماء البارد بعد الفاكهة خطر ، والجمع بين البصل والثوم مضر بالبصر ، ولئن كان كل واحد

منها مضر بالبصر على انفراد ، فإن هذا الضرر أقل من اجتماعهما معا ، كذلك أكل العنب على السمن . . الخ . من ذلك أيضا أنه مما يظلم البصر المشي حافيا ، والنظر إلى وجه العدو . ومما يضر الفهم الكزبرة اليابسة والنوم على القفا ، ومما ينفع الفهم : أكل الفجل ـ يعني البقل ـ ولحم الدجاج والزنجبيل . ومما يزيد فساد العقل : البصل والباقلاء (أي الفول) والباذنجان ودوام النظر في المرآة (ولعله نتيجة فساد العقل وليس سببا له) . لهذا حذر المحقق في مقدمته للأزرق كما حذرت وزارة التراث في تذييل لها في فاكهة ابن السبيل من العمل بما جاء في هذين الكتابين .

ولكن هذه الخبرة الانسانية كانت لها نظرتها الصحيحة في كثير مما تركت لنا ، بحيث يستفاد منها اليوم لا سيما فيما يعرف بالطب الشعبي علاجا ودواء ، وما الدعوة إلى استخدام الأعشاب والنباتات كأدوية طبيعية باعتبارها أفضل من الأدوية الكيميائية إلا أحد الأمثلة على ذلك .

والجزء الخاص بالطب العلاجي ـ شأنه شأن الجزء الخاص بالطب الوقائي ـ يرتب أعضاء الجسم ابتداء من الرأس : شعرها وصداعها ، والحفظ والنسيان ، والنوم والسهر باعتبار أن كل ذلك ينتسب إلى الرأس . ثم يتناول الوجه وبشرته إذ يتكلم عن الكلف والنمش والبرش (وهي نقط صغار سود) . ثم ما يعرف اليوم بأمراض الأنف والأذن والحنجرة . وهو ينسب ما يراه الطب اليوم من أمراض الجهاز التنفسي إلى أمراض الأنف كالزكام والنزلات والعطاس ، أما الرعاف فهو نزيف الدم من الأنف . ثم أمراض الفم وفي مقدمتها الأسنان ثم نزولا إلى الصدر والقلب فالمعدة . . حتى يصل إلى أمراض الجهاز البولي والبواسير والنواصير وأخيرا الأظافر وتشقق القدم .

ثم يتناول الأمراض العامة المتنقلة في البدن ، ومنها الأمراض النفسية مثل الماليخوليا والصرع والجنون ، كما اعتبر الأحلام المفزعة والكابوس والعشق من بين هذه الأمراض . وهو يلجأ هنا إلى العلاج النفسي حينا ، وما يمكن تسميته بالعلاج الغذائي حينا آخر . فالعشق مثلا ـ وهو يعرفه بأنه مرض وسواسيّ أو كما قال أرسطو هو عمى الحس عن ادراك عيوب المحبوب ـ علاجه الوصال على الحلال ، فإن تحقق

مع المحبوب نفسه تم الشفاء ، وإلا فليؤت له بصورة حسنة غير المعشوقة ، ثم يجمع بينهما على الحلال ، وإلا فليلجأ إلى قراءة كتاب النحو والفرائض وأصول الدين ونحو ذلك ، أو يلجأ إلى البيع والشراء حتى يلهو عما كان فيه . قال الجوهري ، وعلاجه : أن يقع في خصومات ومنازعات وأمور تشغله ويسافر السفر الطويل . .

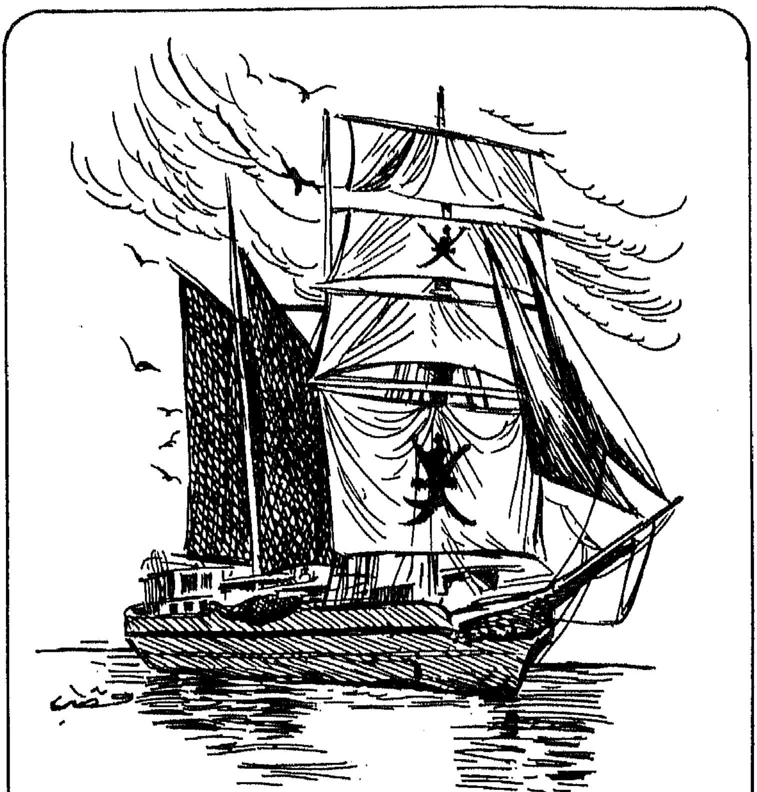
ورغم أن العلم اليوم لا وطن له ولا ينتسب إلى دين دون آخر ، إلا أننا يمكن أن نطلق على هذا التراث الطبي اسم الطب الاسلامي لأنه ـ برغم أنه كان يرجع إلى كثير من الخبرات الانسانية السابقة لا سيما ما يمكن تسميته بالطب اليوناني إذ يتردد فيه أسماء بعض من كانوا يشتغلون به مثل بقراط وأحيانا أرسطو ـ إلا أنه كان يرجع في معظم أحكامه إلى القرآن الكريم والسنة والحديث كوسيلة من وسائل الاثبات من ناحية والاقناع من ناحية أخرى وذلك على نحو ما مرّ بنا . لهذا فلا عجب أن حرص ابن الأزرق على أن يختم كتابه بتخصيص فصل في منافع القرآن وخواصه .

ولسنا نجد خير ما نختتم به هذا العرض مما وجهه ابن الأزرق ـ على لسان بعض الحكماء ـ من نصيحة للعمل بما وصل إليه الطب في زمانه من ارشادات وتوجيهات ، وهي نصيحة ما تزال حتى اليوم صحيحة في جانب الوقاية قبل أن تكون في جانب العلاج ، يقول بعض الحكماء : لا ينبغي لأحد أن يقول طالما فعلت ما حُذِّرَ منه من استعمال هذه الأشياء فلم يصبني ضرر ـ أي أنني أكلت الممنوعات وشربت المحرمات فما أصابني ضرر ـ فإن قوله هذا جهل . . فجسد ابن آدم إنما هو كالأرض التي إن قام عليها صاحبها بالعمارة والسقي ، ولم يزدها فتغرق ، ولم ينقصها فتعطش دامت عمارتها وحسن زرعها ، وإذا غفل عنها فسدت ونبت فيها العشب (الأزرق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥) .

من البيئة العمانية

- سفن بلا مسامير بين الحقيقة والأساطير .
- الأفلاج شرايين الحياة فى عمان .
- الحيتان فى بحر عمان .
- الطيور العمانية والصقر الأسود .

سفن بلا مسامير بين الحقيقة والأساطير



السنبوق مركب بلا مسامير

لعل أهم مركب من المراكب العمانية القديمة هو السنبوق ، وهو يوجد في ظفار ، ويتميز بتشابه طرفيه ، ولا يستخدم الحديد في صنعه إلا في حاجز المؤخرة . ويستعمل لصيد الأسماك ، ويعمل عليه طاقم من أربعة إلى ثمانية أشخاص .

وعملية بناء السنبوق تكشف عن الكثير من الأساليب المحلية التي كانت مستخدمة في صناعة السفن في منطقة المحيط الهندي حيث تتم دون استخدام مسامير لتثبيت ألواحها ، بل تتم عن طريق تثقيب حافة الألواح ثقوبا على مسافات متساوية ثم تستخدم الحبال المصنوعة من ألياف جوز الهند لعملية الخياطة والقلافة (خرز الألواح بالليف ووضع القار خلالها) ، كما يتم حشر الألياف فيها بين الألواح . (عُمان وتاريخها البحري ، وزارة الاعلام والثقافة ، سلطنة عُمان ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٤) .

توفير الجهد والنفقات

وكان المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس قد أشار إلى هذه الطريقة في القرن السادس الميلادي حيث يقول «وجميع المراكب التي في الهند وعلى هذا البحر (أي البحر العربي بين جزيرة العرب وجنوب البحر الأحمر) مشدودة بنوع من الحبال» .

وإنه لمن الواضح أن هذه الطريقة كانت الطريقة المفضلة لبناء المراكب مما يؤكد أن الطريقة اليونانية الرومانية في بناء المراكب قد فشلت في هذه البحار خلال فترة ما قبل الاسلام ، والسبب بسيط جدا فالتكاليف والجهد اللذين تتطلبهما الطريقة اليونانية الرومانية (استخدام المسامير الحديدية) جعلت العمانيين يفضلون طريقة الحبال المصنوعة من الألياف التي كانت مواردها متوفرة وتكاليفها أقل وطريقتها سهلة . وقد كانت صناعة الحديد في إيران والهند خلال العهود الرومانية متقدمة مثلما كانت في اليونان أو لعلها تتفوق عليها ، ولكن طريقة استخدام المسامير في بناء المراكب لم يؤخذ بها إطلاقا . . أما أين وكيف نشأت طريقة الحبال فإن تلك مسألة قابلة للتخمين ، ولعلها انبثقت عن القوارب المصنوعة من ألياف القصب المشدودة والتي كانت معروفة في سومر (بالعراق حاليا) خلال الألف الثالث قبل الميلاد .

وبعد ذلك بسبعة قرون زار الرحالة الشهير ماركو بولو هرمز القديمة فكتب يقول « . . . والمراكب ليس فيها مسامير حديدية وإنما تربط ألواحها بحبال من لحاء جوز الهند ، فكانوا يدقون هذا اللحاء حتى يصبح رفيعا مثل شعرة الخيل ثم يفتلون منه الحبال التي يربطون بها ألواح المراكب ، وهي مراكب قوية لا يفسدها ماء البحر ، لكنها لا تصمد أمام العواصف كثيرا ، ولا تطلى هذه المراكب بالقار وإنما تدهن بزيت السمك ولها صارٍ واحد ، وشراع واحد ودفة واحدة . وليس فيها سطوح إنما غطاء يمدونه فوق السفينة . ولم يكن لديهم حديد لصنع المسامير ولهذا كانوا يستعملون مساند خشبية في بناء سفنهم» (المرجع السابق ص ١٠٨ ـ ١١٠) .

أسطورة جبل المغناطيس

أما القصص الشعبية فقد كان لها تعليل آخر لعدم استخدام المسامير في بناء السفن وهو الاعتقاد بوجود جبال المغناطيس التي تجتذب إليها مسامير السفن فتتفكك ألواحها وتغرق . وقد وردت قصة في كتاب ألف ليلة وليلة تحكيها شهرزاد في الليلة الثالثة بعد الخمسين حسب النص الذي ترجم عنه «جالان» كتاب ألف ليلة إلى الفرنسية ، وفي الليلة الرابعة عشر تبعا للنص المنشور بمطبعة القاهرة .

ففي قصة «الحمّال مع بنات بغداد» نجد أن شهرزاد كانت قد وقفت عند انتهاء الصعلوك الثاني من سرد حكايته في ذلك المجلس الليلي ببيت غانيات ثلاث يعشن على انفراد ، حضره في تلك الليلة حمّال وخليفة ووزير وسيّاف وصعاليك ثلاثة حليقو اللحى والحواجب وعورو العين اليمنى . وما أن انتهى الصعلوك الثاني من قصته عن سبب فَقْد عينه اليمنى وحلق لحيته وحاجبيه ولبسه ملابس الصعاليك حتى اتجه الصعلوك الثالث إلى ربة المنزل وخاطبها قائلا إنه كان ملكا ابن ملك اسمه عجيب بن خصيب ، تولى الملك عن أبيه في بلاده الواقعة على ساحل البحر ، وبها المرفأ الأمين والسفن الكثيرة والمراكب التي خصصت لنزهته إلى الجزائر الواقعة تحت حكمه .

وقد دفعه حب الاستطلاع إلى الابحار فيما وراء جزائره ، فجهز عشر سفن خرج بها إلى عرض البحر أربعين يوما وليلة ، وفي الليلة الأولى بعد الأربعين هبت عاصفة هوجاء ثم ما لبثت أن هدأت فقرر العودة إلى مملكته ، ولكنه سار عشرة أيام دون أن يظهر أثر للأرض «واستغرب الربان شكل البحر فأمر الناظور أن يتسلق الدُقْل ويتأمل الأفق ، فلما بلغ أعلا الصاري وتفرّس في الأفق نادى قائلا : يا ريس ، رأيت عن يميني سمكا على وجه الماء ، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سوادا من بعيد يلوح تارة أسود وتارة أبيض . فلما سمع الربان كلام الناظور ضرب سطح السفينة بعمامته ونتف لحيته ، وأنذرنا بالويل والثبور قائلا : ضللنا الطريق ولا ريح يرجعنا . وفي غد نصل إلى هذا السواد اللامع فهو جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس ، يجتذبنا قسرا إلى ناحيته بسبب ما في السفن من حديد . فإذا أشرفنا عليه تفككت أوصال السفن وطار حديدها ليلْصق بجبل المغناطيس ، وتفرقت ألواح المركب في البحر وغرقنا .

فتوادعنا والبحر يدفعنا إلى جبل المغناطيس دفعا حتى صرنا على كثب منه ، وحدث ماقال به الربان ، وغرق أكثرنا . أما من نجا فلم يعرف مستقرا غيره من الناجين ، وتعلقت بلوح من ألواح السفينة حملته الأمواج وألقت به وبي على الجبل» .

وشاهد الملك عجيب على رأس الجبل قبة عظيمة من صُفْر (نحاس) مقامة على

عشرة أعمدة ، وفوقها فارس نحاسي على فرس نحاس ، وفي يده رمح من نحاس ، وعلى صدره لوح من رصاص به نقوش وطلاسم . فتقدم إلى القبة ينوي الاسترخاء تحتها ، لكنه نام منهوك القوى ثم صحا على صوت هاتف يطلب منه أن يحفر تحت رجليه ليجد قوسا من نحاس وثلاث نشّابات من رصاص عليها طلاسم . وأمره أن يأخذ القوس والنشاب ويرمي الفارس بأعلى القبة ليريح الناس من بلاء جبل المغناطيس . ذلك أن الفارس هو الراصد (أي الحافظ) لما بصخور الجبل من قوة المغناطيس ، فإذا هوى فقد الجبل صفته المشئومة .

وقام ابن خصيب ورمى الفارس بالسهم فوقع من توه في البحر ، وعلا البحر حتى ساوى قمة الجبل . وإذا زورق يجذف فيه رجل من نحاس على صدره لوح من رصاص اتجه إلى حيث الملك عجيب وهو يشير إليه أن يركب الزورق . فنزل الملك بالقارب وسار به الرجل النحاس عشرة أيام ظهر له بعدها الشاطىء . وكان الهاتف قد حذّر عجيب أن يذكر اسم الله حتى يرجع إلى بلاده لكنه نسي وصية الهاتف وحمد الله على سلامته ، فغاص القارب براكبه في طرفة عين وسبح ابن خصيب في الماء يومه وليلته حتى رمت به الأمواج إلى أحد السواحل ، فوجد نفسه فوق جزيرة صغيرة كثيرة الأشجار . وبينما عجيب متحير في أمره رأى مركبا قادما على الجزيرة فاختبأ بين أغصان شجرة ، ونظر فإذا عبيد خرجوا من المركب ومعهم المساحون والفئوس ، ومشوا في الجزيرة ، وحفروا في أرضها حتى كشفوا عن سرداب فتحوا بابه وجعلوا ينقلون من المراكب وسقا كثيرا (أي بضاعة كثيرة) . فلما انتهوا عادوا إلى المركب وجاءوا بشيخ هَرِمْ يتوكأ على صبي ، وأتوا إلى السرداب فنزلوا كلهم فيه . وبعد ساعة صعدوا جميعا إلا الصبي ذو الوجه الصبوح فلم يكن بينهم . ثم توجهوا نحو المركب والشيخ معهم بعد أن أقفلوا السرداب على الفتى وأبحروا .

نزل عجيب من فوق الشجرة وانحدر من السرداب إلى بهو كبير غُطِّيَ بسجاد وأضاءته شمعتان . وفي ركن منه سرير عليه فراش ووسائد وقد جلس الصبي فوق السرير وبيده مروحة ، وعلى مقربة منه طبق فواكه وأزهار . وفزع الصبي إذ رأى عجيب فهدّأ من روعه ، وعرّفه أنه من أبناء الملوك ، وأن حسن الطالع قد أرسله لمساعدة الصبي في محنته وخلاصه مما أراد له الشيخ وعبيده .

فأجابه الصبي : إعلم أيها الأمير أن الشيخ أبي ، وهو سر تجار الجوهرية ، وقد رُزق بي في شيخوخته بعد يأس ، فتنبأ المنجمون لي بحياة طويلة إذا اجتزت سن الخامسة عشر . ففي ذلك السن تتعرض حياتي لخطر كبير ، إذ يكون عجيب بن خصيب قد أبطل طلاسم جبل المغناطيس ، وأطاح بالفرس والفارس في البحر . ورأى المنجمون أن عجيبا هذا قاتلي إن ظفر بي في الخمسين يوما التالية لسقوط الفرس النحاس . ولما عرف أبي أخيرا أن الفرس النحاس قد هوى ، ومضى على زوال الطلسم عشرة أيام ، جاء بي إلى هذه الجزيرة ، وكان قد احتفر لي فيها هذا الطابق لأقضي فيه أيام النحس التي يخشى أثناءها على حياتي . ووعدني أن يجيئني بعد أربعين يوما . ثم أضاف مبتسما ابتسامة بريئة : وما أحسبني إلا ممضيا هذه الأربعين يوما في أمان ، فمن أين لابن خصيب أن يصل إلى مخبئي في هذه الجزيرة .

وتمضي القصة فتتحقق النبوءة برغم كل الاحتياط الذي اتخذه الوالد الشيخ بل والذي اتخذه عجيب بن خصيب نفسه . ونحن نكتفي بهذا القدر الذي يهمنا من القصة والذي يوضح أن غرق المراكب كان يقوم على أساس الاعتقاد بأن جبال المغناطيس تجذب ما بالمراكب من حديد فيتفكك .

حجارة تجذب السحابة وتسهِّل الولادة

وقد ورد في كتب الرحّالة والعجائب هذا الاعتقاد . فهذا برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي في كتابه عجائب الهند المؤلف في القرن الرابع الهجري يقول : «وقال لي بعض البحريين إنه بين خانفوه ، وهي قصبة (أي عاصمة) الصين الأصغر ، وبين خمدان وهي قصبة الصين الأكبر . . نهر يجري جريا شديدا بماء عذب ، وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة . وفي مواضع منه جبال المغناطيس ، وانه لا يسير في ذلك النهر بمركب فيه حديد لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها . وأن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم ولا يكون في سروجهم حديد ولا في رُكبهم ولُجم خيلهم . (برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي ، عجائب الهند ، القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ٦٩) .

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات على لسان المُهَلَّبي ان «جبال المغناطيس

متصلة بجبال القلزم (البحر الأحمر حاليا) ، وقد علا الماء عليها . ولهذا لا يُستعمل في مراكب هذا البحر المسامير الحديد خوفا من جذب المغناطيس إياها» .

والادريسي (١١٠٠ ـ ١١٦٥ م) يقول : «والمندب جبل يحيط به البحر من جميع جهاته وطرفه الأعلى مما يلي الجنوب . . ويُعرف بجبل موروقين ، وليس عظيم الارتفاع ، ولكنه مطل على البحر ، وقد غاص جزء كبير منه تحت الماء . وهو مجموعة صخور . وحكى صاحب كتاب العجائب أنه لا يمر بهذا الجبل شيء من المراكب المسمَّرة بالحديد إلا اجتذبه إليه ، وأمسكه معه فلا يكاد يتخلص منه البتة» . (مقتبس عن د. حسين فوزي ، حديث السندباد القديم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ ، ص ٢١١ ـ ٢١٢) .

ففكرة الحجارة المغناطيسية كانت شائعة في القرون الوسطى . فالقزويني يحدثنا عن حجارة تجذب الرصاص ، وحجارة تجلب المطر ـ أي تجذب السحاب ـ وهذه من الأساطير التتارية المشهورة . بل هناك حجارة تسهِّل الولادة ، ولعلها تجذب الأجنّة من البطون . ويظهر أن «مدينة النحاس» في قصة ألف ليلة وليلة كانت بداخلها بعض مبان من هذا الحجر فكان رُسُل موسى بن نصير كلما صعدوا إلى سور المدينة التي لا أبواب لها ضحكوا وألقوا بأنفسهم إلى داخل السور ، ولم يُسمع عنهم خبر بعد ذلك ، مما جعل القائد يعدل عن محاولة دخول مدينة النحاس بعد أن فقد فيها بعض رجاله الذين أرسلهم فوق السور للاستطلاع (المرجع السابق ، ص ٢١٤) .

ويعلل الدكتور حسين فوزي قصة جبل المغناطيس بالتيارات البحرية المجهولة التي كانت تدفع السفن فجأة إلى شاطىء صخري وتحطمها ، فيعزو الملاحون ـ وربما كان المسافرون مسئولين عن الخطأ في التفسير ـ هذه الحوادث إلى صفات في صخور الشاطىء نفسها ، لا إلى قوة التيار الذي قذف بسفنهم إلى البر (المرجع السابق ، ص ٢١٣) .

ويتضح مما ذكره جغرافيو العرب عن مراكب بحر القلزم أن طريقة بناء السفن دون مسامير لا علاقة لها بوجود جبال مغناطيسية . فالادريسي يقول «وبالقلزم تنشأ

السفن السائرة في هذا البحر ، وإنشاؤ ها شيء طريف ، ذلك أن الكلكل ينبسط على الأرض عريضا ، ثم لا يزال اللوح يُرَكَّب منه على ما لصق به حتى يتهندم ، ثم يُخْرَز بحبال الليف والدسور توصل بينها بالجسور الماسكة . فإذا أكمل ذلك بأسره جُلْفِطَ بالشحم المتخذ من دواب ودقاق اللبان . وقيعان مراكبه عراض دون تعميق في تركيبها لتحمل بذلك كثير الوسق ، ولا تدرس على كبير ترش» أي أن المراكب المُخَرَّزة بالليف ، ذات القيعان المفرطحة أكثر مرونة وآمن إذا أصابت قاعا قريبا فاصطدمت بالصخور ، أو جلست عليها ، مما لو كانت مثبتة بمسامير حديدية . فالشعاب المرجانية بالبحر الأحمر كانت من أسباب تفضيل استخدام حبال الليف عن المسامير .

ويرى المسعودي (ت ٩٥٦ م) سببا آخر لعدم استعمال المسامير في «البحر الأحمر الحبشي» إذ أن «ماءه يذيب الحديد فترق المسامير فتضعف فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلا منها وطُلِيَتْ بالشحم والنَّوْرَة» . ويرى الدكتور أنور عبدالعليم أنه ربما كان هذا تعليلا مقبولا ، إذ أن اشتداد الرطوبة في البحر الأحمر تسبب سرعة صدأ المسامير الحديدية وضعفها . ولهذا السبب كانت مراكب اليونان القديمة تستخدم وقاية من الرصاص تصب فوق رؤ وس المسامير لحفظها كما أن بعض المراكب اليونانية والرومانية القديمة التي انتشلت مؤخرا في البحر المتوسط كانت تستخدم مسامير من النحاس . أما قدماء المصريين فقد استخدموا طريقة تعشيق الخشب بعضه ببعض أو استعمال خوابير خشبية لهذا الغرض ، بالاضافة إلى شد الألواح بالحبال . (د. أنور عبدالعليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ٨٥ ـ ٨٦) .

الأفلاج شرايين الحياة فى عمان

يقال ، والله أعلم ، أن سليمان بن داود عليه السلام ، دخل عُمان وأهلها بادية ، فأقام فيها عشرة أيام وأمر الشياطين في كل يوم يحفرون ألف نهر ، فسار منها وقد جرى منها عشرة آلاف نهر .

تلك هي القصة التي أوردها العوتبي في كتابه الأنساب تفسيرا لأصل وجود الأفلاج في عُمان . أما قصة كيفية دخول سليمان عُمان فإنه يوردها بعد ذلك بسطور قلائل قائلا إنه «كان يغدو من اصطخر فيتغدى في بيت المقدس ، ويروح من بيت المقدس فيتعشى باصطخر ، فبينما هو يسير وقد حملته الريح نحو البر . . فهبت في برية عُمان . فرأى قصرا في الصحراء كأنما رفعت عنه اليد الساعة . وإذا عليه نسر واقع . فقال للريح حطي . ثم قال لمن معه : ادخلوا القصر . فدخلوا . فلم يروا شيئا ، فعادوا إليه فأعلموه . فدعا بالنسر ، فقال : لمن هذا القصر؟ فقال : ما أدري ، أنا عليه منذ ثمانمائة سنة ، هكذا عهدته . (مسلمة بن مسلم العوتبي الصحاري ، الأنساب ، وزارة التراث القومي ، سلطنة عُمان ، جـ ٢ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١) .

ويحاول الدكتور جي . ولكنسون أن يبحث عن أصول تاريخية لهذه الأسطورة ، فيرى أن سليمان الملك هو صاحب العلاقة الشهيرة بملكة سبأ ، وأن قلعة سالوت التي وردت في الأسطورة هي نفس المكان الذي دار فيه القتال بين المهاجرين العرب الأوائل والفرس الذين كانوا في عمان وقتئذ . وأن أهمية الأسطورة

هو أنها تحتفظ بآثار تاريخية ملخصها أنه عند ما وصلت حضارة بناء القنوات من بلاد فارس إلى عُمان ، وجدوا أن المكان لا يعيش فيه سوى البدو رغم أنه كانت هناك بقايا مبان من حضارات سابقة (جي . ولكنسون : نشأة الأفلاج في عُمان ، ضمن حصاد ندوة الدراسات العمانية ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عُمان ، ١٩٨١ ، المجلد الثامن ، ص ١٣٩) . ويؤيد رأيه بما يتردد في بعض كتب التاريخ من أن الفرس عند ما هزمهم العرب بالقرب من سالوت دمروا عددا كبيرا من الأفلاج مما يثبت وجود الأفلاج في عُمان قبل دخول العرب إليها وأن هذه الأفلاج قد بناها الفرس .

ولكن الدكتور باولو كوستا مستشار الآثار بوزارة التراث القومي والثقافة في عُمان يرى أن هناك أدلة تثبت وجود عدد من الأعمال المثيرة للاعجاب في الجزيرة العربية تتعلق بالمياه وتعود على الأقل إلى الألف الأولى قبل الميلاد تقريبا . ويقارن بين أساليب التعدين التي كانت معروفة في تلك الفترة وبناء القنوات المائية الجوفية ، فقد ثبت تقدم أساليب تعدين النحاس التي كان معمولا بها في عُمان منذ الألف الثالثة قبل الميلاد (د. باولو كوستا ـ الفلج شريان الحياة المتدفق ، أخبار شركتنا ، عُمان ، العدد الثاني ، ١٩٨٤ ، ص ١٤) .

ويرى ولكنسون أن الجذر اللغوي لكلمة فلج يرتبط في اللغات السامية بمعنى التقسيم والمشاركة وأنه لا يعني مجرى مائي إلا بصورة ثانوية فحسب «فهو نظام توزيعي للمياه بين أولئك الذين لهم مصلحة فيه» (المرجع السابق ص ١١٨) . والواقع أن كلمة فلج تعني المعنيين معا : التقسيم والنهر الصغير ، وكل شيء شققته نصفين فقد فلجته وقد فطن إلى ذلك د. فرانسيسكو ساردا في دراسته «الأفلاج العمانية ومجاري المياه» حين رجع إلى المعاجم العربية مثل «جمهرة العرب» لابن دريد (المتوفى عام ٣٩١ هـ) «والمحكم» لابن سيده الأندلسي (المتوفى عام ٤٥٩ هـ) «ولسان العرب» لابن منظور (المتوفى عام ٧١١ هـ) و«تاج العروس» للزبيدي (المتوفى عام ١٢٠٦ هـ) .

وعُمان ـ كجزء من الجزيرة العربية ـ ليس بها أنهار ، ولكن بها مياه جوفية تستخرج عن طريق الآبار التي ترفع مياهها السواقي يدير كلا منها زوجان من الحمير أو الثيران ، أما الآن فقد حلت محل الساقية الأساليب الميكانيكية والمضخات بحيث أمكن استغلال مناطق جديدة للزراعة .

فإذا كانت هناك مياه جوفية في منطقة وعرة بحيث لا يمكن استغلالها في المنطقة نفسها ، مما يتطلب وسيلة لنقل المياه على بعد بضعة كيلومترات حيث تكون هناك أرض صالحة للزراعة ، هنا تنشأ الحاجة إلى إقامة الفلج لتأدية هذه المهمة دون أن تتبدد المياه في الطريق .

ولبناء قناة يتم أولا تحديد المنطقة التي يتم فيها حفر البئر التي منها سيتدفق الماء في الفلج . وما يفعله الناس عادة هو الاستعانة بباصر أي رجل بصير بمعرفة مواقع الماء تحت الأرض . وهناك قبيلة متخصصة في حفر الآبار والأفلاج في شمال عمان الداخلية هي قبيلة «العوامر» .

وللتبصر بمواقع الماء يقوم الباصرون بنقل خطواتهم في المكان يتفحصون تشكيلات وجه الأرض ويدققون النظر في الأعشاب البرية والتربة تدقيقا بالغا . ويقال إن من الدلائل المهمة على وجود المياه الجوفية شجر السمر والسدر على أن تكون ـ إذا وجدت ـ مائلة . ولا يستخدم العود أو القضيب كما هو المعتاد في أوروبا إلا نادرا ، ولكن قد تصف أواني مليئة بالماء على نمط معين ويراقب تجاوبها . وقد يحكم الباصرون بوجود منطقة مواتية يطلبون الحفر عندها فيتم استخراج الماء بعد لحظات من رؤيتهم الموقع ، وقد يحتاجون إلى أيام وأسابيع يقيمون أثناءها عند الذين يستعينون بهم .

وإذا رجعنا إلى كتاب «الفراسة» لمحمد بن عمر الرازي (المتوفى عام ٦٠٦ هـ/ ١٢١٠ م) نجده يذكر أساليب مشابهة في النوع الخامس من العلوم المناسبة لعلم الفراسة وهو «حكم مهدف المياه ومستنبطها في البقاع السهلة والجبلية لاخراج

الأنهار ورفعها إلى وجه الأرض» . وفي مراجع اللغة نجد ألفاظا أخرى لكلمة الباصر العمانية مثل «جواب الفلاة» و «العياف» و «القنقن» . (أنظر : د. محمد عيسى صالحيه ، الفراسة والكشف عن باطن الأرض ، العربي ، الكويت ، العدد ٣٠٤ ، ١٩٨٤ ، ص ٨٨ - ٨٩) .

فإذا تنبأ الباصر بوجود ماء جوفي فإن عليه أن يحدد عمقه بعد ذلك ، وهو أمر ضروري إذ لا بد من هبوط الماء من المصدر إلى المجرى ، ويقال إن أعمق الآبار في عُمان هو بئر الرستاق إذ يبلغ عمقها حوالي ٦٠ مترا .

وتقسم المياه عادة من حيث النوع إلى أربعة أقسام : حلو وهو العذب وتشوبه معادن قليلة وليس بطعمه أملاح ظاهرة ، ومر ، ومالح ، وتفل أو تلل وطعمه كطعم الأرز المطبوخ دون ملح .

وبعد تحديد كميات المياه الصالحة تتم عملية مسح مسار القناة ، وعادة ما تكون في بدايتها قناة جوفية تمتد لعدة أمتار وقد تطول إلى عدة كيلومترات حتى تصل إلى منطقة تنخفض فيها الأرض وعندئذ يظهر الفلج على سطح الأرض .

وتقوم شهرة قبيلة العوامر الأساسية على حفر الأفلاج ومدها وخصوصا إجراء ذلك كله في الصخر الأصم . ويكاد العوامر ينفردون في عُمان باستعدادهم للقيام بهذا العمل الذي يتطلب المطرقة والأزميل . وكثير من أهل القرى يكرهون بل يرفضون أن يدخلوا أفلاجهم بسبب احتمال تعرضهم للأخطار مثل عضة أفعى أو سقوط سقف عليهم إلى جانب أخطار موهومة أو قائمة على الخرافات . وربما كان السبب الحقيقي لهذا النفور هو العمل الشاق المتصل تحت الأرض في درجات مرتفعة من الحرارة والرطوبة فمن كان يحترف هذا العمل فلا بد أن تكون بنيته قوية . وتزداد مهارة العوامر في أعيننا إذا أضفنا ضعف وسائل الاضاءة التي كانت مستخدمة تحت الأرض ، فقد كانوا يستخدمون مصابيح زيتية لها علب ذات فتائل . (جي . اس . بيركس وسالي آي . ليتس ، العوامر قبيلة متخصصة بحفر الآبار والأفلاج في شمال عُمان الداخلية ، وزارة التراث القومي ، سلطنة عُمان ، سلسلة تراثنا ، العدد ٣٨ ، ١٩٨٢ ، ص ١٣ - ١٤) .

وتبدو مهارة الذين يقومون بحفر هذه المجاري الجوفية في قدرتهم على توجيه مساراتها بحيث يلتقي بعضها مع بعض لا سيما وأن ضبط مستوياتها يتم بالعين ، مع التوفيق بين المسار المثالي للمجرى وبين مسار يأخذ بعين الاعتبار خصائص الصخور التي يتم فيها حفر النفق .

ومن أهم مظاهر مهارة العامري قدرته على أن يستعمل مطرقة وإزميلا في حدود مساحة ضيقة جدا ، وأن يمد بهذه الطريقة نفقا محددا بحيث يحتاج الانسان أن يندس فيه زحفا على جنبه (المرجع السابق ، ص ١٥) . لهذا فإنه يتم حفر فتحات التهوية السطحية على طول المجرى الجوفي للفلج طبقا لضرورات التهوية ولازالة المخلفات الناتجة عن الحفر ، كما يتم بناء حواف مرتفعة حول هذه الفتحات لتجنيبها أية أضرار من مياه السيول .

«وإلى جانب اختيار المصدر المناسب للمياه وحفر الأنفاق الجوفية للفلج ، فإن المشكلتين الرئيسيتين اللتين تواجهان بناة الأفلاج هما تأمين سرعة تدفق كافية ومتواصلة للمياه على طول القناة ، والتغلب على العقبات الناتجة من مرورها بالأودية والعوائق الأخرى . وتتطلب المهمة الأولى مهارة مسح استثنائية ، حيث يجب على البنائين الموازنة بين درجة انحدار القناة ومعدل مستوى المياه المتدفقة ، مع مراعاة الاختلافات الموسمية لهذا المستوى . ولتجنب الاحتكاك والتآكل وفقدان المياه يجب أن تكون جدران القناة مكسوة بعناية بأسمنت محلي مقاوم للمياه المتدفقة يعرف باسم «الصاروج» . . أما بالنسبة للمهمة الثانية فإذا لم يكن الوادي عريضا جدا وتدفق مياه الفلج غير شديد ، فبإمكان بناة الأفلاج استخدام جذوع أشجار النخيل المجوفة لنقل المياه عبر الوادي ، لأنه يمكن استبدالها بسهولة إذا جرفتها مياه سيول استثنائية . أما بالنسبة لفلج كبير سريع التدفق مع واد أكثر عرضا يجب عليه اجتيازه ، فيتم بناء مجرى دائم قوي قادر على الوقوف في وجه فيضانات متوسطة . ومثل تلك القنوات يتم بناؤ ها عادة على أعمدة أو قناطر مقواة بدعامات تحميها في وجه تيار الفيضانات . ولعل أجمل أنواع هذه القنوات الذي لا يزال مستعملا حتى يومنا هذا موجود في ولاية نخل ويعود تاريخ بنائه إلى القرن السابع عشر تقريبا . والأسلوب الآخر لشق الفلج عبر واد عريض وعميق ينحدر بشكل حاد للداخل هو

بناء قناة مغلقة على شكل حرف U ويكون قسمها الأسفل محفورا في قاع الوادي ومغطى . ويكون المقياس الذي يحكم به الناس على جودة القناة هو قدرتها على الاستمرار في التدفق في الأوقات التي يشح فيها الماء .

اســـتعمالات الفــلج

واستعمالات الفلج هي : ماء الشرب والوضوء وتكون مناطقها في أعلى المستويات الظاهرة من القناة المائية وذلك ضمانا لنظافة الماء وعدم تلوثه . ثم يستخدم ما يتلو ذلك من أجزاء للاستحمام ثم مغاسل الموتى فضلا عن ري المزارع وشرب البهائم . ولا يسمح بتحويل الفلج إلى المناطق السكنية لأغراض خاصة ، ولا يمر تحت المباني ، لكنه يمر تحت المساجد حتى يتسنى استخدام مياهه للوضوء . ويمكن معرفة بداية القسم الذي منه يتم توزيع مياه الفلج عادة بالموقع الذي فيه المسجد ، الذي تسبقه نقاط المياه النقية التي يتزود منها سكان القرية بالمياه الصالحة للشرب ، ويعرف ذلك القسم باسم «الشريعة» . وقبل تلك النقطة يكون الفلج مغطى أو مسقوفا لبضع مئات من الأمتار منعا لتلوث مياهه والتأكد من عدم الاستحمام فيه أو شرب الحيوانات منه .

ومن أهم معالم نظام تقسيم الفلج هو الحوض الكبير الذي يسمى باللهجة العامية «اللجل» أو «الجابيه» وبالفصحى «البركة» . وتقام هذه الأحواض لسببين رئيسيين : بناء مخزون مائي كبير وكاف باستطاعته الوصول إلى جميع أجزاء الواحة أو القرية التي تكون قنواتها عديمة الانحدار تقريبا . وثانيا للتأكد من التدفق المستمر للمياه وبالأخص عند ما ينخفض منسوبها بالفلج . ويتم ملء هذا الحوض عادة أثناء الليل ، وتصرف مياهه طبقا لمتطلبات الري أثناء النهار .

توزيع الميــاه

وأخيرا تتدفق مياه الفلج في المزارع بنظام خاص بين أصحابها أساسه التناوب ، فلكل قطعة أرض فترة محددة لها ، وبذلك تصل مياه كل مشترك إليه في

مكان وزمان محددين عن طريق شبكة قنوات توزيع الماء المتصلة بالفلج نفسه . وحصص توزيع ملكية الفلج تعرف باسم «الخابورة» ، ويمكن لصاحب كل حصة استخدامها أو بيعها أو تأجيرها لشخص آخر . ويعتمد الأسلوب التقليدي لتوزيع حصص المياه على المزولة أو الساعة الشمسية التي تثبت في موقع يطل على الفلج .

وقد شاهدت في سمائل حديقة أحد الأصدقاء العمانيين يمر بجوارها أحد الأفلاج . وقد ذكر لي هذا الصديق أنه اشترى تلك الحديقة من مالكها السابق بثمن زهيد لأن نوبة ريها من الفلج يتراوح موعدها ما بين مرة كل ١٤ يوما و ٥٦ يوما طبقا لمدى تدفق المياه مما يؤدي إلى إصابة بعض زراعاتها بالجفاف خصوصا في فصل الصيف . فلما سألته : ولماذا اشتريتها إذن ؟ كان جوابه الذكي أن أراني بئرا حفرها وعليها مضخة يروي بها أشجار حديقته ، فعوّض بذلك نقص ما يصلها من مياه الفلج ، وأعاد للأرض قيمتها المفقودة . وفيما مضى كانت الآبار تستخدم كبديل لماء الفلج حين تنشب حرب ويتعرض الفلج لهجوم يؤدي إلى السيطرة على مياهه .

النـــدود

وإذا كان الفلج فوق السطح عند وصوله إلى القرية ، فإن الحقول يتم إعدادها بسهولة لا تتجاوز تسوية الأرض وتنظيفها . أما إذا كان الفلج ما يزال على عمق تحت الأرض ، فيجب عندئذ تخفيض مستوى سطح الحقول الواجب ريها إلى الحد المناسب ، ويتطلب الأمر في بعض الحالات إزالة أربعة أمتار أو أكثر من التربة السطحية . وتسفر مثل هذه العملية عن تجميع أكوام كبيرة من التربة حول الحدائق الغائرة ، وهي تعد من السمات المميزة لكثير من القرى العمانية ، ويطلق على هذه الأكوام المتراكمة بالعامية اسم «ندود» .

ادارة الفـــلج

وتقع مسئولية تنظيف الفلج ـ إذا كان صغيرا ـ على عاتق الأفراد ، كما أنهم ينظفون القنوات الصغيرة ويقومون بإصلاحها ، لأن كميات المياه التي يمكن فقدها

في القنوات التي تترك بدون صيانة يصل إلى ضعف كميات المياه المفقودة في القنوات التي يتم تنظيفها وإصلاحها ، كما أن عدم تنظيف القنوات يؤدي إلى زيادة ملوحتها (جي . ولكنسون ، الأفلاج ووسائل الري في عُمان ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عُمان ، ١٩٨١ ، ص ٦١) .

وللفلج موظفون يختلف عددهم تبعا لحجمه وطريقة إدارته . فإذا كان الفلج صغيرا قام شخص واحد بكل العمل . أما في الفلج الكبير فيوجد الوكيل على رأس موظفيه ، وهو المسئول عن التمويل ، وتنظيم بيع مياه الفلج ، وهو الذي يقرر ما إذا كانت خدمات الفلج كافية أم لا . لذلك فهو يتقاضى راتبا من دخل الفلج ، وهو وإن كان يقوم بعمله عادة دون استشارة المشتركين إلا أنه إذا وجد ما يستدعي اجتماعهم فإنه يدعوهم لمناقشة الموضوع . وبجانب الوكيل يعمل عدد من العمال ينظفون الفلج ويقومون بإصلاحه وهؤلاء يتقاضون أجرا يوميا . كذلك هناك «العريف» الذي يتولى مسئولية توزيع المياه ، ومعه «أمين الدفتر» و «كاتبه» والدلال الذي يساعد الوكيل في بيع القضا (أي فيما يباع شرعا) والزائد (أي ما يزيد في حصة الشخص عن حاجته) .

ولا شك أن الفلج لعب دورا اجتماعيا واقتصاديا أساسيا في تاريخ المجتمع العماني ، وكان له أثره البارز في التوجيه الاداري بل في إيجاده من أجل الاتفاق على توزيع مياهه والالتزام بهذا الاتفاق والاحتكام إلى سلطة ما عند وقوع خلاف حول هذا التوزيع ، تماما كما كان أثر الأنهار الكبرى في مناطق أخرى في العالم نشأت حولها الحضارات مثل نهر النيل في مصر ونهري دجلة والفرات في بلاد ما بين النهرين أو العراق حاليا .

تراث معماري رفيع المستوى

والأفلاج العمانية ـ إلى جانب اعتبارها إنجازا تكنولوجيايلعب دورا هاما في المجتمعات العمانية ـ فإنها تعتبر من ناحية المعمار تراثا له خصائص جمالية رفيعة المستوى . لهذا يدعو المهتمون بالتراث العماني إلى ضرورة الحفاظ عليها كمعالم باقية

من حضارة الجزيرة العربية . وفي حالة استمرار استخدامها يجب أن تتم صيانتها وترميمها بالأساليب المتوارثة وبالمواد المحلية ، وعدم إدخال أية تغييرات على تصاميمها الأصلية تفقدها جمالها الذي يفوح بعبق ماض عريق .

الحيتان فى بحر عمان

حوت يصعدون ظهره بسُلّم

لما كان العمانيون شعبا بحريا ، ولما كان المحيط الهندي وبحر عُمان بيئة ملائمة لتوالد الحيتان ، فقد لفتت هذه الأنواع من الأحياء البحرية أنظار العماني منذ قديم الزمان لا سيما لضخامتها عن بقية الأحياء البحرية ، مما جعلها موضوعا مثيرا للرواة يتناقلونه شفاهة وتدوينا ، ويبالغون أحيانا لمزيد من إثارة الدهشة لدى السامع أو القارىء وجذب انتباهه . وقد عُرفت هذه الدواب البحرية عند العرب بأكثر من اسم منها البال والفال والوال والقاطوس والبلِّينة . . إلى آخره .

وقد حفلت كتب العجائب والجغرافيين والرحالة العرب بأخبار الحيتان وقصصها . من ذلك ما جاء في «رحلة التاجر سليمان» المؤلَّف عام ٨٥١ م . قال التاجر سليمان انه رأى «سمكا مثل الشراع ربما رفع رأسه فتراه كالشيء العظيم ، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة . فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ، ثم فتح فاه فيُرَى السمك في جوفه يغيض كأنه يغيض في بئر . والمركب التي تكون في البحر تخافه ، فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكىء على المركب فيغرقه» .

وقد أضاف أبو زيد حسن السيرافي صاحب الشطر الثاني من كتاب «رحلة التاجر سليمان» حديثا عن العنبر المستخرج من الحوت إلى أن يقول «وهذا الحوت

المعروف بالبال ربما عُمل من فِقَار ظهره كراسي يقعد عليها الرجل ويتمكن . وذكروا أن بقرية من سيراف ، على عشرة فراسخ ، بيوتا عادية لطافا سقوفها من أضلاع هذا الحوت . وسمعت من يقول إنه وقع في قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة فقصد للنظر إليها فوجد قوما يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف . والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفرا يجتمع فيه الوَدَك ويُغْرَف الودك من عينيها بالحرارة إذا أذابتها الشمس ، ويُجْمَع فيُباع على أرباب المراكب ويُخلط بأخلاط لهم ويُمسح بها مراكب يُسد بها خرزها (أي ثقوبها) ويُسد أيضا ما ينفتق من خرزها ، فيُباع وَدَكُ هذا الحوت بجملة من المـال .

حدقة سمكة قطرها طول رجل

وفي كتاب عجائب الهند لبزرك بن شهريار الناخذاه الهرمزي والمدون على الأرجح في القرن الرابع الهجري أي منذ أكثر من ألف عام ، جاءت حكايات كثيرة عن الدواب البحرية الكبرى منها ما رواه أبو الحسن محمد بن عمر السيرافي «أنه رأى بعمان في سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عُمان ، وجَزَرَ المـاء عنها فصيدت فسُحبت إلى البلد . فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها . وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعَظْمِها . فإنها ذُرِعَتْ فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعا . وأنه بيع من دهن عينيها على ما قيل ببضعة عشر آلاف درهم .

وحدثني اسمعيلويه الناخوذاه أن هذا السمك كثير ببحر الهند . . ويقال له الوال وهو بكسر المراكب مولع . فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وقرعوا الطبول ، وأنه ربما نفخ المـاء فيرتفع مثل المنار ، ويبين من بُعد مثل شُرُع المركب ، وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيُرى من بُعد أيضا مثل شرع القوارب .

وحدثني عن بعض العراقيين . . أنه رأى باليمن عند بعض اخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقي عظمه صحيحا ، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها

وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحني ، وكان حُمل في سنة عشرة وثلثمائة من عُمان إلى المقتدر من ذلك السمك . وأن فك سمكة رُفِع من الرَوْشَنْ ولم يدخل من الأبواب . وحدثني أن هذه السمكة التي حُمل فكها إلى بغداد نزف من عينيها خمسمائة جرّة ، أو زيادة عليها ، دهنا» . (برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي ، عجائب الهند ، القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ١١ - ١٢) .

سمك يتابع السفن

«وحدثني بعض الربانية أن سمكة سارت مع مركبه بنواحي اليمن يوما وليلتين وبعض يوم لم تفارقه ، ولم تتقدم عنه ولم تتأخر عنه ، قُدّر مسيرهم معا زيادة على مائة وسبعين فرسخا . فإنها كانت بطول المركب سواء ، وكان طول مركبه خمسين ذراعا بذراع العمل من مشعر الابط إلى طرف الأصبع الوسطى . فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر الكبيرة مع المراكب ومحاذاتها ، فقال ذلك يختلف ، فمنها ما يحاذي المراكب ليسقط منها شيء فتلتقمه ، أو تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه فصارت إذا رأت مركبا حاذته طمعا أن يحدث منه ما حدث من غيره ، وظنا منها أن المراكب كلها تكون كما وجدت في الأول فصارت كأنها ضارية على ذلك . ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيوانا بعضه في الماء وبعضه في الهواء فيمرح معه ويجاريه عشقا له وتأنسا به مدة مدى قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعيى فيفارق ، ولا صبر للحيوان على مضاهاة الجماد . ومنها ما يجاري المركب على سبيل المغايرة والمعاندة والمقاواة ، فإذا أعيى وقصّر ورأى المركب تتقدمه رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة فإن سَلِم وإلا فنسأل الله العفو . ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودُرْبَتِها على المراكب فتحمل عليه حملات فتلتقط ما فيه ، لعادة واستمرار ، نسأل الله العافية ، ومنها ما إذا رأى المركب فر منه وهرب وذُعر خوفا على نفسه واستيحاشا منه . وأخلاقها تختلف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السُفّار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار المنقطعة المهجورة ، والبعد من السواحل المعمورة وعمق البحار ، وعدم البر والجزائر والسواحل . وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين» . (المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥) .

قنطرة من ضلع سمكة

«وقال أبو محمد الحسن بن عمرو : وشاهدت من أضلاع السمك ضلعا حمله إلينا بعض أرباب المراكب ، فقُطع منه قطعة من جانبه الغليظ نحو خمسة أذرع ، فطرحناه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة ، فقام مقام القنطرة . وكان طول ما بقي منه نحو عشرين ذراعا» . (المرجع السابق ، ص ٢٧) .

سمكة في حجم جزيرة

«وحدثني اسمعيلويه الناخذاه . . قال : فخرجنا كلنا في يوم واحد ، وكنت آخر من خرج بسفينته ، فأغذذت السير لألحق من خرج منهم أولا . فلما كان في اليوم الثالث رأيت من بُعد مثل الجزيرة السوداء ، فلرغبتي في سرعة السير لم أنقذ الشراع لأعدل عنها لأن السير في ذلك البحر شديد جدا ، فما كذبت أن وصلت إليها فضربتني ، وإذا هي دابة من دواب البحر . فلما لمَسَتْ المركب ضَرَبَتْه بذنبها فانكسر . فسَلِمْتُ أنا وابني والكارين (كاتب البحرية) في الدونيج (زورق أو قارب) ووقعنا إلى بعض جزائر الديبجات فأقمنا بها ستة أشهر إلى أن أمكننا الخروج فوصلنا إلى عُمان» (المرجع السابق ، ص ٤٦) .

زعانف كالأجنحة

«وحدثني بعض الربانية أنه رأى في لجة سمرقند (أي قاع خليج بنغالة) . . خلقا كثيرا من الفال ، وهو أكبر سمك في هذا البحر . وأنه رأى سمكة منه قدِّر أن طولها نحو مائتي ذراع ، وأنهم رأوها بعد أن رفعت أجنحتها فظنوها شُرُع مراكب إلى أن حاذُوها ، وأن على ظهر هذا السمك مثل الحجارة الأرلحية مما قد تراكب عليه طول السنين من الحشور والطين ، فاستحجر وصار لا يعمل فيه الحديدُ ولا غيره . وأنه يسير في البحر يمنة ويسرة ، ووراءه وبين يديه أفراخ سمك لا يفارقونه» . (المرجع السابق ، ص ٧٦) .

أما المسعودي (ت . ٩٥٦ م) فيقدم خلاصة وافية لما وصلت إليه المعرفة في عصره عن الحيتان وما يتصل بها كالعنبر فيقول «وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن ، وأصابتني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال ، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع بالذراع العُمَري ، وهو ذراع أهل ذلك البحر . والأغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع . وربما بدا بذلك البحر فيُظهر طرفا من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع . وربما يُظهر رأسه وينفخ الصُّعَدَاء في الماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم . والمراكب تفزع منه بالليل والنهار وتضرب له بالخشب والدبادب لينفر من ذلك . ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فمه وقد فغر فاه ، وذلك يهوي إلى جوفه جريا . فإذا بغت السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك ، فيلصق بأصل أذنها ، فلا يكون منها خلاص ، فتطلب قعور البحار وتضرب بنفسها حتى تموت . فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم ، وربما تلتزق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا تدنو الأوال ـ مع عظمها ـ من المراكب ، وتهرب إذا رأت الصغيرة إذ كانت آفة عليها وقاتلة لها» .

« . . . ذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشِّحْر (حضرموت حاليا) من أرض العرب . وأهل الشحر أناس من قضاعة بن مالك بن حمير وغيرهم من العرب . ويدّعي من سكن هذا البلد من العرب أن المهرة أصحاب شعور وجمم ولغتهم خلاف لغة العرب . . ولهم نُجُب (جمال) يركبونها بالليل . . فيسيرون عليها على ساحل بحرهم ، فإذا أحست النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه ، قد ريضت على ذلك واعتادته ، فيتناوله الراكب . وأجود العنبر ما وقع إلى هذه الناحية ، وجزائر الزنج وساحله . وهو المدور الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك . ومنه ما يبتلعه الحوت المعروف بالأوال المقدم ذكره على ما وصفناه ، فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله ، فيطفو فوق الماء . ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزنج وغيرهم فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ويشقون عن بطنه

ويستخرجون العنبر منه . . وما لقي ظهر الحوت منه كان نقيا جدا على حسب لبثه في بطن الحوت . . وأخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرهم من التجار من كان يختلف إلى هذه الجزائر (جزائر الديبجات في جنوب شرق آسيا) ان العنبر ينبت في قعر هذا البحر . . :. حسين فوزي ، حديث السندباد القديم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ١٦٦ - ١٦٨) .

الحيتان في ضوء العلم الحديث

تلك بعض أقوال القدماء عن الحيتان ، والمعروف أن أطول ما سُجل من أطوال الحيتان في العصور الحديثة هو الحوت الاسبرماسيتي ، ولا يتعدى طوله خمسة وعشرين مترا ، وإن كانت هناك أنواع أخرى مثل الحوت الأزرق الذي قد يصل إلى ثلاثين مترا ويزن أكثر من مائة طن .

أما بعض أسباب موت الحيتان أو انتحارها بطريقة فردية أو جماعية مما ينتج عنه ظهور جثثها على السواحل فيرجع إلى اضطراب جهاز تحديد الحركة في المياه لدى الحيتان الموجود في رأسها ، فعند ما يتعرض هذا الجهاز لأي أثر يحد من مقدرته على أداء مهمته مثل دخول الطفيليات عن طريق الأذن وتسربها إلى موضع الجهاز ومن ثم التأثير عليها ، عندئذ تقدم الحيتان على الانتحار والتعرض للموت .

أما العنبر فهو مادة تتكون في جوف الحوت ، وحين حلل علماء القرن التاسع عشر تلك المادة قاربوا بينها وبين مادة الكولسترين (المادة التي تترسب على الأوعية الدموية فتتسبب في انسدادها) ، ولهذا قدّروا أنها ترسب مرضي شبيه بحصى المرارة ، مثل اللؤلؤ بالنسبة للمحارة .

ويوجد من الحيتان أنواع كثيرة جدا ، بعضها ذو أسنان ، وبعضها بلا أسنان بل لها على فكيها مادة قرنية تسمى بالين .

وهي من الحيوانات الثديية ، تلد صغيرا مرة كل عامين أو ثلاثة أعوام ، وهي

من ذوات الدم الحار (أي التي لا تتغير حرارة جسمها إلا في حالة المرض مثل الانسان) ، وتحتفظ بحرارة الجسم عن طريق طبقة سميكة من الدهن ، وهذا الدهن له قيمة تجارية كبيرة . وخروج الحيتان إلى السطح للتنفس سببه أنها ليست لها خياشيم لأنها من الثدييات ، ولهذا تُحْدث تلك النافورة من الماء التي يمكن رؤيتها من على بُعد .

وتحصل الحيتان على طعامها من الأسماك باستعمال الصدى لتحديد الموقع ، إذ تُحدِث أصواتا مختلفة لاكتشاف أماكن الطعام ، كما تستخدم ما يشبه الصفير للاتصال فيما بينها .

وتصاد الحيتان لفائدتها التجارية بسبب ما تحتوي عليه من لحم وزيت وما تفرزه من عنبر .

الحيتــان في عُمــــان

وقد وصلت أعداد كبيرة من صائدي الحيتان الأمريكيين ، على وجه الخصوص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لصيد حيتان العنبر في كل من خليج عدن وبحر العرب ورأس فرطاق ورأس مرباط وجزر كوريا موريا ، باعتبارها أفضل المناطق لذلك .

وما يزال بحر عُمان يزخر بالحيتان حتى يومنا هذا ، لكن لما كانت الحيتان في أنحاء العالم على وشك الانقراض بسبب استنزافها في الصيد لأغراض تجارية ، فقد أنشئت اللجنة العالمية للحيتان عام ١٩٤٦ وانضمت إليها عُمان عام ١٩٨٠ ، وذلك من أجل تنظيم عملية صيد الحيتان ورعاية أكثر الحيوانات المائية تعرضا لخطر الانقراض .

وقد اتخذت هذه اللجنة العالمية قرارا في عام ١٩٧٩ بإعلان منطقة المحيط الهندي والبحار المجاورة لها إلى الشمال مناطق يُمنَع فيها صيد الحيتان لمدة عشر سنوات أي حتى عام ١٩٨٨ .

وقد وصلت إلى عُمان في يناير ١٩٨٢ السفينة البريطانية الشراعية تيوليب التي يبلغ طولها عشرة أمتار مع أربعة من العلماء ، قام بتمويلها الصندوق العالمي الهولندي لحماية الحياة البرية ، وهو جزء من مشروع أبحاث شامل في ملاجىء الحيتان بالمحيط الهندي . وكان الموضوع الأساسي لعلماء تيوليب هو السلوك الاجتماعي لحيتان العنبر في الجزء الشمالي الغربي للمحيط الهندي . وفي زيارتها الأولى للمياه العمانية سجل العلماء أنهم رأوا مجموعات كبيرة من الدولفينات وحيتان العنبر ، كما قاموا أيضا بتسجيل أغاني أو أصوات الحيتان الحدباء بالقرب من جزر كوريا موريا ، دلالة واضحة على احتمال أن هذه المنطقة مكان لتكاثرها . وفي رحلة للسفينة إلى جزيرة مصيرة عثر العلماء على عظام حيتان ودولفينات جنحت إلى الشاطىء في سبعة مواقع على الأقل تم تسليمها إلى المسئولين عن متحف التاريخ الطبيعي في مسقط لعرضها على زائريه .

وهكذا انقشع التهويل الذي كان يحيط بالحيتان عند أسلافنا ، كالذي ذكره القزويني (ت ٦٨٣ هـ/١٢٨٣ م) في كتابه عجائب المخلوقات أن ما بين مرور رأس السمكة وذيلها أربعة أشهر ، وهو تهويل يعبر عن مدى تأثرهم بضخامة الحيتان . فقد استطاع العلم الحديث أن يضع الحيتان في حدودها الصحيحة .

وتمشيا مع سياسة السلطنة في الحفاظ على البيئة ، فإنها كما اهتمت بالمحافظة على حيوانات البر اهتمت كذلك بالمحافظة على حيوانات البحر وفي مقدمتها الحيتان في بحر عُمان .

الطيور العمانية والصقر الأسود

الطيـــور العمانيـــة
والصـــقر الأســـود

رغم أن الصحراء تكوِّن الجزء الأكبر من سلطنة عُمان مما قد يوحي بندرة الكائنات في مثل هذه البيئة ، إلا أن خلف هذا المظهر الخادع تكمن حياة برية في الجو وعلى الأرض تزخر بالطيور والحيوان . ويتميز عالم الطيور العمانية بما يفد عليه من طيور مهاجرة ، ذلك أن عُمان تقع بين طرق الهجرة الرئيسية للطيور من مناطق تكاثرها في أوروبا الشرقية إلى مناطق قضائها فصل الشتاء في شرق افريقيا ووسطها . وقد تم تسجيل أكثر من ٣٥٠ نوعا من الطيور في عُمان أكثرها طيور مهاجرة تطير فوق ساحل الباطنة أو عبر الداخلية في طريقها إلى افريقيا .

ويقطع عدد كبير من هذه الطيور الصغيرة عشرة آلاف كيلومتر مرتين في العام في طريق هجرته ذهابا وإيابا ، ويتوقف أثناء رحلته الطويلة حول مصادر المياه للراحة حيث يأكل ويشرب . وتشاهد أنواع كثيرة من الطيور فوق الشجيرات وفي الحدائق ، وفي الجزر القريبة من الشاطىء حيث تتكاثر مختلف الطيور البحرية ، وكذلك فإن للوديان طيورها مثل طائر العلعال (بوقميره) وهو طائر مألوف على طول البراري الساحلية ، كما أنه الوحيد من نوعه الذي يزينه ريش بارز فوق رأسه وله زقزقة موسيقية .

ويشاهد على ساحل الباطنة أنواع عديدة على الشواطىء لا سيما في فصل الخريف مثل طيور النورس ، وهو طائر بحري يقطن منه في عُمان نوعان : نوع ظهره قاتم جدا وصدره أسود وله حلقة بيضاء حول عينيه ، ونوع له منقار رفيع وأرجل حمراء وهو أصغر حجما من سابقه .

ومن الطيور التي يمكن رؤ يتها في شمال عُمان طيور الشقراق (الظظوه) ذات الرؤ وس والصدور الوردية اللون ، وعند طيرانه تشاهد أجنحته الزرقاء القرنفلية . ومثل صائد النحل (المرقراق) وله منقار طويل وألوانه زاهية وهو يتغذى على الحشرات كما هو واضح من اسمه . كذلك هناك العقاب البحري وهو من الطيور الشائعة جدا في محافظة مسندم التي تطل على مضيق هرمز ، وتبني أعشاشها فوق المرتفعات الصخرية لسواحل عُمان ، وتضع بيضتين أو ثلاثا خلال فصل الشتاء ، وبحلول شهري فبراير ومارس تكون صغارها قد أصبحت قادرة على الطيران . كذلك يظهر في شمال البلاد طائر الشمس الأرجواني وهو من أصغر الطيور العمانية المغردة حجما ، ويمكن رؤ يته عادة في المناطق الزراعية وبالقرب منها حيث يتوفر الرحيق وتكثر الحشرات التي يتغذى عليها .

أما في جنوب عُمان فتشاهد طيور مثل اللقلق الأبيض الذي تتجمع أعداد كبيرة منه لتتغذى على الجراد وذلك أثناء مروره على الأخص في منطقة ظفار أقصى جنوب البلاد . ثم هناك الغراب المروحي الذيل الذي لا مثيل له إلا في افريقيا ، وطائر الوقوق (القيقب) الذي يهاجر صيفا من افريقيا ويضع بيضة واحده في كل عش من الأعشاش المتدلية لطائر أبو نساج وربما في أعشاش طيور من أنواع أخرى ، ويكسو ريشه اللون الأخضر والأسود والأبيض والنحاسي ، ويغرد بصوت عال في شهر مايو تغريدا يشبه رنين الجرس . كما اكتشف فريق من العلماء عام ١٩٧٩ طائر الصرد الأسود الرأس (الجزار) وهو من الأنواع الافريقية الواسعة الانتشار ، ورغم أنه يخفي نفسه جيدا بين الشجيرات إلا أن صفيره العالي والضوضاء الغريبة التي يحدثها تكشف عن وجوده .

أما في مسقط ووسط عُمان فهناك كثير من الطيور لعل من أكثرها شيوعا العصفور المنزلي الذي نجده في كل مكان وكذلك الببغاوات الصغيرة . ثم هناك الصقر الأسود المنتشر في الأماكن الساحلية .

الصقر الأسود

وقد نشرت وزارة التراث القومي والثقافة مؤخرا ترجمة عربية للدراسة التي

كان قد أعدها هارتموث والتر عن الصقر الأسود عام ١٩٧٨ ، وذلك بناء على الدراسة العملية التي قام بها في خمسة أماكن لتوالده في خليج عُمان تحت اشراف الحكومة العمانية خلال شهري أغسطس وسبتمبر من عام ١٩٧٨ .

وقد اتضح أن بيئة تكاثر هذا الطير تتكون من جروف ساحلية علاوة على جزر صخرية بالشواطىء ، وتتعايش فيها الصقور السوداء إما بأعداد فردية أو في مستعمرات متناثرة لا يتجاوز عدد صقورها على الأربعين . أما موسم التكاثر فيمتد إلى وقت متأخر من شهر أكتوبر حيث لا يفقس معظم البيض حتى أوائل سبتمبر .

وتتناول الدراسة أربع نقاط رئيسية : شكل هذا النوع من الصقور وبنيتها ، حجم أماكن تعشيشها ، صراعات هذه الطيور وممارساتها الاجتماعية ، وأخيرا الفترات التي تمارس فيها الصيد ومناطق هذا الصيد وفنونه .

وقد اتضح أن طعام الصقر الأسود يتكون من خمسين نوعا من الطيور المختلفة أغلبها من الطيور المهاجرة ، وكذلك عدد مثير للدهشة من طيور الشاطىء والطيور البحرية .

وهو يستوطن الصحارى الشمالية الشرقية لافريقيا وكذلك سواحل المياه الدافئة للجزيرة العربية .

وقد تمت دراسة الصقر الأسود خلال ثلاث رحلات رئيسية : في الرحلة الأولى تم استكشاف الجزر التي تقع مباشرة إلى شمال وشمال غرب مسقط ، أما الرحلة الثانية فقد اختصت بدراسة الساحل الرئيسي ما بين مسقط ورأس الحد في الركن الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية ، بينما الرحلة الثالثة كانت رحلة بحرية إلى جزيرة جون وهي إحدى جزر مجموعة جزر الديمنيات .

كما تم استكشاف أماكن تكاثر الصقور في الصحراء الغربية إلى الجنوب الغربي من الجبل الأخضر ، وجرت عملية استكشاف مماثلة في جزيرة مصيرة الواقعة على ساحل عُمان الجنوبي في بحر العرب ، كما قام الباحث بدراسة تجمعات الصقور على

جزيرة الفحل القريبة من مسقط خلال عدة رحلات بحرية استغرقت كل منها يوما واحدا . وتقع جميع مناطق تكاثر الصقور السوداء في عُمان ـ والتي تم اكتشافها خلال تلك الدراسة ـ ما بين رأس السوادي وقلهات .

ويتغير لون الريش على الصقر الأسود بتغير مراحل عمره ، رغم أن لون ريشه يميل عموما إلى الأسود إلا أنه أحيانا ما يغطي بعض أجزاء جسمه ريش ذو لون برتقالي زاه أو أصفر ، كما أن اللون الأسود الذي يتميز به لون ريشه المغطي لجسمه وخاصة في الصدر وعلى الظهر يتغير بتغير الضوء ما بين اللون الرمادي الفضي (الذي يكاد يبدو أبيض من بعيد) إلى اللون الأزرق الفاتح وأخيرا إلى الأسود الداكن .

وقد بلغ عدد الصقور السوداء التي تمت مراقبتها خلال تلك الدراسة ما بين ١٥٥ ـ ١٧٢ صقرا ، أغلبها صقور بالغة ، كما تم العثور على ٢٦ عشا تحوي بيضا وأفراخا .

ويعلل الكاتب تكاثر الصقر الأسود في الجزيرة العربية بثلاثة عوامل : أولها وجود أماكن مناسبة لاقامة أعشاشها محمية من الشمس .

وثانيها توفر حمايتها من الحيوانات الضارية .

وثالثها وفرة الغذاء الذي توفره الطيور المهاجرة .

وبعد أن يقدم دراسته عن بيض الصقور يتطرق إلى أفراخها فيقول إن الصقور الصغيرة تنمو نموا سريعا حتى أن وزنها قد يصل إلى ٣٠٠ جرام خلال ٢٥ يوما فقط من الفقس . وخلال هذه الفترة يتغير نوع الريش وطبيعته ، وفترة بقائها في العش لا تزيد عن ٣٥ يوما .

ســـلوك الصـــقور

يعتبر الصقر الأسود أحد أربعة أو خمسة صقور تتمتع بالسلوك الاجتماعي ، ولهذا السبب اهتم الباحث بدراسة سلوك الصقور العمانية وعلاقاتها بعضها ببعض .

فأولا نجد أن الصقر الأسود يمتلك منطقة تعايشية تحيط بعشه ، والدليل على وجود مثل هذه المنطقة يأتي من نظام توزيع الأعشاش بحيث توجد فراغات بينها وكذلك المسافات التي تفرق بين مجاثم الصقور (المنطقة التي يجثم عليها) ، والاحتكاك الشرس مع الأنواع الأخرى من الطيور والحيوان والبشر الذين يقتربون من هذه المنطقة ، ثم تفادي أماكن المجاثم الأخرى التي تؤمها صقور أخرى .

وقد كانت جزيرة جون مثالية لتقديم نموذج في دراسة موضوع المسافات بين الأعشاش . فعلى الساحل الشمالي لهذه الجزيرة انتشر ١٦ زوجا من أزواج الصقور على مسافات متساوية الفواصل تماما كعقد اللؤلؤ ـ على حد تشبيه المؤلف ـ يبلغ طولها ١١٠٠ متر على طول جرف مناسب لسكنى الصقور وبذلك شغل كل زوج حوالي ٧٠ مترا من واجهة الجرف . أما المجاثم فكان يتراوح بعدها من مكان العش ما بين متر واحد إلى ٤٥ مترا . ولم يكن يشغل أي مجثم إلا زوج واحد من الصقور .

ويميل الصقر الأسود إلى نشر بقايا صيده على مسافة من عشه تتراوح ما بين ١٥ ـ ٢٥ مترا ، ولهذا كانت أزواج الصقور المصاحبة لصغارها تسكن أعشاشا نظيفة خالية من بقايا الصيد . وهذا السلوك الذي اعتاد عليه الصقر الأسود يجعل من الصعب اكتشاف وجود الصغار في عشه ، كما أنه يقلل من احتمالات تعفن بقايا تؤدي بدورها إلى جذب الحيوانات أو الطيور أو الحشرات التي تتغذى على مثل هذه البقايا .

ويرتبط السلوك العدواني للصقر الأسود ارتباطا وثيقا بمملكته العشية وذلك ضد أي عدوان محتمل أو واقعي . وتتراوح ردود الفعل بين الضعف والقوة فرد الفعل الضعيف يكون بمتابعة الطائر الدخيل بحركات من رأس الصقر ، ورد الفعل الأقوى يكون على شكل صيحات من جانب الصقر صاحب العش ، أما أقوى ردود الفعل فهو القيام بمطاردة جوية ضد الطائر العدو مصحوبة بهجمات عليه ، وكثيرا ما تنضم صقور أخرى إلى صاحب العش في دفاعه عن مملكته .

كذلك كثيرا ما تتعرض الصقور السوداء العائدة من رحلة صيد إلى عملية قرصنة من صقور أخرى في محاولة لخطف الصيد .

وينظر المؤلف نظرة متفائلة إلى هذه القرصنة إذ يقول إنها قد تكون مفيدة في عدالة توزيع مصادر الغذاء المتوفرة بأفضل ما يمكن من المساواة ، فإذا كان حظ أحد الصقور أكثر من حظ غيره فقد تتكسب بعض الصقور الأخرى من مكاسب صيده .

وتشير المشاهدات إلى أن الصقور البالغة تحتمل وجود بعض الصقور غير البالغة في نطاق ممتلكاتها العشية ، ويعلل المؤلف ذلك بأن هذا السلوك قد يكون محاولة من جانب الصقور غير البالغة لعمل صداقة مع الصقور البالغة لايجاد علاقة تزاوج بينهما ، وفي تعليل آخر ـ يُسقط فيه المؤلف سلوك الانسان على سلوك الصقور فيقول ـ إن هذا السلوك قد يكون عائدا إلى ما مرت به الصقور البالغة من تجارب سابقة في الصغر تستجدي فيها الغذاء .

هل لأنثى الصقر سيادة على ذكرها ؟

في أحد أعشاش جزيرة جون شوهدت الأنثى تحتضن فرخين وبيضة واحدة ، وطوال اليوم كان الصقر يوالي الهبوط على بعد مترين من الصغار وقد يسير إلى مسافة أقرب إليهم دون الدخول في العش نفسه . وفي وقت مبكر من بعد ظهر أحد الأيام اقترب الذكر مرة أخرى من موقع العش بينما كانت الأنثى واقفة بالقرب من الصغار ، ويقول المؤلف إن الذكر كان يبدو أنه مصمم على شق طريقه إلى الصغار ، ومستعد لازاحة أنثاه إلى خارج الموقع المباشر للعش إلا أن ذكر الصقر تردد في آخر لحظة وتوقف ثم استدار عائدا وقبل ذلك ـ ولمدة نصف ساعة ـ كان كلا الزوجين يجثمان معا على مجثمهما يسويان ريش بعضهما ويتلامسان بمنقاريهما لعدة دقائق . ويستنتج المؤلف من هذا المشهد أن هناك احتمالا لسيادة أنثى الصقر على الذكر داخل الموقع المباشر للعش . ولو أن هذا المشهد قد يعبر عن علاقة فردية ولا يصبح استنتاج المؤلف قاعدة إلا إذا تكرر بصورة مماثلة .

وهو يورد فعلا مشهدا أو مشهدين آخرين ، من ذلك أن مجموعة من خمسة إلى ستة من طيور النورس البالغة احتلت المنحدر بجوار الممتلكات العشية لزوج من الصقور . وفي أحد الأيام شوهدت هذه الطيور قلقة للغاية في فترة الصباح ، وكان

سبب ذلك أن المؤلف قد احتل مجثما من مجاثم النورس حتى يتمكن من مراقبة زوجي الصقور ، وبالاضافة إلى ذلك كان أحد أفراخ النورس قد أخفى نفسه تحت إحدى الصخور ، مما أدى إلى صيحات إنذار عالية من جانب طيور النورس وطلعات استطلاع وتحركات كثيرة أدت إلى مضايقة زوجي الصقور . فقامت أنثى الصقر بمهاجمة طيور النورس ست عشرة مرة وذلك بالانقضاض عليها ومطاردتها في الجو ، ولم يقم ذكر الصقر إلا بهجمة واحدة فقط مما يوحي بأن أنثى الصقر كانت المدافع الرئيسي ضد العدوان على المملكة العشية من الدخلاء من غير فصيلة الصقور .

مداعبة بين صقر ونورس

ويبدو أن هناك علاقة خاصة تربط بين الصقر الأسود وطائر النورس . والطائر الأخير أكبر حجما من الصقر ، فطول جسمه ٤٢ سم مقابل ٣٥ ـ ٣٨ سم للصقر ، كما أن النورس يتميز بالوحدة في معيشته وله صفات تنم عن الوحشية والافتراس والتغذي على القاذورات .

وفي أحد الأيام شوهدت حركات متبادلة بين الصقور والنورس على جزيرة جون الصغيرة . ففي ذلك اليوم طار زوجا الصقور الوحيدان المقيمان على تلك الجزيرة من الناحية الشرقية للجرف واتجها غربا ثم حاما فوق الطرف الجنوبي للجزيرة ثم هبط أحدهما وحط جاثما على المنحدر القريب من مياه البحر الذي يمكن منه مراقبة المنحدر الأعلى ، واستمر الصقر الآخر في طيرانه ، إلا أنه انقض فجأة حيث لامس الأرض تقريبا ثم انطلق صاعدا خاطفا أو لامسا شيئا ما ذا لمعة بيضاء ، وقد اتضح أن هذا الشيء الأبيض اللامع هو العلامة البيضاء التي يتميز بها طائر النورس على عنقه .

ويستنتج المؤلف أن زوجي الصقر قد مارسا تكتيكا ممتازا في هذه المداعبة الشيقة ، إذ جثم أحد الصقرين بالقرب من النورس الذي يبدو أنه كان نائما وقت القيلولة وبسبب حرارة الجو بعد الظهيرة مما شجع الصقرين فقام أحدهما بالانقضاض على النورس من أعلى لامسا عنقه دون أي إيذاء له .

دورة نهارية من السلوك العدواني للصقر

وهناك أكثر من دليل على عدوانية الصقور منها : أن أغلب فرائسها طيور متوسطة الحجم ، وأنها تقوم بمحاولات نشطة لافزاع الطيور لاخراجها من مخابئها ، وانها تقوم بعمليات انقضاض جريئة ضد الطيور الأكبر حجما في موطنها في الجبال . كما يستنتج المؤلف أن وجود المسافات البعيدة نسبيا بين كل عش وآخر من أعشاش الصقور دليل على عدوانيتها .

ويبدو أن الصقر الأسود يمر بدورة نهارية من السلوك العدواني ، فالسلوك العدواني لذكر الصقر يبلغ ذروته خلال الصباح المبكر ، أما في وقت متأخر من النهار فإنه يستريح على المجثم ، وشوهد أنه لم يحرك رأسه حتى عند ما اقترب طائر استوائي من كهفه القريب من المجثم .

لهذا يبلغ الصيد عند الصقور أعلى كثافته خلال الساعتين الأوليين للنشاط اليومي أي ابتداء من الفجر (ثلاثون دقيقة قبل الشروق) ويستمر حوالي ساعتين بعد الشروق . أما بالنسبة لباقي النهار فلم تشاهد سوى طلعات صيد غير منتظمة تزايدت بعد الغروب .

أما فيما يتصل بمنطقة الصيد فإن الصقر يفضل أن يطارد فرائسه من الطيور الجاثمة أو الطائرة في الجو والموجودة في الجروف التي تستوطنها ، كما أن هذا النوع من الصقور يطير أميالا عديدة فوق خليج عُمان باحثا عن الطيور المهاجرة ابتداء من سطح البحر حتى ارتفاع ألف متر .

ويمكن للصقر الأسود أن تصل سرعة طيرانه إلى كيلومتر في الدقيقة في خط مستقيم ، وتستغرق بعض الصقور مدة تتراوح بين عشرين وثلاثين دقيقة للعودة بفريستها ، مما يجعلنا نفترض أنها يمكن أن تكون قد طارت لمسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات بعيدا عن موقع العش خلال رحلات صيدها .

الجدران الرائعة للصقور

وقد حدث في يوم ١١ سبتمبر ١٩٧٨ أن رياحا غربية كانت تهب على جزيرة الفحل حين شوهد لأول مرة سرب يتراوح عدد صقوره بين ثمانية واثني عشر صقرا وهي معلقة في الجو بلا حركة تقريبا فوق الجروف الغربية لجزيرة الفحل ، وكان بعضها (ما بين اثنين إلى ثلاثة صقور) على ارتفاع يتراوح ما بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ متر مكونة بذلك ما يطلق عليه «الجدران الرائعة للصقور» .

اختلف المعتديان فأفلتت الضحية

وفي يوم ٢٧ أغسطس ١٩٧٨ في الساعة التاسعة والنصف صباحا كان أحد الصقور يطارد طائرا متوسط الحجم على ارتفاع ١٥٠ مترا فوق جزيرة أبو داود ، وبعد محاولات عديدة تم اختطاف الفريسة في الجو وهبط الصقر الظافر بها نحو الجزيرة . وعلى ارتفاع حوالي ثلاثين مترا فوق الأرض اعترضه صقر آخر محاولا خطف الفريسة ، وكان ذلك من حسن حظ الطائر الأسير لأنه تمكن من الافلات .

أما فرائس الصقر فمنها الحيوانات القارضة ، الجراد ، طيور مهاجرة صغيرة الحجم ، طيور النورس ، طيور برية . . الخ ، وقد تم التعرف حتى الآن على ٥٤ نوعا من فرائس الصقر الأسود .

ولما كانت هذه الصقور تعيش في مناطق شبه صحراوية فإن أكثر ما تتعرض له ندرة المياه وحرارة الشمس اللاهبة . ويحاول الصقر أن يتغلب على ذلك بعدد من الأنشطة التكييفية ، مثل : التركيز على النشاط اليومي ليكون إما في الفجر أو الغسق ، تفادي التعرض ما أمكن لأشعة الشمس المباشرة ، تغيير موضع الجسم للتقليل من المساحة المعرضة للاشعاع ، ممارسة الطيران العالي في الهواء البارد في الأجواء العليا ، استغلال الريش للحصول على درجات ميل مناسبة للتحكم في مدى امتصاص الاشعاع أو انعكاسه وذلك بتغيير درجات ميل الريش عن طريق

نفخه أو ضمه ، استخدام ما يناسب من اللهث أو النهج وكذلك فتح المنقار أثناء الطيران في حالات شدة الحرارة .

وأخيرا فلعل لاختيار موقع العش علاقة بقسوة درجات حرارة البيئة : فكثيرا ما تم اكتشاف أعشاش في كهوف عميقة ، وأكثر من ٩٠٪ من أعشاش الصقور محمية من التعرض المباشر لأشعة الشمس .

الصقور جزء من البيئة العمانية يجب حمايتها

وأخيرا ؛ فإن المؤلف يلفت النظر إلى أنه نظرا لارتفاع درجة اعتماد هذا الصقر على افتراس الطيور البحرية مثل النورس ، فإنه من المحتمل أن يؤثر التلوث الكيماوي لمياه الخليج على معدل تكاثر الصقر الأسود . ولهذا فإنه يوجه نداء قويا من أجل توفير الحماية الجيدة للمناطق التي يستوطن فيها الصقر الأسود في خليج عمان .

وبالكتاب ملاحق بها بيانات توضح ما سبق أن تعرض له المؤلف من معلومات ومجموعة من الخرائط التوضيحية والصور التي التقطها الباحث أثناء قيامه بدراسته .

فنون عمانية

- النقش على الصخر فى عمان .
- فجر الفنون التشكيلية فى عمان .
- معرض عام الشبيبة العمانية للفنون التشكيلية .
- محمد بن سالم الوضاحى مصور البيئة العمانية .
- فجر المسرح العمانى .
- قضية المسرح العمانى .

النقش على الصخر فى عمان

النقش على الصخر في عمان

قبل أن يخترع الانسان أدوات الرسم والنحت ويكتشف الخامات التي ينحتها أو يلون بها لوحاته ، والخامات التي تصلح ليسجل فوقها صوره ورسوماته ، لجأ إلى الطبيعة فجعل من الصخور وجدران الكهوف خاماته المفضلة ينقش عليها ما يريد أن يسجله من مظاهر الحياة حوله أو يخشاه أو يرجوه . ولا نعرف حتى الآن إذا كانت هذه النقوش والصور جزءا من طقوس دينية حيث نبعت من الدين في ذلك الوقت المبكر للبشرية جميع الفنون كالموسيقى والعمارة والفنون التشكيلية والبدايات المسرحية . . الخ . أم أنها دلالة على طبيعة الانسان التي لا تحيا بدون فن يميزه عن الحيوان ، وأقصد بالفن إبداع عالم مختلف عن الواقع العملي والفكر المحض وان كان من تلاقيهما معا ، وذلك بهدف تلبية حاجات معينة في طبيعة الانسان .

وقد تحمس الباحث السويسري رودي جاكلي لموضوع النقش على الصخور في عمان ، فأنفق ست سنوات ونصف السنة ما بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٧ بحثا عن هذه النقوش وتسجيلها ، ثم نشر خلاصة بحثه في كتيب عام ١٩٨٠ مع صور لبعض هذه النقوش بلغ مجموعها ٢٢٠ صورة التقطها الباحث كلها بنفسه ما عدا صورتين منها . وقد ذكر في مقدمة كتابه ما عاناه من مشقة في بحثه عن النقوش إذ كان يتطلب ذلك منه السير عدة ساعات في حرارة شمس قائظة ومعه جرادل المياه ، فهو يستخدم الطباشير لتظهر النقوش الباهتة واضحة عند تصويرها ، ثم يزيلها بالماء لتعود إلى حالتها الطبيعية .

وقد كان الجبل الأخضر الذي يقع شمال عمان المنطقة التي وقع عليها اختياره لبحثه . وتتميز تلك المنطقة بميزتين جعلتا شمال عمان أكثف مناطقها سكانا ، أولاهما وجود زراعة على جانبيه (الباطنة شرق الجبل بينه وبين ساحل عمان ، والظاهرة غربا) وذلك بسبب الوديان التي يكونها هطول الأمطار عليه ، وثانيهما وجود المعادن وفي مقدمتها النحاس الذي اكتشفه الانسان منذ الألف الثالثة قبل الميلاد وكانت الحضارة السومرية في بلاد ما بين النهرين تستمد نحاسها منه في ذلك الوقت .

والجبل الأخضر معظمه من صخور الحجر الجيري الملساء السطح بسبب سقوط الأمطار وتدفق المياه مما يغري بالنقش عليها ، فالخامة توحي بطريقة التعامل معها . كما أن هناك بعض التكوينات الكربونية ، وبعض الأشكال التي على هذه التكوينات عبارة عن رسوم بارزة ذات عمق يتراوح ما بين بضعة ملليمترات وسنتيمترين . وكثير من الأشكال موجود على أسطح ملساء تكون حدود الوديان ولهذا فإن أسفلها ـ كالأقدام ـ متآكل في العادة ، وقد يصل التآكل إلى طمسها تماما ، بينما الأجزاء التي تقع على ارتفاع يتراوح بين خمسة وعشرة أمتار فوق أرض الوادي لم تستطع السيول المستمرة أن تمسها بأية أضرار ملحوظة . والنقوش الباهتة ـ ربما لقدمها ـ تتعذر رؤيتها بسهولة ، كما يتعذر تصويرها إلا بوضع الطباشير عليها . وكذلك الأمر فيما يتصل بالنقوش على الصخور الكربونية القائمة .

وقد لوحظ أن هذه النقوش تكون على اللوحات الصخرية في الأماكن البارزة من الوديان الكبرى التي تستخدم أماكن عبور مثل وادي عدي الذي يقع بين روي وسيح حطاط ، ووادي بني خروص فوق العوابي مباشرة ، أو وادي السحتن فهذه وديان تربط خارج عمان بوديان داخلية مأهولة نسبيا بالسكان أو أحواض واقعة بين الجبال . وقد يتصادف وجود هذه اللوحات الكبيرة في هذه الوديان مع مواقع المعسكرات أو ينابيع المياه .

وهناك مجموعة أخرى من نقوش الصخور تفسير توزيعها أكثر صعوبة ، كتلك التي في وادي رجمى ووادي بني رواحة ، فهذه وديان صغيرة لا تفضي إلا إلى

مراع للماعز على مرتفعات شاهقة شديدة الانحدار ، وإلى مياه فلج من الأفلاج (نوع من قنوات الري تسري بين منبعها في الجبال حيث تتجمع مياه الأمطار حتى تنتهي إلى سهل ترويه ، وعادة ما تكون أجزاء منها قد حفرها الانسان ثم غطاها لتمر المياه في باطن الأرض ثم تعود تظهر أجزاء أخرى منها كقنوات مفتوحة) تؤدي عادة إلى قرى وحدائق منتشرة على شكل مراوح غرينية . وفن النقش على الصخر في مكان مثل صخرة كولمان في التلال التي تقع عبر وادي بهلا فريد في تنوعه وثروته . فالأشخاص الذين رسموا هذه الصور لا بد أنهم قصدوا مثل هذا المكان لأسباب لا نستطيع فهمها جيدا إلا إذا فهمنا الفن نفسه .

وهذه الملاحظات لا تنطبق على كل النقوش الصخرية فهناك حالات أقل شأنا كتلك اللوحات الصغيرة التي يمكن العثور عليها في أماكن كثيرة غير مطروقة نجد عليها نقوشا مثل الناس والحيوانات العصرية ونقوش الخط العربي .

ويمكن تقسيم هذه الأشكال إلى مجموعات من أبرزها الأشكال الانسانية والأشكال الحيوانية وأشياء تتعلق بالانسان كالأسلحة والملابس ثم هناك مجموعات السفن والكئوس والثقوب وأخيرا الكتابة ، بالاضافة إلى ما يبدو أنه أشكال عبثية .

أما الأشكال الانسانية فمن أكثرها لفتا للانتباه تلك الأشكال ذات الخصر النحيل حيث يمكن تلقيبها بالأشكال ذات الهرمين : هرم سفلي معتدل وهرم علوي مقلوب يلتقيان عند الخصر النحيل . وأذرع معظم هذه الأشكال مرفوعة رغم وجود بعض الاستثناءات . ويمكن أن تكون الرؤوس مستديرة أو مسطحة من أعلاها أو مستطيلة كرؤوس الطير . وفي بعض الحالات القليلة فإن الأشكال الانسانية تقبض بوضوح على شيء ما في أيديها . وهناك مجموعة كبيرة من الأشياء المرسومة المتصلة بوسط هذه الأشكال ، بعضها يبدو كما لو كان سيوفا أو خناجر ، بينما بعضها الآخر يمثل غمدا .

وهناك أشكال تجمع بين فأس الحرب وشجرة النخيل والانسان . وكأن الفنان أو الفنانين الذين نقشوها يبحثون عن الخلاصة المشتركة بين هذه الأشكال الثلاثة اشارة إلى ارتباطها ببعض في الحياة . وهي هنا خطان أحدهما رأسي مستقيم يمثل

ساق النخيل أو يد الفأس أو جذع الانسان ، والآخر أفقي عليه بانحناء قليل يمثل سعف النخيل أو سلاح الفأس أو ذراعي الانسان . وهذه الأشكال موجودة بكثرة في نفس المكان الذي فيه الأشكال العضوية للانسان خصوصا في وادي عدي .

وهذه الأشكال تجرنا إلى الحديث عن رسم أشياء تتعلق بالانسان منها الأسلحة القديمة ، فبالاضافة إلى فئوس الحرب هناك الرماح والدروع الكبيرة وفرسان بحرابهم وأقواس وأسهم وصولجانات وسيوف ودروع صغيرة . والدروع الصغيرة غالبا من نفس طراز الدروع التي لا تزال تستعمل في حفلات اللعب بالسيف المصنوعة من جلد وحيد القرن . وبعض الخناجر جديدة نسبيا .

وهناك كذلك تنويعة من الأثواب مثل المآزر وأغطية الرأس والخوذات ، وهي تساهم في معرفة تاريخ النقش على الصخر وتحديد مصادر التأثير .

أما المجموعات التي تمثل الحيوان فتشمل الثيران والقطط والثعابين والنسانيس والدواجن والأفيال والمها . ويحتل الوعل (وقريبة الطهر) مكانة خاصة بسبب نقش صورهما بطريقة متكررة ومتميزة . وبوجه عام تحتل صور الحيوان مكانا بارزا في النقش على الصخر في عمان . ولعل أكثرها تكرارا حيوانات الركوب كالجمل ، وأهم منه الحصان الذي يصورونه ممتلىء الجسم وأرجله مكسوة بالشعر الخشن ، ويكون أكبر بكثير من راكبه مما يعطي انطباعا أن الراكب أقل أهمية . أما الجمل فطوله مبالغ فيه برقبته الرشيقة وراكبه في وضعه التقليدي خلف السنام . بالاضافة إلى هذه الحيوانات المعروفة هناك بعض الأشكال تمثل حيوانات من نتاج الخيال .

وهناك مجموعات السفن ، السفن ذات الصواري وذات الأشرعة وذات المداخن ، السفن الواقعية التفاصيل والسفن شبه التجريدية . فعلى مدى قرون كثيرة سافر البحارة العمانيون فيما بين الهند وافريقيا الشرقية . ولا بد أن ما اكتسبوه من خبرة في هذه الرحلات كان له أثره الساحر على الكبار والشباب ، وعلى سكان الصحراء والجبال ، وعلى البحارة أنفسهم .

وهناك حفر صغيرة تشبه الكئوس ، اتساعها عدة سنتيمترات وعمقها يتراوح

بين بضعة ملليمترات وسنتيمترين ، وتكون أحيانا متصلة بأخاديد أو قنوات على أسطح صخور مسطحة أو مائلة قليلا . وهي شائعة في عمان شيوعها في أوروبا ، ويتراوح عمرها ما بين العصر الحجري الحديث إلى العصر البرونزي . وهي توجد في عدة أماكن في عمان ، منها وادي بني خروص على لوحة كبيرة بالقرب من جامع صغير ، وفي وادي السحتن عند أحد الينابيع الحارة ، وفي وادي العين بالقرب من أمل ، وجبل الغول ووادي عندام على صخور كربونية متعددة ، وشمال شرقي نخل على لوح حجري ، ووادي ريام تحت الممر الضيق . وهناك بعض السمات التي تميز هذا النوع من العلامات في عمان : فبعض الكئوس مخروطية قليلا وذات ثقوب أسطوانية وجدران ملساء كأنما خرطتها مخرطة قطرها يتراوح ما بين عشرين وخمسة وعشرين سنتيمترا وعمقها يتراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين سنتيمترا ، وفي وادي السوي كأس قطرها خمسون سنتيمترا وعمقها سبعون . وهذه الكئوس إما في مجموعات وإما منفردة .

وهناك نوع مختلف تماما من الحفر أو العلامات على الحجر بعضها حديث وهو عبارة عن أثر حجارة ألقيت باليد أو بالمقلاع (النبلة) أو طلقات موجهة إلى أهداف جذبت أنظار الذين تسببوا في هذه العلامات على مر العصور . وكانوا يوجهون أهدافهم نحو أجزاء متحجرة في الحجر الجيري ، وثقوب أو أشكال محفورة . وقد وجد أن منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٢,٥ متر مربع قد تلقت ما يزيد عن عشرين ألف طلقة رصاص أو طلقة مقلاع على مر السنين ، وعند مدخل أحد الكهوف في وادي عدي توجد آثار مئات آلاف الطلقات . ومن أسباب هذه العلامات التقليد القديم عند السفر إلى الحج وهو رسم الشيطان على الصخور ورجمه بالحجارة .

بالاضافة إلى الأشكال والعلامات هناك أيضا كتابات كثيرة ، أكثرها يبدو حديث العهد بقلم ستيل دقيق ، وكلها موجودة على جانب الجبل في وادي بني خروص ، ويبدو أن بعضها كان يدون أحداثا تاريخية وبعضها الآخر مما يكتب على شواهد القبور حيث نجد اسم المتوفي وتاريخ الوفاة . وكلها باللغة العربية .

وهذا يقودنا إلى محاولة تحديد عمر هذه النقوش . فوجود تاريخ أو كتابة

مؤرخة تمدنا بأحسن وسيلة لتاريخ هذه النقوش الصخرية ، وهذا النوع محدود بالفترة الاسلامية العربية . ثم هناك درجة الوضوح فهي وسيلة تقريبية ونسبية لتحديد العمر ، ولكن المؤلف ينبه إلى أنه يجب ألا يغيب عن البال أن الصخور الكربونية لا تبهت كلها بطريقة واحدة ، كما أن سقوط الأمطار في مواقع مثل الوطية أو الجزء المنخفض من وادي عدي أقل ثلاث أو أربع مرات من الأماكن المنبسطة المرتفعة في وادي حلفين . بالاضافة إلى ذلك فإن الظروف المحلية يمكن أن تؤثر كذلك كوجود سيول تسببت في تآكل رأس وعل وذيله . والأفلاج المفتوحة (القنوات) المعروف تاريخها والممتدة بحذاء الصخور التي عليها تلك النقوش يمكن أن تمدنا بالحد الأدنى لعمر هذه النقوش . وهناك طريقة التأريخ عن طريق مقارنة الأشكال ببعضها في اللوحة الواحدة . وأخيرا هناك ظاهرة أخرى قد تكون خلف التنوع المتعدد لعصور فن النقش على الصخر في موقع واحد ، ذلك أن نقش صورة في مكان ما يوما ما يغري بنقش صورة أخرى أو شكل آخر بجوارها . فالنقش يغري بالنقش .

***

وهكذا نجد أن هذه الثروة الغنية البدائية منجم لا ينفد لفناني عمان التشكيليين المعاصرين ، ولعله يوجد مثلها في دول الخليج الأخرى ، بحيث يمكن للفنانين الخليجيين عند محاولاتهم التمرد على الأساليب التقليدية للفن التشكيلي أن يستلهموا تلك المرحلة الفنية التي تضرب بجذورها في أعماق بلادهم ، بدلاً من استلهام المذاهب الغربية التي تبدو أنها نشاز مصطنع وانها مجرد تقليد لا ابتكار فيه ولا ريادة ، على نحو ما أحسست عند ما شاهدت بعض اللوحات السريالية والتجريدية والتكعيبية في بعض معارض الفن التشكيلي الخليجي . بذلك يضيفون إلى تراثهم الفني اضافة حقيقية بل ويقدمون مساهماتهم إلى التراث العالمي .

فجر الفنون التشكيلية فى عمان

عمان بلد ناهض لا يزيد عمر نهضته عن خمسة عشر عاما حين قام السلطان قابوس عام ١٩٧٠ بنهضته فأتاح لعمان أن تساير التطورات الحديثة التي كانت قد تأخرت عنها اذا قورنت ببقية دول الخليج .

واستجابة لتوجيهات جلالته احتفلت عمان عام ١٩٨٣ بعام الشبيبة ، كما أنها تحتفل في شهر نوفمبر من كل عام بعيدها الوطني إحياء لذكرى نهضتها . ومن بين الأنشطة التي توليها الدولة عنايتها للشباب تشجيع المواهب الفنية لا سيما في مجال الفنون التشكيلية . وقد أقيم بمناسبة الاحتفالات الوطنية ذلك العام معرضان أحدهما للتصوير الفوتوغرافي والآخر للتصوير الزيتي والنحت .

وعمر الفنون التشكيلية في عمان قصير ، وذلك إذا جاز لنا أن نعتبر أن مولدها في أغسطس عام ١٩٨٠ عندما افتتح المرسم العماني للشباب من الجنسين في العاصمة مسقط . وهو مرسم تابع للمديرية العامة لشئون الشباب بوزارة التربية ، وقد زودته بالخامات اللازمة والأدوات الفنية التي يحتويها أي مرسم متطور .

ويلتحق بالمرسم عدد كبير من الشباب والشابات ، يتدربون ويمارسون هوايتهم في حرية لأن الحضور والانتظام خاضع لرغبات المنتظمين وظروف عملهم وهم ثلاث فئات : المبتدئون ويتم تدريبهم بصفة منتظمة ، وهؤلاء تتراوح أعمارهم بين ١٢ ، ١٨ سنة . وهذا السن بطبيعة تكوينه ليس له الخبرة الكافية

خاصة في مجال كهذا . وهم يتدربون على الدراسات الأكاديمية الأولية والرسم بالقلم الرصاص والفحم والألوان المائية والباستيل الشمعية لموضوعات مستوحاة من النماذج المجسمة والطبيعة الصامتة وحركات جسم الانسان ، ثم هناك المتوسطون ويتدربون على رسم تفاصيل الأشياء بجانب استخدام الألوان الزيتية في عمل موضوعات مبسطة عن البيئة العمانية . أما المتقدمون فهم فئة من الفنانين التشكيليين المنتسبين للمرسم والذين يترددون عليه من حين لآخر لاكتساب مزيد من الخبرة . ويتدربون على ممارسة الفن من خلال الأساليب الفنية المختلفة بهدف الابتكار والتعبير عن موضوعات تعكس مشاعرهم وأحاسيسهم .

وبجانب التدريب العملي هناك الدراسات النظرية كالنقد الفني والجمالي وتاريخ الفن وسير الفنانين التشكيليين والتعريف بأعمالهم الفنية ، بهدف رفع مستوى التذوق الفني عند المترددين .

كما أن هناك قسما آخر خاصا بالنحت ، وإن كان عدد المترددين عليه قليل . ولكن ما شاهدناه في المعرض الرابع للفنون التشكيلية من تماثيل يعتبر في مستوى طيب .

وقد أقام المرسم على المستوى المحلي سبعة معارض حتى ذلك العام أولها بمناسبة العيد الوطني العاشر في نوفمبر ١٩٨٠ وثانيها بمناسبة انعقاد مؤتمر وزراء الاعلام لدول الخليج العربية في مارس ١٩٨١ . والثالث بمناسبة العيد الوطني الحادي عشر في نوفمبر ١٩٨١ والرابع معرض الشباب المتنقل للفنون التشكيلية بنزوى التي تبعد مائتي كيلومتر غرب العاصمة مسقط داخل عمان ، أما المعرض الخامس فكان في صلالة في جنوب عمان ، أما المعرضان السادس والسابع فهما معرض التصوير الفوتوغرافي ومعرض الفنون التشكيلية والنحت اللذين أقيما هذا العام .

كما اشترك المرسم العماني على المستوى الدولي في سبعة معارض أخرى هي : معرض المهرجان الثقافي لدول الخليج العربية في باريس ١٩٨٠ ـ معرض الكويت

السابع للفنانين التشكيليين العرب عام ١٩٨١ ـ معرض الخليج العربي الثاني للفنون التشكيلية في بغداد ١٩٨١ ـ معرض الكويت الثامن للفنانين التشكيليين العرب ١٩٨٢ ـ معرض الفنانين العمانيين للفنون التشكيلية بالكويت ١٩٨٠ ـ معرض الفنانين الكويتيين للفنون التشكيلية بمسقط ١٩٨٣ ـ معرض الفنون التشكيلية في الدوحة بقطر الذي أقيم بمناسبة انعقاد الدورة الرابعة للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في نوفمبر ١٩٨٣ .

وقد أقيم معرض التصوير الفوتوغرافي ـ وهو الأول من نوعه في عمان ـ من ٢٢ ـ ٢٨ أكتوبر ١٩٨٣ بفندق الانتركونتيننتال الذي يطل على مياه الساحل مباشرة وقد اشترك فيه ثلاثة فنانين هم محمود يوسف علي آل مكي وأنور خميس سونيا وموسى صديق المسافر وكان بالمعرض ١٢٥ صورة ، وقامت وزارة التراث القومي والثقافة بدفع نفقات إقامة المعرض ما بين حفل الافتتاح وطبع الدعوات وكتالوج المعرض وتأجير القاعة . وقد تناولت معظم الصور البيئة العمانية ما بين تصوير الأشخاص إلى تصوير الطبيعة والمباني الأثرية . وقد لفتت نظري صورة لمسجد سيدي المرسي أبو العباس بالاسكندرية لأنور خميس سونيا وقد علمت منه أنه تلقى تعليمه في كلية الفنون الجميلة بالزمالك بالقاهرة .

وأنور خميس سونيا مولود بالبحرين عام ١٩٤٨ وحاصل على دورة تدريبية في الرسم من بريطانيا عام ١٩٨٢ وقد حصل على أكثر من ميدالية وشهادة تقديرية في مجال الرسم . ولعل من أجمل صوره الوجوه العمانية المعبرة أبلغ تعبير مثل : وجه عماني ، ورجل من السيب ورجل من مسندم ، وامرأة عمانية . وكذلك تصويره لمصارعة الثيران (وهي لعبة شعبية عمانية ولكنها بين الثيران) ولقطاته تدل على الحركة التي تكاد تدب في الصورة . وقد اشترك في المعرض بخمسة وأربعين صورة .

أما محمود مكي فقد اشترك بثلاثة وسبعين صورة وهو مولود عام ١٩٥٨ بمطرح وحاصل على دبلوم تجاري من مركز التدريب المهني ويعمل اداريا لمرسم الشباب ،

ومن أجمل صوره القلاع التي تكثر في أنحاء عمان وهما قلعتا ميراني وجلالي الشهيرتين في مسقط واللتين بناهما البرتغاليون في نهاية القرن السادس عشر وكذلك صورته تقليم النخلة .

أما موسى صديق المسافر فقد اشترك بسبع صور .

معرض عام الشبيبـة العمانيـة للفنون التشكيلية .

معرض عام الشبيبة العمانية للفنون التشكيلية

أقيم معرض عام الشبيبة العمانية للفنون التشكيلية في نوفمبر ١٩٨٣ بمناسبة الاحتفال بالعيد الوطني الثالث عشر لعمان واشتركت فيه دول مجلس التعاون الخليجي وأندية السلطنة بالاضافة إلى المرسم العماني . وقد اشتمل على أكثر من ١١٠ لوحة من بينها ٩٧ لوحة للفنانين العمانيين والباقي لوحات لفنانين من كل من البحرين وقطر والكويت والمملكة العربية السعودية والامارات العربية المتحدة .

وقد تناولت اللوحات المقدمة في المعرض الحياة الانسانية في منطقة الخليج ما بين المناظر الطبيعية والعادات والشباب والشيخوخة والريف ومراكب الصيد والمباني التاريخية كالقلاع . . الخ .

ومعظم اللوحات تنتمي إلى المدرسة الواقعية ، بينما قلة منها تنتمي إلى المدرستين التجريدية والسريالية .

وقد كتبت رابحة بنت محمود ـ وهي إحدى الفنانات المشتركات في المعرض ـ في جريدة عمان تقول انه منذ المعرض الأول في العيد الوطني العاشر (أي عام ١٩٨٠) وشباب العمانيين التشكيليين في سباق مع أنفسهم ومع الزمن للوصول إلى الأحسن وقد أخذت شخصياتهم تتبلور وتتميز حتى لتستطيع أن تتعرف على كل فنان من أسلوبه وألوانه واختياره موضوعاته وطريقة تنفيذها . ولعلها تتحدث عن لوحاتها أيضا التي يمكن تمييزها بسهولة .

ومن الفنانين العمانيين الذين اشتركوا في هذا المعرض الفنان محمود يوسف آل مكي المولود عام ١٩٥٨ والذي سبق أن اشترك في معرض التصوير الفوتوغرافي مع اثنين من زملائه هما أنور خميس سونيا وموسى صديق المسافر والذي سبق أن أقيم قبل أسابيع من إقامة هذا المعرض (في أكتوبر ١٩٨٣) . وهو ما يزال هنا ينتمي إلى المدرسة الواقعية كما في لوحته «راحة بعد العناء» . أما ياسمين محمد سالم التي ولدت عام ١٩٥٧ فقد التحقت بالمرسم عام ١٩٨٠ وحصلت على كثير من الجوائز واشتركت في المعرض بلوحتها «تحت الظلال» التي نجحت فيها في خلق علاقات هادئة بين الألوان والخطوط ، ورغم ما في الصورة من واقعية إلا أن ألوانها التي تتكون أساسا من تدرجات الأزرق الفاتح تضفي عليها جوا خرافيا . وغصن منصور الريامي المولود عام ١٩٦٠ والملتحق بالمرسم عام ١٩٨٠ يتناول التاريخ العماني ممثلا في القلاع العمانية الشهيرة مثل قلعة سليمان بن حمير التي رسمها تحت عنوان «ظلال وأضواء» . ومن النحاتين العمانيين المشتركين في المعرض سليم سالم عبيد المولود عام ١٩٦٣ في تنزانيا بافريقيا وأيوب ملنج اللند المولود عام ١٩٥٥ بالبحرين ومن أعماله : المعلم ـ القلعة ـ حصان ـ تيقظ . ومن الواضح أنها أعمال مستوحاة من البيئة العمانية .

ومن الجدير بالذكر أن معظم العمانيين الذين شاركوا في المعرض تتراوح أعمارهم ما بين السادسة عشر والسادسة والعشرين إلا فيما ندر وهذا أمر طبيعي لحداثة حركة الفنون التشكيلية في عمان . ومعظم الأكبر سنا ممن سبق لأهلهم أن هاجروا إلى ساحل افريقيا الشرقي الذي كان تابعا لعمان فيما مضى حيث ولد الفنانون هناك ، ثم عادوا بأولادهم إلى عمان بعد نهضة عام ١٩٧٠ . ولا شك أن فترة قضاء طفولتهم في ساحل افريقيا الشرقي قد أضفت عليهم مؤثرات ثقافية وانطباعات بيئية انعكست على اتجاههم نحو هذه الهواية أو تنمية هذه الهبة وعلى مستواهم فيما يقدمون من أعمال . وإن لم ينعكس كثيرا على موضوعاتهم .

أما شباب دول مجلس التعاون الذين شاركوا بأعمالهم في المعرض فمنهم الفنان حميد خزعل من مواليد ١٩٥١ وهو حاصل على بكالوريوس كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٨٠ قسم التصوير وأسلوبه سريالي . ومن دولة قطر شارك

الفنان سلمان ابراهيم المالكي من جمعية قطر للفنانين التشكيليين وهو من مواليد ١٩٥٨ وأنهى دراسته للفن في القاهرة وتخصص في ممارسة فن الكاريكاتير في الصحف ، وتناولت لوحاته موضوع اشتعال لهيب الحرب اللبنانية الطائفية التي أتت على كل شيء . وقد صرح لجريدة عمان أن إقامة هذا المعرض كان استجابة لأحد اقتراحاته التي تقدم بها وأنه كان للاخوة المسئولين في سلطنة عمان فضل السبق في تحقيق هذه الفكرة ، وهو يأمل أن يتكرر مثل هذا المعرض مرة أخرى ، بل أن يخرج من اطار دول الخليج إلى الدول العربية ثم الدول الأوروبية ، بمعنى أن يكون تحت راية مجلس التعاون الخليجي .

كما شارك في المعرض الفنان السعودي ناصر عبدالله الموسى وهو يمارس الرسم التعبيري لجريدة الرياض السعودية ، ويتميز باستخدامه للحرف والرقم العربي . وقد عرض احدى لوحاته الحديثة في المعرض .

بقيت كلمة أوجهها للاخوة العمانيين الذين يحاولون التمرد على الواقعية فيلجأون إلى مذاهب يشعر المتذوق أنها غريبة عن بيئة الفنان وأنها مصطنعة ، بينما هناك منهل تراثي عظيم يستطيعون أن ينهلوا منه وهو فن النقش على صخور عمان ، وهو فن بدائي عظيم يمكن أن يستلهم منه فنانو اليوم العمانيون أساليب تلبي حاجتهم إلى التمرد على الواقع ، وهي في الوقت نفسه أساليب ضاربة بجذورها في أعماق التراث العماني . . بل في صخوره .

محمد بن سالم الوضاحي مصور البيئة العمانية

محمد بن سالم بن علي الوضاحي
مصور البيئة العمانية

من قلب عمان ، ومن أعماق تربتها خرج مصورنا الشاب . فقد ولد عام ١٩٥٩ في بلدة سمد الشان ، تلك المدينة العمانية التي كثيرا ما يذكرها المؤرخون العمانيون حيث شهدت كثيرا من معارك القبائل والغزوات الخارجية على مدى التاريخ العماني الطويل ، وهي تقع بالداخل في المنطقة الوسطى (الشرقية سابقا) وتبعد عن مسقط بحوالي ١٥٠ كم .

وقد تردد الطفل محمد على الكتّاب حيث تعلم القرآن وحفظه . ويعود المصوّر الشاب إلى ماضيه ليستعيده ويقول «انتقلت إلى مدرسة أخرى تعلمت بها مبادىء الحساب واللغة العربية والشئون الدينية كالصلاة والزكاة وغيرهمابحفظها حفظا وذلك لمدة أربع سنوات ، وكانت تلك المدرسة قد أقيمت بأموال أهل البلد أي مدرسة غير حكومة ، بها حوالي سبعين طالبا . وأذكر أن كل الكتب الدراسية وقتها كانت بأقلام عمانية لكنها مطبوعة في القاهرة . ومن بين هذه الكتب كتاب (المُلِحَة) ـ بضم الميم وكسر اللام وفتح الحاء ـ وهو كتاب لغوي ، ثم (ألفية ابن مالك) لحفظ قواعد اللغة شعرا ، و (جوهر النظام) وبه آلاف الأبيات من الشعر في جميع مسائل الفقه .

ولم أكن أخرج من قريتي إلا مرة واحدة إلى العاصمة وذلك لصحبة والدي ليبيع التمر والليمون ثم يعود بالأرز والبن للتجارة فيهما وبتموين البيت . وقد أكسبتني رحلات الوالد خبرة ، وكانت قد سبقت له التجارة مع ساحل افريقيا والهند

وباكستان لمدة ٣٧ سنة . وكانت وقتها الطرق غير آمنة ، ولهذا علمونا كيف نحمل السلاح ونستعمله ، وهو خنجر وعصا داخل البلدة وبندقية ورصاص احتياطي خارجها . والآ نحمل السلاح كزينة في العرس والأعياد ، ولاصابة الأهداف كهواية .

وفي احدى هده الرحلات إلى العاصمة قرر والدي إدخالي المدرسة الابتدائية بها ، وذلك عند ما رأيت بعض الصغار في زيهم المدرسي يحملون كتبهم فأحببت أن أكون مثلهم ، وكانت عندي رغبة في الدراسة . وقام الوالد بالتغلب على الصعوبات حتى نجح في إدخالي المدرسة الابتدائية في أواخر الستينات وإلى عام ١٩٧٤ حيث حصلت على الشهادة الابتدائية . وكنا ندرس اللغة الانجليزية من السنة الأولى الابتدائية مما جعلنا نجيد هذه اللغة .

وبعد ذلك التحقت بشركة تنمية نفط عمان كموظف إداري في فهود لمدة خمس سنوات ، وكان عمري وقتها ١٥ سنة . ثم قررت تكملة الدراسة مسائيا فانتسبت إلى مدرسة روي الاعدادية ، كما انتسبت إلى المعهد الثقافي البريطاني بمطرح حيث درست لمدة عامين اللغة الانجليزية وحصلت على شهادة الدراسة المتوسطة والشهادة الأولى في اللغة الانجليزية .

وبعد انتقالي من فهود إلى مسقط اشتغلت بوظيفة مصور . وفي هذه الأثناء حضرت دورة قصيرة في لندن للاطلاع على كل ما هو جديد في التصوير ، وللتفاعل مع بعض الأفكار الجديدة ، حيث أن التصوير مجال مفتوح يتغير وينمو باستمرار بل يتطور يوميا .

وأثناء دراستي بالعاصمة بدأت أقرأ الصحف وأرى ما بها من صور . اكتشفت أن الصور تشدني أكثر من المقالات ، فأخذت أهتم بكيفية تصوير الناس وكيفية تحميض الصور ثم طبعها على الورق ، وشيئا فشيئا وجدتني مشدودا لتصوير الأهل والأصدقاء والمعالم التاريخية بعد أن اشتريت آلة تصوير بسيطة بما ادخرته من مصروفي خصيصا لذلك ، فسلطنة عمان لها تراث عميق وعادات وتقاليد تشهد

بذلك القلاع والحصون التي ثملت ببطولات العمانيين وارتوت بدمائهم وهم يحررون البلاد من كل من حاول أن يحتلها . كل هذه المعالم شدتني وجعلتني أحلم بنقلها وحفظها في صور معبرة .

كذلك العادات العمانية في الأعياد والمناسبات كالأعراس والختان والحج تجذب من له هواية التصوير لأنه يحب أن يسجل كل ذلك لا سيما وأن هذه العادات بدأت تختفي بسبب المد الحضاري الحديث ، كما بدأت بعض القلاع تنهار وإن كانت وزارة الثقافة والتراث القومي تحاول جهدها الابقاء عليها ، ولكن يبقى هناك الكثير مما يحتاج إلى إنقاذ سريع . كل هذه الأشياء أردت روايتها بالعدسة للأجيال القادمة ، لأن العدسة قد تحفظ للتاريخ ما لا تستطيعه الوسائل الأخرى .

أصور في الشهر حوالي مائة صورة خاصة كهواية تكلفني الكثير ، وحوالي ألف صورة لجريدة الشركة التي تصدر مرة كل أسبوعين ومجلة أخبار شركتنا التي تصدر مرة كل ثلاثة شهور وبعض النشرات الأخرى ، وكذلك تزويد الجرائد المحلية لتغطية بعض الأحداث الصحفية الخاصة بوزارة النفط والمعادن وبشركة تنمية نفط عمان .

وفلسفتي من التصوير بكل بساطة هي الامتاع الفني ، وتصوير البيئة العمانية وتسجيلها كتراث خوفا عليها من الضياع أو التغيير أو الانقراض .

وأنا أفضل تصوير جلالة السلطان ساعة وقوف الكل عند السلام السلطاني .

كما أفضل أن أصور القلاع من خلال نوافذ قديمة أو مداخل رئيسية حتى تكتمل الصورة التراثية من ناحية وحتى تظهر القلعة كأنما من خلال إطار من ناحية أخرى .

كما أحب أن أصور الناس وهم على طبيعتهم وليس بعد أن يتهيأوا تهيئا مصطنعا ، لأنني بذلك أصورهم وهم يعبّرون عن أنفسهم تعبيرا صادقا طبيعيا .

أما اللقطات القريبة فأستخدمها للوجوه المعبّرة ولكن من بعيد باستخدام عدسات مقربة حتى لا يشعر الشخص أني أقوم بتصويره . وأستخدم اللقطات

الأبعد للمجموعات كما في احتفالات الأعياد والأعراس والتقاط مجموعات الأطفال والحيوان .

وتختلف زاوية اللقطة باختلاف موضوع الصورة والمعنى الذي أريد أن أضيفه عليها . فمثلا في صورة الشباب الذين يتناولون أكلة العيد أردت أن أقدم للمشاهد صورة شاملة لهذه الأكلة العمانية أو الخليجية الشعبية التي تؤكل قبل صلاة العيد ، فجعلت الكاميرا تشرف عليهم من مكان أعلى مما أتاح للمشاهد رؤ ية حركة تناول الطعام من جميع جوانب الصورة وفكرة التناول الجماعي لتلك الأكلة الشعبية المسماة (العرسية) دون تصوير وجوه أشخاص بعينهم .

أما اللقطة من أسفل فحين أريد أن أصور القلاع أو النخيل للتعبير عن مدى عظمتها وجلالها وقيمتها ، فالقلعة كانت تحمي أمن القرية ، والنخلة كانت المصدر الغذائي الأساسي والتجاري في عمان قبل ظهور النفط ، وكثيرا ما وقفت بجانب العماني وقت الشدة ، كما أن لها احترامها الديني إذ وردت في القرآن الكريم .

تقول ولماذا لا أصور آبار النفط وحفاراته ولحظة تدفقه من البئر وقد أصبح اليوم الأساس التجاري للبلاد . وأقول لك إنني أريد أن أصور أولا ما هو في طريقه إلى الزوال ثم ما تنفرد به عمان ويقدم شخصيتها . فالنفط مشترك بين دول كثيرة ، عربية وغير عربية . ومع ذلك فإن لي لقطات لأجهزة الحفر لها خلفيتها الجمالية التي أحرص على أن أبرزها من خلالها ، وتعتبر هذه اللقطات ملكا للشركة التي أعمل بها وقد سبق أن نشرت في صحافتها . كما أن لدي مجموعة كبيرة من هذه اللقطات ـ أبيض وأسود ـ سبق نشرها في جريدة (تايمز أوف عمان) ولكن هوايتي الحقيقية مع تصوير ما قبل النفط .

أثناء الدورة التدريبية التي حضرتها في لندن تعرفت على مصورين بريطانيين محترفين لديهم شركات عالمية للتصوير مثل جون لورنس وجون ريثبون وبور الكوك ، وقد عايشتهم فترة لاكتساب مهارات فن التصوير وإن كنت أعتقد أن لي أسلوبي الخاص بي وأنني لا أتبع منهجهم في التصوير . كما أني أشاهد معارض الصور كلما

أتيح لي ذلك ومن بينها تلك المعارض التي يقيمها جيم برلز وهو مصور هاو بشركة تنمية نفط عمان منذ الستينات ، ويعجبني اختياره الجيد للقطاته وميله لتصوير التراث العماني والبيئة العمانية .

وأول دولة عربية زرتها كانت مصر عام ١٩٧٦ حيث قمت بتصوير الأهرام وأبي الهول ، وأعجبني أن خلفيته كانت الأهرام مما أضفى عليه العظمة ، وأعتقد أنه لو كان أبو الهول وحده بدون الأهرامات لأضعف ذلك من أهميته ، وهنا دور الفنان أن يحرص على هذا الترابط بين الأهرام وأبي الهول ويبرزه في لقطة مما يضيف رؤية جديدة لأبي الهول لا يمكن الحصول عليها إذا صورته منفردا . وأعجبني في مصر طيبة شعبها وبساطتهم ومثابرتهم . كما قمت بزيارة بعض دول الخليج مثل دولة الامارات وقطر والبحرين ، ولم الاحظ أي فرق عن عمان في هذه البلاد لتقارب عادات السكان الذين هم في الواقع شعب واحد . وبعد ذلك سافرت إلى بريطانيا لحضور دورة في التصوير وكان ذلك في بداية الشتاء ، وقمت فيها برحلات داخلية ، كما زرت الشرق الأقصى : الهند وتايلاند والفلبين وهونج كونج وسنغافورة ، والتقطت في هذه الرحلة ١٠٨٠ صورة ملونة وحوالي ٢٠٠ شريحة و ٢٥٠ صورة أبيض وأسود . وكان أهم ما يجذبني في هذه الرحلات هو المعالم التاريخية في البلاد التي زرتها مرتبطة ببيئتها المحلية وطبيعتها الخلابة كالخضرة والشلالات والسحب والأنهار التي تشتهر بها بعض هذه البلاد ، فمثلا في الفلبين تتبعت بالصورة نهرا حتى منابعه التي يتساقط منها الماء في انحدار عنيف مكونا شلالات ، وأمضيت يوما كاملا في رحلتي الذهاب والاياب والتصوير والاستجمام .

وفي عام الشبيبة عام ١٩٨٣ أعلنت وزارة التراث القومي والثقافة عن إقامة مسابقة في التصوير . فكرت في الاشتراك فيها ولكني كنت مترددا . وفي آخر يوم في آخر ساعة تقدمت باثنتي عشرة صورة فازت منها احدى اللقطات التي تصور مجموعة من الطلبة في مسيرة شعبية بمناسبة عام الشبيبة في بلدتي سمد الشان .

وأحب الألوان إليّ الألوان الهادئة ، لهذا فإن أفضل أوقات التصوير عندي ساعات الشروق والغروب ، فأنا أرتاح لألوان الطبيعة في هذين الوقتين . كما أني

لا أحب المساحات الفارغة الواسعة في الصورة بل يعجبني دائما أن يكون هناك تشكيل يملأها مثل السحب بالنسبة للسماء وانعكاسات الأشجار أو الجبال أو حتى تجعدات الموج بالنسبة للمـاء . وإذا كان هناك فراغ في الصورة فإنه لا يكون فراغا جماليا إذا ظل ممتدا حتى نهاياتها بل أفضل أن يوازنه ـ ولو في ركن قصي ـ جماد أو كائن حي مهما ضؤل حجمه» .

***

إن محمد سالم علي الوضاحي نموذج لجيل الشباب العماني الذي يتكون الآن ، تمتد جذوره وطفولته إلى عمان ما قبل النفط ، ولكنه عاش ويعيش شبابه فيما تلا ذلك من نهضة نقلت البلاد من القرون الوسطى إلى القرن العشرين . ففنه بين تلقائية موهبته ومهارة اكتسبها حين ساد بلاده مناخ موات لتلقي مثل هذه المواهب والترحيب بها بمجرد أن شب عن سنوات الطفولة . وهذه المرحلة المتشابكة لسنوات التكوين أفضت به إلى وضعه الفني الذي يتلخص في أنه إذا كان الحاضر حرفته (تصوير النفط وآباره وأجهزة حفره . .) فإن المـاضي ـ بكل ما فيه من جاذبية ورومانسية وعراقة ـ هوايته . لهذا فهو حريص على أن يكون مصوّر البيئة العمانية بكل جوانبها . إنه يصور الوجوه العمانية المعبرة : وجوه الكبار الذين ترك الزمن بصماته فوق جباههم ، ووجوه الأطفال والشباب بما فيها من براءة وحماسة وأمل . كما يصور المجموعات العمانية وهي تتعامل في حركتها اليومية أو وهي تمارس طقوسها أو تلهو في أوقات فراغها بألعابها الشعبية . كذلك تتبع عدسته معالم بلاده التاريخية وفي مقدمتها قلاعها وحصونها وطبيعة عمان الفريدة التي يتجاور فيها الجبل والمـاء ـ بحرا كان أو فلجا ـ والخضرة . إنه حريص على أن تبلور عدسته روح عمان بوجه خاص والطابع الخليجي بوجه عام سواء في البشر أو الشجر أو الحجر .

فجر المسرح العمانى

فجر المسرح العماني

أطلقت عمان على عام ١٩٨٣ عام الشبيبة طبقا لتوجيهات جلالة السلطان قابوس ، وفي نوفمبر من ذلك العام احتفلت البلاد بعيدها الوطني الثالث عشر إحياء لذكرى النهضة التي قام بها جلالة السلطان فنقل عمان خلال سنوات تعد على أصابع اليد من العصور الوسطى إلى قلب القرن العشرين ، وأصبحت الكلمة التي يسمعها الانسان على لسان كل عماني ممن شهد العهدين هي «كنا فين وبقينا فين» .

وبمناسبة هذه الاحتفالات قدم الشباب أنشطته في مختلف المجالات الرياضية والفنية والأدبية ، وكان المسرح أحد هذه الجوانب فقدم بفندق الانتركونتيننتال خلال شهر نوفمبر ١٩٨٣ مسرحيتين إحداهما غنائية هي «الطير المهاجر» والأخرى تاريخية هي «الراية» . ويبدو أن عمر التجربة المسرحية العمانية ـ ولا أقول المسرح العماني ـ لا تزيد عن ثلاث سنوات حين قدم الشباب العماني مسرحية تاجر البندقية لشكسبير في العيد الوطني العاشر عام ١٩٨٠ كما قدم عام ١٩٨٢ مسرحية الوطن ، وذلك من خلال فرقة الشباب ومسرح الشباب التابع لقسم المسرح بالمديرية العامة لشئون الشباب الذي يرأسه المخرج الفنان محمد الشنفري .

ولكن النشاط التمثيلي أوسع نطاقا من النشاط المسرحي ، فهو يبدأ عند بعض الشباب في المرحلة الدراسية ، ثم إن معظم الشباب الذين ينضجون على خشبة المسرح يعتبرون أن هذه مجرد مرحلة في حياتهم ، ينتقلون بعدها إلى الاذاعة والتليفزيون كما هو الشأن في معظم الدول الأخرى . حيث أن لهذين الجهازين قوة

إغراء مادية وأدبية وحيث أن المعروف أن الفنان ينفق وقتا أقل في التدريب على التمثيليات الاذاعية والتليفزيونية في مقابل عائد أكثر وشهرة أوسع إذا قورن بما يبذله من مجهود ووقت في التدريب على الظهور في إحدى المسرحيات وعلى ما يحصل عليه من عائد مادي وأدبي بعد ذلك .

ومؤلف مسرحيتي هذا العام كاتب واحد هو منصور مكاوي . ومخرج الطير المهاجر هو محمد الشنفري ، بينما مخرج الراية هو مصطفى حشيش .

أما المسرحية الغنائية «الطير المهاجر» فتدور حول حياة الفنان الشعبي المرحوم سالم راشد الصوري (نسبة إلى صور على ساحل عمان) . وبداية هذا الفنان الشعبي كانت مع بداية دراسته للقرآن الكريم وتأثره بالمناخ العام في صور باعتبارها ميناء هاما وملتقى تجاريا وكذلك ملتقى فنيا للشعراء والمطربين . ثم تزوج زواجا مبكرا إلا أن زوجته ما لبثت أن توفيت مما كان سببا في بداية هجرته إلى زنجبار التي كانت عاصمة لما يمكن تسميته بالامبراطورية العمانية يوما ما ، وذلك سعيا وراء الرزق والاستفادة من الآخرين في مجال الفن الذي عشقه منذ صباه . وقد صرح محمد الشنفري مخرج المسرحية لجريدة عمان (٥ نوفمبر ١٩٨٣) أنه من خلال ما تم جمعه من معلومات عن هذا الفنان الشعبي تبين أنه غنى أول أغنية له في زنجبار خلال جلسة كان يعزف له فيها العود مساعد له «ودراميا حاولنا أن نخلق علاقة انسانية بينه وبين العازف الذي أهداه عوده ، وكانت هذه الهدية دافعا كبيرا للفنان الشعبي لكي يوجه طموحه إلى تعلم عزف العود ، ولذا عاد مرة أخرى إلى مسقط رأسه ولاية صور وتعلم العزف على العود على أيدي الفنان حمد حليس وبعدها سافر إلى الهند واستقر فيها طويلا ، وإلى جانب عمله هناك كوّن فرقة وكان يقدم أعماله الفنية في الهند وباكستان . ثم تعرف على مجموعة من المطربين الخليجيين في بومباي وسجل أول اسطوانة له في الهند ، بعدها عاد إلى البحرين واحترف الفن وافتتح مؤسسة صغيرة باسم (اسطوانات سالم فون) . ويضيف محمد الشنفري قائلا : إن شهرة فناننا الكبير الحقيقية كانت في بداية الخمسينات في البحرين حيث اجتمع حوله المطربون والمطربات وكان يمدهم بالألحان بل ساعد الكثيرين على تسجيل أعمالهم في الهند وغذاهم بتجاربه .

وقد تعرضت المسرحية إلى هذه المراحل الانتقالية في حياة الفنان بدءا من سفره إلى زنجبار عام ١٩٣٠ ثم إلى بومباي التي سافر إليها الفنان حوالي عام ١٩٤٠ ، وهناك تصور لنا المسرحية الصراع الذي دار بين سالم كفنان والمادة كمصدر للرزق ولكن روح الفنان تأبى الرضوخ للسوق التجارية المسيطرة على الفن هناك ، فيقترض من أحد معارفه مبلغا من المال ليقوم بتسجيل اسطوانة له بصوته ، وبعد ذلك تنهال عليه العروض لاحتكار صوته لكنه يرفضها ويقوم بتأسيس شركة له . ثم يغادر الفنان الهند إلى البحرين وهناك يتأثر ويؤثر في الفن الخليجي . وعند ما يقوم جلالة السلطان قابوس بنهضته عام ١٩٧٠ يعود سالم راشد الصوري إلى بلاده مجددا عطاءه لها محاولا إبداع فن عماني خليجي ، ولكن القدر يأبى إلا أن يخطفه بعد أن حقق للأغنية العمانية شكلها المميز . وهكذا تنتهي أحداث المسرحية بوفاة سالم الصوري في مستشفى صور وأمامه حشد من العمانيين الذين قدموا لزيارته من مختلف أنحاء عمان وهو يحاول أن يودعهم بلحن ، وبينما كان يتهيأ لتناول العود من أحدهم رقد رقدته الأخيرة .

ويعترف محمد الشنفري أن مسرحية الطير المهاجر تختلف عن الأعمال التي قدمها مسرح الشباب العماني في الماضي لأنها لا تقوم على بناء درامي قوي حيث أنها تركز على حياة فنان كافح من أجل الوصول إلى المجد (جريدة عمان ١٧ نوفمبر ١٩٨٣) وقد أسند دور البطولة إلى الممثل محمد نور الذي لديه خبرات موسيقية كما أنه مطرب ويمكن القول أنه نجح نجاحا طيبا في الاقتراب من الشخصية التي أداها على المسرح .

أما المسرحية التاريخية «الراية» فتدور حول سيرة الامام الوارث بن كعب الخروصي من أئمة عمان في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . وتبدأ أحداث المسرحية بالفلاح البسيط المؤمن الوارث بن كعب إذ جاءه هاتف وهو في الحقل يقول له : اذهب إلى نزوى وأقم بها الحق . فحمل متاعه وذهب إلى نزوى حيث لاحظ أن رجال الشرطة يسيئون معاملة الأهالي بشكل مؤلم ، فتعارك مع شرطي منهم وهو يحاول أن يسلب حقوق الناس مما كان سببا لالتفاف الناس حوله ووصوله إلى الحكم

من أقصر الطرق ، وظل يحكم بالعدل إلى أن جاء غزو خارجي فأعد العدة وجمع الشمل وانتصر على الغزاة وأسرهم ، وكان من بين الأسرى قائد الغزو . ومن كثرة اهتمامه بالفقراء كان يبيع الخيول التي جاء بها الغزاة ويوزع ثمنها على الفقراء والمحتاجين . وقد أحزنه أن يقتل بعض جنوده غيلة قائد الغزاة الأسير دون علمه ، فدعا الوارث قائلا «يا رب خذني به واغفر لي بعفوك عنهم فهم بعد فتية» . ثم جاء السيل ليجرف أمامه كل شيء ، فسأل عن أسراه ، فأبلغوه أن السيل يجرفهم فاندفع لانقاذهم رغم صراخ الأهالي خوفا عليه ، لكنه لم يأبه بصرخاتهم ومات معهم في محاولات إنقاذهم .

يقول منصور مكاوي مؤلف (الرواية) : «إن المثل الذي تضربه المسرحية من خلال بطلها ـ والذي يتمثل في الأمانة ـ يصلح لكل زمان ومكان» ، (جريدة عمان ، ١٢ نوفمبر ١٩٨٣) . وهذه المسرحية باللغة الفصحى التي تتناسب تماما والمسرح التاريخي . وقام ببطولتها الشاب محسن علي الذي بدأ حياته الفنية في المدرسة ، ثم اشترك مع بعض إخوانه الشباب في تكوين فرقة مسرحية في بيت المرحوم سالم الصوري (بطل مسرحية الطير المهاجر السابقة) واشترك من قبل في تقديم مسرحية تاجر البندقية عام ١٩٨٠ كما قدم عدة أعمال في التليفزيون مع عدد من المخرجين من بينهم محمد الشنفري مخرج مسرحية الطير المهاجر ، وعبدالله اليعربي . ومثل مع عدد من الممثلين المصريين منهم المرحوم محمود المليجي الذي شجعه وأعطاه الثقة في نفسه (من حديث له في جريدة عمان ، ١٧ نوفمبر ١٩٨٣) .

وقد كان جميع المهتمين بالحركة المسرحية في عمان يشكون من عدم وجود مقر دائم لها ، مما جعل من المتعذر استمرار اتصالهم بعضهم ببعض وبالعمل المسرحي ، حتى تكرم جلالة السلطان قابوس بمكرمة سلطانية هي بناء مسرح للشباب في المجمع الرياضي ببوشر ، ولا شك أن إقامة هذا المسرح نقطة تطور في المسرح العماني الوليد .

قضية المسرح العمانى

قضية المسرح العماني

شاهدت واستمعت إلى ندوة تليفزيونية ناجحة عن قضية المسرح العماني ، ولعل دلالة نجاحها أنها أخصبت ذهني ، ولم تنته - بالنسبة لي على الأقل - بانتهائها من على شاشة التليفزيون .

ويمكن تلخيص القضية - كما فهمتها من الندوة - في النقاط التالية :

- قلة عدد المسرحيات المعروضة في العام مما لا يساعد على خلق مناخ مسرحي . فتذوق الفنون يأتي نتيجة لتربية عادات المتابعة المتصلة ، وينطبق هذا على فنون الأدب والموسيقى والفن التشكيلي انطباقه على المسرح . لهذا طالب الحاضرون بزيادة عدد العروض المسرحية .

- واذا كانت النقطة السابقة تتصل بعدم استمرار المسرح في الزمان ، فإن النقطة الثانية تتصل بعدم انتشاره في المكان . أي اقتصار المسرحيات القليلة المعروضة على العاصمة وعدم وجود مسارح اقليمية بالولايات . ولهذا فلا يوجد للوعي المسرحي قاعدة شعبية عريضة ، بل كأنما هو في جزيرة معزولة مما يؤدي إلى عدم تفاعله مع جذور المجتمع العماني ، يعطيه ويأخذ منه ، يرفه عنه ويستمد منه موضوعاته وقضاياه . ولهذا طالب المشاركون في الندوة بإيجاد مسرح متنقل على الأقل في هذه المرحلة .

- أما النقطة الثالثة فلو توفرت فلربما كانت قد حلت سابقتها ، ذلك أن المسرح

المدرسي لا وجود له . فالمعروف أن المسرح المدرسي ـ شأنه شأن بقية الفنون الأخرى ـ هو المنبع الذي تتكشف فيه المواهب ويكون حقل تجاربها الأول بحيث يستمر بعضها فيما بعد مرحلة الدراسة ، بينما تجرف البعض الآخر مشاغل الحياة ، وإن كان يستمر اتصالهم بهواياتهم المبكرة عن طريق القدرة على تذوقها . فمن الهوايات المدرسية إذن يتكون فنانو المستقبل وجمهورهم المتذوق على السواء .

ـ وإذا كان المسرح المدرسي لا وجود له ، فإن وزارة التربية والتعليم وشئون الشباب تقيم مسابقات سنوية في المسرح ، لكنها لا تطلب تصوير الفائز منها . ورجح المشاركون في الندوة أن ذلك قد يكون راجعا إلى ضعف الامكانات . وطالبوا أن يكون هناك اتصال مع الادارة التي تقيم هذه المسابقات بحيث إذا كانت هناك مسرحيات تستحق التسجيل والعرض على جمهور التليفزيون مثلا فإنه من الممكن عرضها على مسرح أكثر تطورا بحيث تصبح جديرة بتصويرها تليفزيونيا .

ـ ثم يأتي دور الأندية ، فهي يمكن أن تقوم بما لا تقوم به المدارس حاليا ، وإذا كان اهتمام معظمها منصبا على أنشطة رياضية في مقدمتها كرة القدم ، فإن أمامها مهمة أخرى لا تقل أهمية ، وتلك هي مهمة الكشف عن المواهب الفنية وتشجيعها وخلق ذوق عام للفنون ، أي مبدعين ومتلقين . ونوه الحاضرون أو خصوا بالذكر كلا من النادي الأهلي ونادي النهضة .

وتعرض المشاركون في الندوة لقضية النص المسرحي وعدم توفره ، وطالب البعض بالاستعانة بالنصوص المسرحية العربية والأجنبية إلى أن يتوفر النص العماني . وأنا أقترح ـ كحل لأحد جوانب هذه القضية ـ الاعلان سنويا عن مسابقة في المسرحية العمانية تكون بالتناوب سنة مسرحية تاريخية وطنية ، وسنة مسرحية اجتماعية . فقد عاب المتحدثون أن النصوص المعروضة ليس فيها قضايا اجتماعية تجذب جمهور المتفرجين وتجعلهم يحسون أن المسرح يعالج قضاياهم ، على عكس ما يرون في المسرحيات المؤلفة للتليفزيون . وأقترح أن تكون جوائز هذه المسابقة مغرية ومفتوحة لجميع العمانيين دون تقيد مشروط كأن يكون المشترك في احدى المراحل الدراسية أو لا يتجاوز سنا معينة لأننا نريد في هذه المرحلة من كل المواهب أن

تتقدم وتبرز . ويمكن أن تكون المسابقة من نوعين : مسرحيات ذات فصل واحد (مدة عرضها ساعة) كنوع من التدريب على كتابة مسرحيات أطول فيها بعد ، ومسرحيات ذات ثلاثة فصول (مدة عرضها سهرة كاملة) ، وتكون هيئة التحكيم على مستوى فني متخصص ، لا تتحرج عن حجب الجائزة إذا لم يكن هناك عمل يرقى إلى نيلها . وأنا واثق أن اللجنة ستضع في النهاية يدها على مواهب دفينة . والمعروف أن المسابقات هي عامل من عوامل إيجاد المناخ الذي من خلاله تزدهر الحركات الفنية ، فضلا عن الاهتمام المطلوب من المدارس والأندية حيث يمكن تشجيع الهواة وخلق مناخ الابداع والتذوق الفنيين .

- كذلك هناك مشكلة عدم توفر العنصر النسائي ، وأعتقد أن هذه مشكلة ترتبط بالتطور الاجتماعي وبانتشار التعليم وربما بوجود معهد للفنون المسرحية فيها بعد . ومثلها مشكلة عدم تفرغ الفنانين التي أثارها المشاركون في الندوة أيضا ، فهذا يرتبط إما بوجود مسرح دائم للدولة أو وجود جمهور يمول المسرح .

- لهذا عند ما طالب البعض بوجود مسرح خاص منافس لمسرح الدولة ، كان ذلك طموحا كبيرا مبكرا ، لأن المسرح الخاص لا يقوم إلا على أساس الربح ، وهذا لا يتوفر إلا بوجود جمهور ، وهذا ما شكا من غيابه المشاركون في الندوة . وهنا تثار المشكلة أيهما قبل الأخر : المسرح أم الجمهور وأيهما يخلق الآخر .

- ومقارنة بحركة الفن التشكيلي الذي له مقر أو مرسم يتجمع فيه الموهوبون والهواة وتتاح لهم فرص الكشف عن مواهبهم وتدريبها وصقلها وتلقي التوجيهات والارشادات التي تساعد على تطورهم ، فقد أجمع الحاضرون على المطالبة بوجود مقر للحركة المسرحية ، وأشادوا بما تكرم به حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم من بناء مسرح للشباب في المجمع الرياضي ببوشر . ولا شك أن اتمام هذا المسرح سيكون نقطة تطور في المسرح العماني الوليد لأنه سيكون منطقة تجمع وجذب للمهتمين بالمسرح ، يؤدي تجمعهم إلى تفاعلهم بعضهم مع بعض وإلى إبراز العناصر الموهوبة بحيث يسهل على المخرجين مثلا انتقاء من يصلحون لشخصيات مسرحياتهم بحرية أكبر ، كما يكون عاملا من أهم عوامل خلق ما أسميه .

المناخ أو الجو المسرحي . لكن الحاضرين طالبوا في الوقت نفسه بإقامة مقر مؤقت للمسرح إلى أن يتم إعداد المقر الدائم .

ولعل هناك نقطة هامة لم يتعرض لها المتناقشون تتصل بظروف خاصة بالسلطنة . ف مر نهضتها الحديثة قصير جدا إذا قيس بعمر نهضات الدول التي للمسرح فيها عراقته إبداعا وأداء وتذوقا . ولكن القضية لا تنحصر في مجرد انتظار الزمن ليحل القضية تدريجيا ، بل ان القضية الحقيقية هي أن النهضة جاءت في زمن أصبحت فيه وسائل الاتصال الجماهيري ـ سينما وإذاعة وتليفزيون على وجه أخص ـ هي الوسيط الذي يتلقى من خلاله الجمهور الواسع العريض مختلف الفنون الحركية ـ بما في ذلك الدراما ـ إلى جانب ما يتلقاه من أخبار ومعلومات وترفيه . . الخ ، أي في زمن بدأت فيه الشعوب التي للمسرح فيها عراقته ـ ولوسائل التثقيف الأخرى كالكتاب ـ تنصرف عنه لتنفق ما يتاح لها من أوقات الفراغ أمام شاشة التليفزيون لأسباب كثيرة ، منها قلة الجهد المبذول في تلقي ما تعرضه هذه الشاشة الصغيرة حيث ينوب عنك المخرج في تجسيد كل ما كان مفروضا أن يخلقه تخيلك ، فضلا عن أنك أنت الذي تذهب إلى المسرح في موعد معين وبملابس الخروج وربما بعد حجز المقاعد وشراء التذاكر . . الخ . بينما التمثيلية التليفزيونية هي التي تدخل بيتك ولا تطالبك بأي جهد في التهيؤ لاستقبالها ، بل عليها هي أن تشدك وتجذبك إليها وإلا انصرفت عنها ببساطة غير نادم على أي جهد تكلفته . وضاعف اختراع الفيديو من تيسير الاقبال على التليفزيون حيث يمكن أن تسجل ما تريد أن تشاهده مما يعرض في غيبتك ، ثم تختار أنت بعد ذلك ما يلائمك من وقت لتضغط على زر أو زرين فتسترجع ما سبق أن عرضته الشاشة أثناء انشغالك عنها .

والشاشة الصغيرة لم تجذب إليها الجمهور فحسب ، بل جذبت إليها كل من يرى في نفسه الموهبة أو القدرة على المشاركة الدرامية : تأليفا أو تمثيلا أو اخراجا . . الخ حيث ينفق هؤلاء وقتا أقل في مقابل عائد أكثر وشهرة أوسع إذا قورن بما يبذله زميله المسرحي من مجهود ووقت في التدريب على الظهور في احدى المسرحيات وعلى ما يحصل عليه من عائد مادي وأدبي بعد ذلك . فالمسرحيات أشبه بالكتاب المخطوط ، على الممثل أن يؤدي دوره عند ما يقف على منصة المسرح كل

ليلة ، أما الممثل في التمثيلية التليفزيونية ـ والاذاعية وفي السينما ـ فإنه يؤدي دوره مرة واحدة ـ طبعا بعد عدة بروفات أو تجارب كما في المسرحية ـ ثم يراه ملايين المشاهدين مئات وربما آلاف المرات ، فالتمثيلية التليفزيونية أشبه بالكتاب المطبوع .

وعمان الحديثة لا تختلف في ذلك عن بقية دول العالم ، فمعظم الشباب الذين يقبلون على خشبة المسرح يعتبرون أن ذلك مجرد مرحلة في حياتهم ، ينتقلون بعدها إلى الاذاعة والتليفزيون . تلك مشكلة حضارية عامة وخاصة في الوقت نفسه ، لأن نهضة عمان الحديثة جاءت في وقت سادت فيه هذه الاختراعات قبل أن تتكون تقاليد مسرحية لها جذورها فلا تعصف بها بسهولة مثل هذه الرياح الفتية الجديدة . وفي هذا تختلف الحركة المسرحية عن حركة الفنون التشكيلية التي كانت موضع مقارنة من جانب الأفاضل المشتركين في الندوة . لأن التليفزيون لا يجذب إليه مواهب التشكيليين ، ولا يغني ما يعرضه من مناظر عن معارض الفن التشكيلي ، فهو لا يهدد المهتمين بهذا الفن ولا يغريهم بالانصراف عنه إليه ، بخلاف المسرح الذي استطاع التليفزيون أن يغير جلده فيما يعرف باسم التمثيليات التليفزيونية مرة والدراما التليفزيونية مرة أخرى . فالقضية الحقيقية ـ فيما أرى ـ هي كيف نخلق تقاليد مسرحية ومناخا مسرحيا لدى جمهور فتح عينيه على شاشة التليفزيون ؟ وكيف يمكن أن تتجاوز في المجتمع العماني الوليد منصة المسرح مع هذا الصندوق السحري ، فلا يمر ذوو المواهب بالمسرح مرور الكرام منجذبين نحو بريق هذه الشاشة ؟ وكيف يمكن أن نحقق المعجزة فنخلق جمهورا مسرحيا من جمهور تليفزيوني رغم أن ذلك سباحة ضد تيار التاريخ وعكس الترتيب الطبيعي للأمور ، لأن المفروض أن يحكم الجمهور على تمثيليات الاذاعة والتليفزيون من خلال تقاليده المسرحية وليس العكس .

اني بذلك أثير تساؤلا أكثر مما أثبت اجابة .

فى الشعر العمانى

ـ القصة فى الشعر العمانى .
ـ صور من الماضى القريب لثقافة الخليج .
ـ شقائق النعمان على صموت الجمان فى أسماء شعراء عمان .
ـ فنون الشعر الشعبى فى سلطنة عمان .
ـ شاعر البحر والبادية محمد جمعة الفيلانى
ـ الأدب الشعبى فى بلاد الشراع :
ديوان الشاعر سعيد عبد الله ولد وزير .

القصة فى الشعر العمانى

فلنتفق بادىء ذي بدء على أن تراث الشعر العماني شعر غنائي ، شأنه في ذلك شأن الشعر العربي عامة حتى بدايات القرن العشرين حين تعرفنا على ما في الشعر الغربي من شعر ملحمي أو قصصي مثل ملحمتي الالياذة والأوديسا للشاعر اليوناني هوميروس ومن مسرح شعري . لكن الشعر العربي ـ ومن بينه الشعر العماني ـ لم يكن خلوا مما يمكن تسميته بالصورة القصصية أو الخيط القصصي على نحو ما نجد في القصائد التي يروي فيها الشعراء تاريخ عمان بدءا من مالك بن فهم الأزدي الذي روى شعرا ـ وهو يحتضر بعد أن أصابه سهم ابنه سليمه دون قصد ـ قصة مسيره الذي ساره من أرض السراة وخروجه من برهوت حتى دخوله عمان وحروبه مع المرازبة أو الفرس ، حتى «النزوية» (نسبة إلى مدينة نزوى) للسيد هلال بن بدر البوسعيدي التي روى فيها تاريخ عمان منذ أقدم العصور حتى العصر الذي عاش فيه حيث انتقل إلى جوار ربه عام ١٣٨٥ هـ . وعلى نحو ما نجد في غزليات شاعر مثل سليمان بن سليمان النبهاني (توفي ٩١٥ هـ ، ١٥١٠ م) . التي يمكن تتبع خيط قصصي فيها يرويه من مغامرات مع محبوبته راية مرة وموذية مرة أخرى مما يذكرنا بالأبيات المماثلة في معلقة امرىء القيس . وفي هذا اللون من الشعر نجد سمات قلما توجد في قصائد الشعر الغنائي الأخرى ، وهي سمات تدل على القص ووجود التتابع الزمني للأحداث مثل استخدام الفعل الماضي وحروف العطف واختلال المعنى إذا حُذِفَ بيت من الشعر أو تغير مكانه ، ولا يستقل معنى البيت بل هو مرتبط بما قبله وما بعده لأنه جزء من السياق القصصي أو التاريخي .

قصة فتاة نزوى :

وإذا كانت رواية التاريخ لها بطبيعتها سمة القص ، إلا أنه أثار انتباهي قصة شعرية نادرة في تراث الأدب العماني ، وهي قصة وقعت أحداثها عام ١١٠٤ هـ أيام حكم الامام سيف بن سلطان قيد الأرض ، وهي قصة منسوبة إلى شاعر مجهول للأسف أوردها المؤرخ نور الدين السالمي في كتابه المشهور «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» . والقصيدة القصصية تروي قصة فتاة من نزوى كانت في السادسة من عمرها حين بدا أنها ماتت ، ثم اكتشفوا بعد سنوات انها ما زالت على قيد الحياة . وتعلل القصة ذلك أنها دُفنت وما يزال بها رمق من حياة ثم ما لبثت أن رُدت الروح إليها . ومر بها بعض البدو فحجبوها عندهم وجعلوها ترعى الأغنام برفقة فتاة منهم . حتى مر بها ذات يوم شخص كان يعرفها فأبلغ أهلها ، فأخذوها إليهم فتعرفت عليهم . لكن كان هناك رأي آخر هو الذي يغلّبه الشاعر راوي القصة ، ذلك أنها كانت قد أصيبت بسحر ، وهذا الرأي هو الذي دفع أهلها ليعودوا ويحفروا قبرها بعد دفنها فما وجدوها لأنها كانت قد غادرت القبر مع هؤلاء البدو .

ويمكن تقسيم القصة إلى أربعة أقسام : القسم الأول يحكي قصة دفن الفتاة وتشكيك أحد الحكماء في صحة موتها ، ثم إشاعة الظن بأنها أصيبت بسحر ، وعودتهم إلى قبرها وحفره دون أن يعثروا عليها :

لقد ظهرت أعجوبة في زماننا — بقرية نزوى وهي أم العجائب
ألا فكروا في أمرها فهي عبرة — لمن كان يرجو ربه في العواقب
فتاة أناس بنت ست توفيت — وقد قبروها في قبور الأصاحب
وقال حليم منهم قبل دفنها — حياة بها ما صدقوا قول كاتب
ولو صدقوا هذا فكيف احتيالهم — وما قولهم في حادثات النوائب
وأنى لهم من حيلة غير دفنها — ولو طلبوا في ردها ألف صاحب
وقد جهزوها في ثياب كثيرة — من الخز والابريسم المتناسب
ولكنهم من بعد ظنوا بأنها — أصيبت بسحر قول أهل التجارب
فساروا لحفر القبر من بعد دفنها — فما وجدوها فيه يا ذا المآرب

أما القسم الثاني فيروي رؤية من تعرّف عليها ، وهنا تحرص القصة على ذكر أسماء أبيها وأسرتها تأكيدا لواقعيتها . ثم تتعرّف الفتاة على أمها وتتعرف الأم على ابنتها ولا يصدقونها إلا بعد أن تذكر علامة في ظهرها :

فبعد سنين قد مضت وتكاملت ... حساب تولى عده غير كاذب
رآها فتى ترعى شياها وعندها ... فتاة من الأعراب عنها بجانب
تعرف منها حين لاحت بأنها ... سلالة أشياخ كرام المناصب
تقرب منها ثم أمعن طرفه ... فما شك أن الشخص عين المطالب
فقال لها من أنت قالت فلانة ... فتاة فلان من كرام أطائب
فأيقن حقا أنها بنت ماجد ... سليل سليمان حليف المواهب
وجد أبيه ماجد بن ربيعة ... فتى أحمد أهل الندى والرغائب
وذاك بنزوى وهي من آل كندة ... وقد صح هذا الأمر مع كل كاتب(١)
وجاءوا بها طوع القياد وأحسنوا ... إليها وحلت في أجل المراتب
وما عرفوها من أبيها وأمها ... وقد جعلوها بين ستر وحاجب
وقد أجلسوا أما لها بين نسوة ... حسان كرام نيرات كواعب
ليختبروا عرفانها باختبارهم ... ودار بجنبيها جميع الأقارب
وقالوا لها سيري إلى أمك التي ... تربيت في حجر لها لا تجانبي
فسارت إليها ثم ألقت جرانها ... على حجرها والرأس فوق الترائب
ومالت وقالت أنت أمي وسلوتي ... وذاك أبي دون الرجال بجانب
فقالوا لأم البنت هاتي علامة ... تبين بيانا شافيا غير كاذب
فقالت لهم في ظهر بنتي علامة ... فجاءت بأمر لازم غير عازب
وقد صح هذا الأمر مع كل حاكم ... ليعلم منهم حاضر كل غائب
وجاءتهم من آوت البنت خيفة ... من الحبس أو ترمى بشر المعاطب
وجاءت باد تدعي أنها ابنتي ... من البدو حمقى وهي أم الكواذب
وقد وقعت منها ومنهم خصومة ... بقلعة نزوى جادها كل ساكب

---

(١) أي قريب .

فقيل لها هاتي أباها تحيرت   وباءت بخسران بصفقة خائب
فهذا ونجم الجاهلية غارب   ونجم المعالي طالع غير غارب
فهذا اختصار من عجائب جمة   ولست بمحص عد تلك العجائب

أما القسم الثالث فعودة إلى الوراء (فلاش باك) على نحو ما نرى في القصص الحديث ، وذلك حين سألها أهلها عما حدث لها أثناء غيبتها عنهم ، فقصت عليهم قصة شخص مر بقبرها واستل ثيابها وتركها عريانة حتى بدا ضوء النهار ، فمرت بها جماعة من الأعراب أخذوها عندهم سنوات ترعى الأغنام مع فتاتهم حتى مر بها من يعرفها ليذهب ويخبر أهلها :

وقد سألوها كيف حالك عندما   وضعت بقبر تحت لحد مجانب
فقالت لهم ما راعني قط رائع   وما خلت مكروها بتلك المصائب
ولكن أتاني واحد ثم سلني   من القبر واستل الثياب جوانبي
وغادرني عريانة وسط بلقع   وحيدة شخص بين تلك السباسب
وعاينته حقا يمص أصابعي   وكف يدي اليسرى فويق ترائبي
وسار وخلاني وبت وحيدة   بقلب حزين واجب أي واجب
إلى أن بدا ضوء النهار فمر بي   قبيل من الأعراب غير أقاربي
لبثت سنينا عندهم في ربوعهم   وقد حجبوني عن قريب وصاحب
وقد جعلوني بعد راعية لهم   أنا وفتاة منهم غير كاعب
فرحنا بأغنام أنا وفتاتهم   إلى جلبة الوادي لرعي الجوانب
فأشرفت من ضوت[1] إلى أم والدي   وناديتها يا أم رقي لآيب
فما سمعت صوتي ولا مال قلبها   لصوت حزين غائب غير غائب
وإذ نحن في بعض النهار بخادم   رآنا بعيدا وهو غير مقارب
فلما دنا مني رماني بطرفه   وناشدني أخبرته بالمذاهب
فسار إلى أهلي فأخبرهم بما   رأى من أمور معجبات غرائب

---

(١) ضوت : نهر نزوى .

فجاءوا فزفوني إلى خير منزل وأعلى محل من محل الشواقب
وفي سمد وسط السويق محلنا بنزوى محل الصافنات السلاهب
وقد وصفت هذي أباها وأمها وجاءت بإيضاح العلى المناسب
وقد حققت أوصاف بيت ومسكن وأوصاف أجداد لهم وأقارب
وعاشت زمانا في السويق بنعمة ولذة عيش في أجل الرغائب

ثم يأتي في النهاية تعليق الشاعر ، ويرجح في رأيه كفة السحر عن مسئوليته فيما حدث للفتاة ، رغم أن الاحتمال الأول ـ وهو أنه كان بها بقية من حياة ـ هو الأقرب إلى العقل ، لكن يبدو أن المناخ الفكري السائد في ذلك الوقت كان يجعل تعليل السحر هو الأقرب إلى الرأي العام أو الاعتقاد السائد .

ثم يختتم المؤلف المجهول ـ الذي يمكن اعتباره رائد هذا اللون من الشعر في عمان ـ قصته الشعرية بتحديد تاريخ وقوع الحادثة . ولا نعرف هل كانت هذه السنة التي حددها سنة وفاة الفتاة أم سنة العثور عليها بعد ذلك بسنوات وإن كان الأرجح انه تاريخ العثور عليها ، لأن ذلك الحدث هو الذي أثار الضجة ولولاه لكان حادث موتها أو دفنها كبقية حوادث الوفيات لا يتميز عنها بشيء كما أنه يذكر اسم الامام الذي وقعت في عهده هذه الحادثة :

فهذا عجاب ما جرى مثلها وما سمعنا به في شرقها والمغارب
وعندي هو الحق المبين بأنه هو السحر حقا لا تشكّوا أصاحبي
وقد صح عندي يركبون خوامعا ويخرج كل منهم في السباسب
لهم رجل في سعيهم وغماغم ويرمون من عاداهم بالمصائب
وحدثني منهم فتى غير كاذب ببهل صديق لا يزال مصاحبي
وقال الخبير السحر سحران عندنا فسحر لذي ظلم وسحر الملاعب
ذوو الظلم منهم يذبحون قريبهم ويأكل كل لحمه لا تعاقب
فهذا خذوا عني وعن كل عالم خبير بأسباب الورى ذي غرائب
وذلك في عصر الامام ولينا هو العدل (سيف) ذو العلا والموهب

سلالة سلطان بن سيف بن مالك		إمام الهدى مفني العدا بالقواضب
لتسع وألف بعدها مائة خلت		حسابا تولى رقمه كل كاتب

وبرغم أن هذه القصة الشعرية الفريدة قد كُتبت في عصر كانت فيه الحدود بين القصة والتاريخ غير واضحة ، إلا أنها كانت تتميز عن القصائد العمانية التاريخية بالتركيز على حادثة واحدة ورواية تفاصيلها من بدايتها إلى نهايتها وليس على سلسلة من الأحداث المتتابعة ، كما أن بها بعض الأساليب القصصية مثلا الفلاش باك كما ذكرنا .

ومما يلفت النظر أن هذه القصة الشعرية مكتوبة بأسلوب بسيط يفهمه القارىء العادي ، ولا تلجأ إلى تلك الألفاظ التي تحتاج إلى قاموس لفهمها والتي كان يستعرض بها الشاعر العماني في تلك العصور قدرته ـ بل عضلاته ـ اللغوية ، فهي قصة شعرية عن الشعب وللشعب ، وليست للخاصة .

الشعراء العمانيون المحدثون :

وإذا كانت قصيدة أو قصة «فتاة نزوى» فريدة في عصرها إذ لم تكن تمثل تيارا من تيارات الشعر العماني ، فإن الشعراء المحدثين قد حاولوا كتابة القصة الشعرية متأثرين في ذلك بلا شك بما وصلهم من محاولات إخوانهم الشعراء العرب المحدثين ابتداء من أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ م) وذلك نتيجة للتفاعل الثقافي بين الشرق والغرب بسبب ما جَدّ من وسائل الاتصالات الأسرع كالمطبعة والصحافة ثم الاذاعة والتليفزيون فيما بعد .

الشيخ عبدالله بن علي الخليلي (ولد عام ١٩٢٢) :

فللشيخ عبدالله بن علي الخليلي محاولات في القصة الشعرية مثل «لقيط والخيلاء» (مجلة الأسرة ، ١٥ ابريل ١٩٨٥ ، ص ٧٠ ـ ٧٦) بل له محاولات مسرحية بالشعر غير منشورة بعد تفضل وأعطاني نسخا من بعضها مثل قصته الشعرية

«كيف أعمل» وهي مستوحاة من التاريخ العربي إذ تدور حول الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبدالملك المكني أبا العباس وابن عمه يزيد بن الوليد بن عبدالملك لما حاول القيام عليه بأهل اليمن فضاق ذرعا بذلك ، فاستدعى من يخفف عنه آلامه ويرشده إلى الرأي الصائب . وتتكون هذه المحاولة للمسرح الشعري من أحد عشر فصلا .

كذلك للشيخ عبدالله الخليلي محاولة مسرحية شعرية أخرى عنوانها «الملك ووزيراه» تدور حول علاقة مشبوهة بين الملكة وأحد الوزيرين ، ويراهما الوزير الآخر وهما في موقف يدعو إلى الريبة فيقرران الكيد له والتخلص منه حتى لا يكشف أمرهما لكن مكيدتهما ما تلبث أن تنكشف للملك فيطيح بهما ، ثم يتزوج ابنة أحد الأمراء .

ويُعتبر الشيخ عبدالله الخليلي بذلك أحد الشعراء العمانيين الرواد في هذا الاتجاه ، وشعره المسرحي ـ ولا أقول مسرحه الشعري لأنه ما يزال أقرب إلى الشعر منه إلى المسرح ـ يحمل كل سلبيات وإيجابيات الريادة ، فيجب أن نحكم عليه من خلال المرحلة التاريخية التي كُتب فيها أي بالنسبة لتاريخ الأدب العماني عامة الذي لم يعرف فن كتابة المسرح بعد والشعر العماني خاصة . فقارىء هذه المسرحيات يحس أن مبدعها قد وضع خمرا جديدة في دن قديم كما يقولون ، فالأسلوب والموضوع قديمان وإن كان الشكل جديدا ، وما كان يجب أن يكون حوارا دراميا ما يزال يغلب عليه طابع الشعر الغنائي على نحو ما فعل أحمد شوقي في مصر في بدايات هذا القرن ، وذلك بالرغم من أنه في مسرحيته الشعرية «كيف أعمل» قد جعل أساسها «شعر التفعيلة» وليس عمود الشعر العربي التقليدي ، والمعروف أن شعر التفعيلة يجعل اللغة أطوع للفن الدرامي .

«سلوها» للشاعر أبو سرور حميد بن عبدالله :

وإذا كان الشيخ الخليلي قد لجأ في شعره القصصي والمسرحي إلى موضوعات تاريخية قديمة فإن الشاعر أبو سرور حميد بن عبدالله قد عالج موضوعات اجتماعية في قصته الشعرية «سلوها» ضمّنها ديوانه الشعري «إلى أيكة الملتقى» . وتصور القصة

زوجين يمثلان أمام القاضي ـ لعله قاضي الحب ـ الزوج محب لزوجته لا يبغى سوى رضاها ، أما الزوجة فتصورها القصة في بدايتها نافرة غضبى تريد الفراق لأن زوجها سكير لا أمل في توبة صادقة منه ، وهي من أسرة كريمة متدينة ترفض أن يلثمها سكير ولو كان زوجها :

فقالت وهي في لهف   ونار العتب تشتعل
ترفق أيها القاضي   اشرع منك أمتثل
علمت العطف من شيمي   ولكن للألى فضلوا
وذا لم يكفه عللا   هواي فحسبه العلل
فأصبح مدمنا خمرا   فما عطفي .. وما العمل ؟
فإن أملتني بعسى   يتوب ويصلح الرجل
فذا طبع تعلقه   واطمس عقله الدجل
تولى كبره سفها   محال عنه يعتدل
أالرضى أن يعانقني   ويلثم وجنتي ثمل
فدعني من تعلله   فلست فتاة من نذلوا
أنا بنت الكرام فما   بكفي ساذج خطل
شربنا الدين صافية   لنا أكوابه النهل
فدعني لا تراجعني   فلا رجعى ولا أمل

فماذا كان وقع هذا الموقف الرافض على العاشق الولهان ؟

فبات مجرعا غما   ومن هم به دخل
فألقاه بمستشفى   مريضا ما به علل
ولكن لم يجد برءا   سوى الأسقام تشتعل
وخال الموت يأخذه   سريعا ما له حول
فأحضر كل ذي طب   بفحص العاشق انشغلوا
فحيرهم معالجة   وغم جموعهم فشل
فجن جنونهم منه   وران عليهم الخجل

وإذا كان الأطباء قد احتاروا في علاجه لأنهم لم يعرفوا مكمن الداء ، فقد أعلن مريضهم أنه يعرف داءه ودواءه :

فناداهم مريضهم أنا في العشق بي علل
فإن شئتم معالجتي فسرا لي بها أصل
وألقى حول غادته عليلا ما به علل
فقال بصوت محتضر يعالج روحه الأجل
بصوت خاشع جدا ترق له لما يسل
حياتي فيك يا سمرا هبيها لي كما سألوا
واني مخطىء حقا وسمرا كلها أمل
وشرع الله اجعله أمامي ، ليس لي بدل
مريني كيفما شئت وأنى شئت أمتثل

هنا يحدث التطور في شخصية سمراء ، فقد أحست بنبرة الصدق والعزم على التوبة الحقيقية ، فما كان منها ـ وهي بدورها تحبه حبا مخلصا ـ إلا أن ترق وترحم :

هنا رقت لرحمته وقالت طاب ما تسل
وأبدت بسمة برئت بها من حبها العلل
وأدلى الشرع بينهما عهودا ما بها خطل
فعاد مثل ما كانا بعشق كله جذل

وإذا كان من الواجب ـ من الناحية الفنية القصصية ـ أن يكون هذا الوئام بمثابة حسن الختام لقصتنا إلا أن شاعرنا أصرّ على أن يدلي بتعليقه ، وهو تعليق زائد كان يجب تركه لفطنة القارىء إذا حاسبناه على أنه كان يكتب قصة بالمعنى الفني :

ليهنأ العاشقون بما به للحب قد وصلوا
دروس كلها عبر بها نجحوا وما نكلوا
فاطرب كل ماجدة فشعري كله مثل

والقصة تتسم بوجه عام بالبساطة الشديدة كما رأينا ، وبأسلوب سهل أقرب ما يكون إلى أسلوب قصة «فتاة نزوى» .

«شريعة الزواج» لسالم بن علي الكلباني :

كذلك تعرّض الشاعر سالم بن علي الكلباني لموضوع اجتماعي يؤرق الشباب العماني هو موضوع غلاء المهور ، وذلك في قصته الشعرية «شريعة الزواج» فهو يروي قصة صديق لجأ إليه في لحظة غير مألوفة :

أتى وهجير الشمس في الأرض كالجمر   صديق له في خاطري أشرف القدر
أتى شارد التفكير تحسب أنه   أسير ملوك فر من داخل الأسر
فساءلت نفسي ما الذي قد أتى به   فلا بد أن الأمر لم يخل من سر

وتتتابع أبيات القصيدة تروي كيفية قدومه ووصوله في حالة يرثى لها ، وكيف استقبله شاعرنا بما يتفق وحالته هذه ، ورحب به وطمأنه وسأله عن سبب قدومه في مثل هذه اللحظة فقال :

أتيتك أبغي العون منك لأنني   أرى فيك آيات المروءة والستر
لي ابنة عم تيمتني بحبها   كساها الشباب الغض أردية الطهر
حفظت لها حبي وأخلصت نيتي   وأسكنتها قلبي وأهديتها عمري
لها مثل تعليمي وسني وخلقي   ورغبتها دوما على رغبتي تجري
نشأنا معا نمسي ونصبح والهنا   يضاحك روحينا بمبسمه العذري
فمنيت نفسي أن تكون حليلتي   تشاركني في حلو عيشي وفي المر
أتيت أباها خاطبا وسريرتي   تحدثني بالخير فيه وباليسر
فقلت له بعد التحية والرضا   وبعد العطاء والأخذ والطي والنثر
أتيتك أستهديك يا عم تحفة   من التحف اللاتي تعز لدى الفخر
بنيتك الحسناء هذي أحبها   وأرغب أن نأوي جميعا إلى وكر

فأبدى العم ارتياحه لطلب الفتى ، وأكد له أنه لا ينوي أن يزوج ابنته لغيره ،

وليس له من طلب إلا أن يدفع الصداق الذي يحلل الزواج . هنا فرح الفتى لموقف عمه ، ولو أنه شعر بقلق عند ما جرى ذكر الصداق على لسانه فسأله قائلا :

ترى كم يكون المهر بل رمزه الذي — عنيناه في العرف الذي بيننا يسري
فـأطرق ثم استأنف القول معلنـا — على سمعي المشنوق قاصمة الظهر
ثـلاثـة آلاف لهـا ولأمـهـا — وجدتها والجد كالوالد البر
وعشـرة آلاف لـوالـدها الـذي — تكفلها في حالة اليسر والعسر
وألف سنستكفـي بـه رغم أنـه — قليل ولكن لا نرى لـك من وفر
نـوزعـه مـا بـين عـم وعمـة — وخال وخالات وحاشية كثر
فلما أتم الشـرط أحسست انني — من الهم والتفكير أسبح في بحر
رزقت الهـدى يـا عم اني مفلس — فعطفك يا عمي العزيز على فقري
طلبت نقـودا ما بـوسعي دفعهـا — ولـو انني افنيت في جمعها عمري
وتعـرف أحـوالي وتعلم عيشتي — فمن أين لي بالخمس منها أو العشر
وهل يا تـرى لا شيء يلزم دفعه — سوى المهر والانسان في سخف العصر
ومن أين لي تأمين عيشي ومسكني — إذا أنتمـو أبقيتمـوني عـلى الصفـر
فقـال بني استـرزق الله واجتهـد — وثـابـر فـإن الـدهـر مبتسم الثغر

ثم يسأله عمه سؤال المستنكر :

أتبغـي زواجـا دون مهـر محـلل — متى كانت الأبكار تعطى بلا مهر
فقلت أجـل يا عم لكن جفـوتني — فحاول تعيد الفكـر انك ذو فكـر
فـأقـسـم لي أن لا يـغـيـر رأيـه — ولو أن هذا الراي يؤويه في القبر
ففكـرت أن أشكو إلى حـاكم لنا — عـرفناه بـالاحسـان والعـدل والبـر
فلما اجتمعنـا للخصـومـة هـالني — بمنطقـه المسحـور والمنظر المغـري

ويستمر الحوار بين أخذ ورد حتى يأتي دور القاضي فيبدي رأيه الشخصي وليس رأيه القضائي فيقول :

ولا تبتئس إن قلت إنـك مخطـيء — برفضك ما قد سن في سالف الدهر

فقلت أجل لكنه ليس هكذا ... فما كان بالآلاف سن كما أدري
فقال ألوف اليوم ليست كثيرة ... إذا أعطيت ما تستحق من التبر
ألم تر أجر الفرد في اليوم عشرة ... تزيد على ما كان يعطاه في الشهر
أضف خدمات لا مجال لذكرها ... موفرة للناس في السهل والوعر
ووالدها المسكين كيف نضيمه ... وقد عالها عشرين عاما من الدهر
وها هو ذا شيخ وليس له فتى ... يساعده في الكسب وهو أبو عسر
فقلت له يا قاضي الخير لا تزد ... نصائحك العصماء قد أنفدت صبري
هل البنت هذي سلعة تعرضونها ... على الناس في سوق المزاد لمن يشتري
أليس مشينا أن تكون تجارة ... أما تنكر الأخلاق هذا أما تزري
وهل فقد الناس الأصالة فانزووا ... عن الجوهر الأصل الشريف إلى القشر
فقال أجل والله ليست تجارة ... فلا تتهمنا بالغباء أو الكفر
ولكن رفع المهر معناه انه ... لجام لطيش المستبد أو الغمر

عندئذ يبدو أن القاضي قد تعاطف مع الفتى فيحاول استعطاف العم برقيق الكلام قائلا :

وانعم على هذا الفقير بزوجة ... لعلك أن تحظى لدى الله بالأجر
وأكثر ظني أن بنتك مثله ... تتوق إلى إلف وتهفو إلى ستر
غريزة نفس ركبت من محبة ... أجرها من التنكيل والكبت والقهر
تلطف بقلبين استرقهما الضنى ... وأبلاهما طول المعاناة والصبر
تذكر زمان الطيش إذ كنت يافعا ... وعقلك نهب في يد البيض والسمر
فأوما للقاضي كفى لست حاضرا ... لوعظ ولا ذكرى غرام ولا شعر
دع الهذر البالي فلست أحبه ... وبين لنا حكم الشريعة في المهر
فلما رأى القاضي جفاف ضميره ... وإحجامه عما يقابل بالشكر
وأيقن أن لا عطف فيه أحالنا ... إلى مكتب الوالي لينظر في الأمر
فبادره الوالي بحزم وقوة ... تموت بها الأطماع من شدة الذعر

وهكذا تنتهي قصتنا بنفس النهاية السعيدة التي انتهت بها قصة «سلوها» لشاعرنا أبو سرور وهي جمع شمل المتحابين .

القصة الشعرية في الأدب الشعبي العماني :

ويختلف موقف الشعر الشعبي من القصة في بلادنا العربية عن موقف شعر الفصحى ، فلئن كان شعر الفصحى غنائيا في معظمه لم يعرف القصة ولا المسرح إلا أخيرا في العصر الحديث ، فإن الشعر الشعبي في بلادنا العربية عرف القصة منذ نشأته ، بل إنه يمكن القول أنه نشأ ونما في أحضان القصة . وسيرنا الشعبية خير مثال على ذلك مثل سيرة الظاهر بيبرس وعنتره وتغريبة بني هلال والزير سالم . . وقصص مستوحاة من القصص الديني مثل قصة أيوب وناعسة وقصص الحب مثل قصة حسن ونعيمة وقصص البطولات الشعبية مثل قصة أدهم الشرقاوي ، حتى ليمكن القول باطمئنان إن السير الشعبية هي المقابل العربي لما عُرف في الغرب باسم الملاحم ، وأن كلا من الملحمة الغربية والسيرة الشعبية العربية هما الشكلان الشفاهيان المقابلان للشكل الروائي في عصر المطبعة .

وللأسف فإن الشعر الشعبي العماني لم يُقدّر له الحفظ على مدى القرون مثل شعر الفصحى الذي حفظه لنا مؤلفوه أو ناسخوه أو رواته حين دونوه في مخطوطات استطعنا الاطلاع عليها اليوم بل نشرها عن طريق المطبعة كما تفعل مشكورة وزارة التراث القومي والثقافة . أما الشعر الشعبي فلم يبق لنا منه إلا ما حفظه الرواة المعاصرون ، وهم في طريقهم إلى الانقراض . ومن هنا كانت جهود مثقف مثل سعادة السفير سالم محمد الغيلاني جهودا لا تقدر بثمن لأنه أنقذ من الضياع ما أمكنه انقاذه من الشعر الشعبي في مدينته صور . فالشعر الشعبي عامة ، والعماني خاصة هو اللون الغارب من الشعر الذي أخذت تحل محله شيئا فشيئا فنون الاذاعة والتليفزيون وأشرطة الكاسيت والفيديو تأليفا وجمهورا على حد سواء .

ومن بين هذا الذي نجح في انقاذه سعادة السفير الغيلاني شعر الشاعرين الصوريين الشعبيين محمد جمعه الغيلاني وسعيد بن عبدالله ولد وزير المولود عام ١٣٢٣ هـ واللذين نشر لكل منهما ديوانا .

وفي ديوان ولد وزير نجد أكثر من محاورة ترقى إحداها إلى ما يشبه القصة ، وهي بعنوان «شجار بين الزوج والزوجة» ، لكنه ليس شجارا لأن الزوج سكير كما في

القصة الشعرية عند أبي سرور ، بل لاختلاف وجهات نظر الطرفين لا سيما حول ما جَدّ في حياة الأسرة العمانية بسبب التطورات الحضارية الحديثة .

ونحن نلاحظ على هذا الحوار الشعري الشعبي القصصي أنه يبدأ ـ كعادة الشعر الشعبي ـ بذكر اسم الله . ثم انه حوار أقرب ما يكون إلى الحوار المسرحي لأن كلا من الزوج والزوجة يقول رأيه دون تضمين الأبيات بكلمة «فقال» أو «قلت» أو «قالت» على نحو ما نرى في قصيدة علي بن سالم الكلباني . كما نلاحظ في القصيدة الألفاظ الحضارية لبعض مخترعات القرن العشرين لا سيما تلك التي انتشرت لتنافس الشاعر الشعبي بل لتقضي عليه كالاذاعة والتليفزيون . وأخيرا فإننا نلاحظ أن القصة الحوارية تنتهي بتلك النهاية السعيدة التي انتهت بها قصيدتا «سلوها» لأبي سرور و «شريعة الزواج» لسالم بن علي الكلباني ، إذ يتدخل صوت الشاعر أو الراوية معلنا حل الخلاف بين الزوجين وعودة السعادة إلى قلبيهما ، كما أن ألفاظ القصة الشعرية الشعبية سهلة الفهم يستطيع فهمها حتى غير أبناء بيئتها وهي سمة اتسمت بها القصتان السابقتان من شعر الفصحى .

أبتدي باسمك يا ربي يا مجير　　　خالقي تعلم بسري والضمير
عبدك الخايف عليه ذنب كبير　　　أطلبك تغفر خطانا والزلل
في طريقي شفت ناس واقفين　　　يسمعوا الهوشة وهم متفرجين
قمت مسرع أصلح المتهاوشين　　　وأحكم الدعوى وحلها إلى قبل
المرة مع زوجها متخالفين　　　في أمور بينهم متشاجرين
شفت الرجل قايم يبا يحلف يمين　　　وجات المرة باتشتكي عند الأهل

بعد هذه المقدمة يبدأ الحوار ـ عفوا أقصد الشجار ـ بين الزوج والزوجة مباشرة كما في المسرحيات :

زوجي ينازعني بلا دعوى وسبب　　　ويحوس برطومه عليه بالغضب
ويسبني ويرميني بأقوال الكذب　　　ويقعد يحاسبني في شربي والأكل
شفتك عن أحكام الشريعة مخالفة　　　يوم تفتحين الباب ودايم واقفة

وما تلحفي راسك تمري كاشفة   وممشى المرة المكشوفة من أقبح عمل.
كلهن خواتي في الطريق مكشفات   وثيابهن فوق الركب مقصرات
واني شرواهم يوم هن متمشيات   وأنت تذكرني بزمانك من قبل
خفى الحكي عنك وقصري ملكلام   المسلمة المكشوفة منظرها آثام
وأهل العلم يقولوا ذا شيء حرام   يا السيدة لا تفعلي فعل الجهل
قابض معاشه من أمس مدايرة   ضمه عليه وقيده في دفتره
واني رماني لحالي وعطاني أظهره   ما قال ويش تبغي ولا سأل
لون رضاني وجاب لي شيء حقير   خاتم ذهب وغيره دشداشة حرير
بايكون لي عند الخلق جاه كبير   بيني وما بينه الزعل بنغسل
أنا معاشي قاصر وفلوسي قليل   صوغ الذهب بايخلص مالي والحجيل
في كل شهر توعدني وترجع تختلف   والناس في أطيب منازل والغرف
تعجز عن تسلم إلى التاجر ألف   وتجيب عندك تلغزون للمحل
باتسهري عينك في شوف التليفزيون   والكهربة قوية وتضر العيون
سمعي الأغاني وانظري هون بهون   والراديو عندك يغني بالمثل
قلبي يحب التليفزيون ويستريح   يلن سمع نظم الأغاني والمديح
والراقصة الفنانة والوجه المليح   تسبح في أمواج الأغاني والغزل
أرجوك ل تنكدي عليه واصبري   هذا الشهر خليه يمر ويعبري
انتي حشى قلبي ولبة خاطري   لا تأخذيني بقوة ويشغل العجل
يا ذا المرة اللي صبر ما بايضيع   خلي فوادك طيب والخاطر وسيع
باقبض معاشي كله وباجيبه جميع   شلي معاشي عندك واعطيني السهل
أنت رجل عندك خرابيط كثير   ويش قلت لك بالأمس يوم باغي تسير
وصيتك بكنديش لو رقمه صغير   واربع قطع بفرشهن من خيار الزل
بيوت الأوادم كلهن مبردات   وجميع الصنايع في عمان مكودات
وانت معك خير وفلوسك وايدات   لهيش ما تسمع كلامي وتمتثل
باسمع كلامك لازم في ليل ونهار   لكن إذ شيء يبيعونه التجار
امشي لهم خالي بيمين واليسار   حتى يرجعوني واثني استدل

وأخيرا يرى الزوج أن الصلح أفضل فيقول :

يوم تعرفي انها نفسك ميتة ... ويش تبي بهذا الخصام وشغلته
وتعذبي رجل ضعيفة حالته ... وأنا أبالك خير ومؤمل أمل
شهدوا علينا يا رجال السامعين ... أنا وزوجي من الزعل متسامحين
بصبر عليه دايم على طول السنين ... عسى أترزق من وراه طفلة وطفل
الله يعزك في حياتك يا مرة ... باحكي وباحلف انك حرمة وافرة
من مثلك انتي ما يقولوا مقصرة ... تعرفي الذي واجب ولا تنسي الفضل
والخاتمة تم الصلح بين الثنين ... وتعوذوا من شر الشيطان اللعين
هم روحوينا ونحنا مروحين ... والحمد لله والحكي كله نفصل

صورة من الماضي القريب لثقافة الخليج

صورة من الماضي القريب لثقافة الخليج

«لن أستطيع أن ألخص لك أيها القارىء الكريم هذا الكتاب ، فما أشبهني وأنا أقرأه كمن يرى السماء فيعجب بنجومها لكنه غير مستطيع أن يعدها ، ولذلك فسألتزم التعريف بالكتاب ليس غير ، فكل ما فيه نجوم» . (عبدالله محمد الطائي ، دراسات عن الخليج العربي ، مطبعة الألوان الحديثة ، روي ـ سلطنة عمان ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٥) .

هذه المقدمة التي أحب أن أفتتح بها تعريفي بكتاب «دراسات عن الخليج العربي» ليست من كلماتي ، لكنها من الكتاب نفسه ، وبالذات من المقالة التي كتبها المؤلف عن كتاب «فن المتنبي بعد ألف عام» للشاعر البحريني ابراهيم العريض ، فما أجدرها أن تنطبق على كتاب هذا الأديب الخليجي العبقري الذي طواه الموت وهو في ريعان رجولته وقمة نضجه وعطائه .

فقد ولد عبدالله محمد الطائي في مسقط عام ١٩٢٧ وتلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة السعيدية بمسقط ، ثم أكمل تعليمه الاعدادي فالثانوي في بغداد . وشغل منصب رئيس الاعلام والسياحة في حكومة أبوظبي ثم وزير الاعلام فوزير الشئون الاجتماعية والعمل في سلطنة عمان . وتوفي في ١٨ يوليو ١٩٧٣ عن ستة وأربعين عاما .

ولعبدالله محمد الطائي انتاج أدبي متنوع ما بين الرواية والقصة القصيرة والشعر وأدب المقال ، ويبدو أنه لم يطبع في حياته إلا روايته «ملائكة الجبل الأخضر»

طبعتها مطابع الوفاء ببيروت وكتب تحت عنوانها «قصة الثورة العمانية في مرحلتها الأولى» ، وفي نهايتها وعد بجزء ثان يتناول بداية المرحلة الثانية للثورة الوطنية العمانية ، لكنه يبدو أنه لم يكتب هذا الجزء الثاني أبدا بسبب ما وقع في عمان من نهضة في عام ١٩٧٠ غيرت من مجرى الأمور ووحدت شعب عمان بحيث عاد من منفاه الاختياري ليشغل منصب وزير في العهد الجديد ، عهد السلطان قابوس . كما نقرأ في نهاية هذه الرواية «ملائكة الجبل الأخضر» أنه يعدنا بكتابين تحت الطبع هما «أضواء على الخليج العربي» و «في يوم واحد» ولكن أبناءه الذين تولوا نشر تراثه الأدبي لم يذكروا هذين الكتابين في قائمة مؤلفاته الأحد عشر التي نشروها في نهاية ما نشروه من كتبه . ولكن لعل «أضواء على الخليج العربي» عنوان آخر للكتاب الذي نتناوله هنا «دراسات عن الخليج العربي» . أما مؤلفاته فقد نشر منها حتى الآن روايتان هما «ملائكة الجبل الأخضر» و «الشراع الكبير» التي تتناول انتصار العمانيين على الاحتلال البرتغالي في منتصف القرن السابع عشر ، وديوانان للشعر هما «الفجر الزاحف» و «وداعا أيها الليل الطويل» ، ومجموعتان من المقالات هما «الأدب المعاصر في الخليج العربي» و «دراسات عن الخيلج العربي» وهو آخر ما نشر (عام ١٩٨٣) . أما المؤلفات الباقية التي تنتظر دورها في النشر فهي مجموعة قصصية بعنوان «المغلغل» ، وديوان شعر عنوانه «حادي القافلة» ، وكتاب «شعراء معاصرون» ، و «تاريخ عمان السياسي» ، وأخيرا «مواقف» .

وليس المهم كم الانتاج بقدر ما به من نضج بالنسبة لكثير من الكتّاب الخليجيين في تلك الفترة المبكرة ، وربما كان لرحلاته في مختلف الدول العربية أثرها في ذلك بالاضافة إلى موهبة لا شك فيها .

ويضم كتاب «دراسات عن الخليج العربي» تسعين مقالا وحديثا كتبت وأذيعت ما بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٢ ، وما أذيع منها أذيع أغلبه من إذاعة الكويت ، أما بقيتها فقد نشرت مقالات في صحف متعددة . ويعلن الناشر أن هناك سبع مقالات لم يتمكن من العثور عليها كان قد أوردها المؤلف ضمن فهرس هذا الكتاب .

ويمكن تقسيم الموضوعات التي تتناولها المقالات إلى خمسة هي على التوالي : الخليج والاسلام ، الخليج تاريخيا وجغرافيا ، الأدب في الخليج منها أربع مقالات عن فلسطين في أدب الخليج ، ثم شخصيات خليجية منها خمس شخصيات من الجيل الماضي ، وأخيرا متنوعات لا تندرج تحت موضوع واحد .

والمؤلف يعلن هدفه من تأليفه هذا الكتاب وإذاعته تلك الأحاديث في مقاله أو حديثه الأول بعنوان الخليج العربي فيقول إنها «تستهدف تعريف إخواننا المستمعين بكل ما يتعلق بهذا الجزء من الوطن العربي الأكبر ، فأنا لا ألقيها إلى سكان الخليج العربي بقدر ما أتوجه بها إلى إخوانهم في أرجاء العروبة . فالتعارف في رأيي دعامة أساسية في إشادة صرح الاخاء والوصول إلى آفاق التفاهم ، وعلى ضوء ذلك أبدأ أحاديثي بتعريف شامل أمد به يدي إلى المستمعين فندخل من بعد إلى نواح متعددة من الحديث عن الأدب والتقاليد والأماكن والماضي والحاضر» . (ص ٧) .

وتتراوح المقالات ما بين تقديم المعلومات مثل المقالة التي تناول فيها تاريخ الصحافة في الكويت يقدم فيها تعريفا موجزا لمجلاتها الشهرية في الستينات من هذا القرن ثم مجلاتها الأسبوعية فجرائدها اليومية ، وبين الغرض الأدبي الذي يدل على تذوق مرهف .

وتبدأ المقالات بكلمة عن أهمية الخليج العربي موقعا وتاريخا وثروة ، فإسلام الخليج ، ثم يتحدث عن عمان وإمارات الخليج السبع ومنها دبي في ذلك الوقت (منذ أكثر من اثني عشر عاما على الأقل) فيقول إنها تتكون من مدينتين كبيرتين يفصل بينهما مضيق صغير يسمى خور عرضه يقارب مائتي متر ، وتسمى المدينة الأولى دبي والثانية ديره ، والمكانة في القديم للأولى وما تزال مقر الحاكم ، أما الثانية فهي المركز التجاري وبها العمارات الحديثة ووجود الخور بين المدينتين يكسبهما جمالا فريدا يذكّر السيّاح بالبندقية حتى لقد سماها البعض بندقية الخليج . ويرجع نسب حاكم البلاد سمو الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم إلى بني ياس وهم من الأزد الذين هاجروا إلى عمان أيام انهدام سد مأرب ، ولقد كان لمجهوده الأثر الواضح في نهضة البلاد فهو وراء كل نشاط دراسي أو صحي أو عمراني أو تجاري . . الخ .

ثم يؤيد الرأي القائل بأن أصل الفينيقيين جاء من الخليج العربي ، ويثبت رأيه بأكثر من دليل منها تشابه أسماء البلاد مثل ميناء صور العماني الشهير بصناعة السفن وميناء صور على ساحل الشام المشهور أيضا ببناء السفن ، ثم أقوال أغلب المؤرخين اليونان والرومان وفي مقدمتهم هيرودتس واسترابو ، وكذلك وجود بعض الآثار في جزيرة أوال بالبحرين تشبه صناعات الفينيقيين .. الخ .

وحين يتحدث عن اليقظة الفكرية في البحرين يذكر أن أول مدرسة بالمعنى الحديث في الخليج فتحت عام ١٩١٩ بالجهود الذاتية بتعبير اليوم في جزيرة المحرق من جزر البحرين تلتها مدرسة في جزيرة المنامة . وفي عام ١٩٢٩ خرجت أول بعثة للدراسة من البحرين إلى بيروت كما أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات . وعند تكريم الشاعر أحمد شوقي من أدباء جميع الأقطار العربية عام ١٩٢٧ كانت هدية البحرين في حفل التكريم نخلة من ذهب أثمرت لؤلؤا أشار إليها شوقي في قصيدته . كما رافقت هذه الهدية قصيدة للشاعر خالد الفرج حيا فيها شاعر العرب وأشاد فيها بالبحرين وآثارها في الأدب جاء فيها :

من منبت الدر تسليم وتكريم ... لشاعر اللغة الفصحى وتكريم
حيّاك من دارنا البحرين لؤلؤها ... والنخل إذ سبحت فيه الأكاميم
يا مصر كم لك من مجد يشيده ... أبناء صدق بهم من أمهم خيم
شوقي بربك كيف الشعر تنظمه ... عفوا وغيرك بالاجتهاد محروم

ثم يعرض لفجر الأدب القصصي في الخليج فيراها من خلال منظار واقعي حين يعلن أن الأدب في الخليج «شارك في القصة مشاركة لا أصفها كبيرة ولكنها مشاركة ملموسة ، توزعت في الصحف الصادرة في الخليج وصدر عدد ضئيل منها في الكتب ، إلا أن هذه القصص على قلتها تكشف عن الجوهر الأصيل والعنصر الجيد» . (ص ١١٨) ثم يذكر أن أشهر أدباء القصة هما فاضل خلف بالكويت وأحمد كمال في البحرين لأنهما «أكثر انتاجا من غيرهما وأعمق نظرة وأسلس سردا ، كما أنهما يتميزان بتصوير المجتمع العربي في الخليج» . كما يشير إلى رواية السيد عبدالله خلف «مذكرات مدرسة من المرقاب» وهي تصور بيئة المدرسات في مدارسهن ، والمرقاب

حي من أحياء البيوت القديمة . أما في البحرين فيشير إلى جليل الصفار والسيدة ثريا رضوى وإلى الصديق إبراهيم العريض الذي له قصص شعري مثل ملحمة «أرض الشهداء» عن فلسطين ، وقصته الأندلسية «قبلتان» ، والمحاولات المسرحية لعبدالرحمن المعاوده التي استمدها من وقائع العرب المشهورة .

ويستمر إبحارنا في هذه السياحة الأدبية الخليجية لنجد مؤلفنا يتحدث عن الأدب الشعبي في الخليج فيذكر ديوان النبط وهو جزءان من تأليف الشاعر خالد الفرج ، وخيار ما يلتقط من شعر النبط للأستاذ عبدالله الخالد الحاتم ، والأدب الشعبي في جزيرة العرب للأستاذ عبدالله بن خميس ، والأمثال العامية للأستاذ خالد سعود الزيد ، إلى أن يقول إنه من المميزات الهامة لهذا الأدب في الخليج أن يظهر فيه شعراء من أمراء هذه المنطقة ، وأن تتناقل الركبان وتنشر المطابع أشعارهم الشعبية . وحسب الشعر النبطي أن يستأثر بيوم تاريخي مجيد استشهد به المرحوم عبدالله السالم الصباح والأبيات لحجرف البارودي :

يا أهل الديرة اللي طال مبناها	ما بلاد حماها طول حاميها
إن كان ما تفرغ اليمنى ليسراها	اعرف اللي وطا هذيك واطيها
والمباني تشوق كل من جاها	ما يفك المبامي كون أهاليها

ثم يتناول بالعرض بعض المؤلفات التي ظهرت في ذلك الوقت منها :

- الأمثال العامية لخالد سعود الزيد .

- مختصر تاريخ الكويت لعبدالله راشد عبدالله الفرحان .

- كاظمة في الأدب والتاريخ ليعقوب يوسف الغنيم ، والكاظمة هي الجزء الواقع غرب الكويت على أرض مكوّنة شبه لسان داخلة في البحر جهة الجهرة .

- الكويت زهرة الخليج العربي لمحمود بهجت سنان .

- نفحات الخليج للشاعر عبدالله سنان - سجل هذا الديوان رقما له أهميته في

دواوين الشعراء بالكويت هو الديوان رقم ٢ لشعراء الكويت ، أما رقم ١ فهو كما مر بنا ديوان النبط للشاعر خالد الفرج . ومن قصائد هذا الديوان الجميلة وصف أحد صيادي السمك :

وذي هيكل عظمي ملتصق الجلد	يلوح على أكتافه وهن الجهد
على صفحتي خديه خطت سنونه	فتعرفها من كاهليه بلا عد
تطارده الأيام بالجوع والعرا	ويطوي الليالي النابغية بالسهد
فكم ليلة ليلاء أطمس نجمها	وكف صياح الديك من رعشة البرد
وهمهم فيها الرعد يزجر سحبه	ويلمع فيها البرق كالصارم الهندي
تراه بلا نعل يسير مع الدجى	إلى حظرة كم عاد منها بلا صيد

فتصوير البيئة المحلية من أهم سمات هذا الديوان . ولعل البيتين التاليين من أوقع وأبلغ ما عبر عنه الديوان عن تطور العمران في الكويت ، وذلك حين مر الشاعر على قصر المرحوم أحمد الجابر في حوّلي فوجده مهجورا بسبب تطور الناحية العمرانية وقد كان مرموق الجانب . يقول الشاعر مقارنا بين ماضي القصر العامر وحاضره المهجور :

كانت تصافحه الصبا	رغم الهواجر والسمائم
واليوم تلفحه السمائم	رغم أنفاس النسائم

- في جنة الحب ديوان للشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة - والحب هنا بمعناه الواسع : حب الناس والوطن والأبناء بالاضافة إلى الحب العاطفي .

- ديوان هجير وسراب للشاعر البحريني أحمد بن محمد خليفة .

- أشعار من جزائر اللؤلؤ للشاعر غازي القصيبي - الآن الدكتور غازي القصيبي مدير جامعة الرياض سابقا ، ويتحدث عنه وقتئذ باعتباره شاعرا شابا لا يتجاوز الخامسة والعشرين نجل الحاج عبدالرحمن القصيبي رجل الأعمال

المعروف في المملكة العربية السعودية وفي البحرين وخريج جامعة القاهرة . والجزائر هي البحرين أما اللؤلؤ فيكمن داخل الصدر ويستقر في قاع البحر ، وكذلك جاء شعر غازي فمعانيه لا تلتئم ببيت واحد بل ترى لؤلؤها منتشرا في كل القصيدة ، وترى القصيدة ذاتها لؤلؤها متنوع الميزات تماما كما تتنوع اللآلىء في الصدف فمن ذلك قوله :

شقــراء يــا أحــلى أغــاني الصبــا   ويــا ابتســامــات الجمــال الثــري
الشــوق مــا الشــوق سـوى قبلة   تهيـم فــوق الجـدول الأشـقــر
والعمـر هل عمـري سـوى لحظة   عــلى جنــاح المــوعــد الأخضــر

ويعلق الطائي قائلا إن البيت الثاني ولا شك هو الدرة الغالية من الأبيات الثلاثة . ويصف الشاعر بلاده التي أنجبته بعين ما يراه القادم إلى البحرين فيقول :

الضــوء لاح .. فديت ضــوءك في الســواحــل يا منــامة
فــوق الخليج .. أراك زاهيــة الملامــح .. كــابتســامــة
المــرفــأ الــغــافي وهمــســتــه يهـنىء بــالــســلامــة
ونــداء مئــذنــة مــضــواة تـرفــرف كــالحــمــامــة
يا موطني .. ذا زورقي .. أوفى عليك .. فخذ زمامه

ـ ديوان قطرات من ظمأ للشاعر غازي القصيبي ـ وقد حصل الآن على الماجستير وأصبح محاضرا بجامعة الرياض وهو يختلف في هذا الديوان عن ديوانه السابق لأن الشاعر قد أصبح هنا تائها يعاني تعب الانتظار والظمأ إلى أمانيه . ومن أجمل قصائد هذا الديوان قصيدة بعنوان «في شرقنا» صوّر فيها بأسلوب هادىء وتعبير واضح بعض مظاهر هذا الشرق يراها القارىء في ثنايا هذه الأبيات :

في شرقنا لا تستحي الشمس من العيون ،
ولا ينام البدر في مهد من السحاب ،
ولا يضيع الفجر في الضباب
في شرقنا ما زالت الحياة

صبية لم تتقن الدهاء
عذراء ما مر على أجفانها خبث النساء .

**

في شرقنا ما زالت الجموع
تؤمن بالدموع ،
بدمعة عند الرحيل
ودمعتين للقاء !

**

في شرقنا لا يكرم الحب ولا يهان ،
لا يمدح ولا يذم ،
لكنه يعيش في الظلام ،
في نظرة خلف النقاب ،
في همسة تلعثمت وراء فم ،
في ناهدين ارتعشا . . تحت الثياب .
في شرقنا لا يعرف الحب الضياء
إلا إذا باركه دق الطبول .

**

في شرقنا ننام في سلام
ونمضغ الأحلام حين يعوز الطعام
وننثني للبدر حين نشتهي الكلام
وعند ما نضيق بالحياة
نقول بابتسام
عليكم السلام !

وقد قضى الشاعر فترة من حياته الدراسية في لوس انجلوس فوصفها في قصيدة تعتبر من أروع قصائد الديوان ، ومقارنتها بالقصيدة السابقة هي مقارنة بين انعكاس كل من الشرق والغرب على نفسية الشاعر :

سأكتب عنك يا عملاقتي الأخاذة الحسناء
وعن دنياك .. عن سحرك .. عن شاطئك الوضّاء
عن الطرق التي تغفو على أوهامها الشقراء
وعن ليلك ذاب البدر فيه وخبت الأضواء

***

عن الكأس التي مرت على شفتي .. مرور النار
عن القبلات تحملني وتتركني مع التيار
وعن شقراء طارت بي إلى دنيا من الأسرار
وعن ليل بلا فجر وعن فجر بلا أنوار

***

عن الفتيان يجمعهم سكون الليل بالفتيات
فما في الليل غير الهمس والأنات .. والآهات
وغير الحب تهتف باسمه وترفرف الكلمات
ويمشي الفجر مشدوها على درب من القبلات

***

سأكتب عنك يا عملاقتي المغرورة .. البلهاء
سأكتب عن ضبابك .. عن شرور دروبك السوداء
وعن قلبك لم ينبض وحقد كصخرة صماء
وعن صنم تقدسه عيونك .. اسمه الاثراء

***

سأكتب عن أماسيك الكئيبة حين تخلو الدار
ويبخل ليلك المحموم بالأصحاب .. والزوار
وحتى الجار .. يصمت عن (مساء الخير) .. حتى الجار
ويلتصق الضباب على الوجوه .. كلعنة الأقدار

***

سأكتب عن ضياعي فيك .. عن فتياتك الحلوات
وكيف تغلف الكذبة في ثوب من البسمات

وكيف ينـال بـاسم الحب مـا لا تـدرك الشهـوات
وكيف يجـدن بـالقبـلات .. إذ يبخلن بـالنـظرات

ثم يواصل المؤلف عرضه لأربعة كتب لشاعر البحرين ابراهيم العريض هي : المتنبي بعد ألف عام ، من الشعر الحديث (مختارات من ١٩٠٠ - ١٩٥٠) ، ديوان شموع (ركز الضوء على القصائد القصصية) ، ديوان أرض الشهداء . ولأن ديوان أرض الشهداء يتحدث عن فلسطين فإننا نتابع عدة أحاديث عن فلسطين في أدب الخليج .

ثم يتحدث عن الشاعر أحمد بن سلطان بن سليم الذي نشأ في دبي ، وتحدث عن وطنه فجسم أمراضه ودعا أبناءه فأجاد في الطريقة وتكلم عن نفسه فأحسن في الأسلوب ، وكانت نتيجة ذلك أن ترددت أشعاره في دبي ثم تلقفتها أرجاء عمان وأصبح لها مكان الاعتزاز بين أدبائها وفي مجالسها .

ثم يمر ببعض مؤرخي الخليج مثل ابن زريق مؤلف كتاب «الفتح المبين المبرهن سيرة السادة البوسعيديين» (الأسرة الحاكمة الحالية في عمان) ، ألفه عام ١٢٧٥ هـ . والنبهاني صاحب كتاب «التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية» ، بدأ تأليفه عام ١٣٣٢ . وعبدالعزيز بن بداح الرشيد مؤلف كتاب تاريخ الكويت ، ألفه في النصف الأول من هذا القرن .

ثم يتكلم عن شاعر الكويت صقر سالم الشبيب ويقارنه بالمعري من حيث فقده بصره مما كان له أيضا أثره الكبير في عزلته ، يفسر ذلك قوله عند ما حنّ إلى رؤية معالم بلده الكويت فأسف على حرمانه من البصر وتذكّر ساحة الصفاء ملتقى الصحب فقال :

مـا في الصفـاة لـذي عمى مـثـلي أمـور تُحـمـد
كـم مـرة قـد ضـمـني فـيـهـا زحـام أنـكـد
كـادت بـه عـن جـثـتي نـفـسي الـعـزيـزة تُـفـقـد

وقد علل اعتزاله الناس في مواضع كثيرة من شعره من بينها هذه الأبيات المعبرة المؤثرة :

فمثلي ما له في العيش خير ... وهل في العيش خير للفقير
أخاف إذا بقيت تذل نفسي ... على طمع لذي مال كثير
فتمنحه مدائحها اللواتي ... تعز على الفرزدق أو جرير
فيجزيني على شعري شعيرا ... ولست من البغال أو الحمير
ولكني كما سميت صقرا ... وهل أبصرت ذلا في الصقور ؟

ثم يتحدث عن شاعر كويتي شهير آخر هو فهد العسكر (١٩١٣ - ١٩٥١ أي توفي عن ثمانية وثلاثين عاما) والذي يعتبر رائدا من رواد الشعر في العصر الحديث ، ويستشهد ببعض نماذج من شعره لعل من أوقعها تلك الأبيات من الشعر القوميّ التي تنبض بالوطنية :

يا بني العرب انما الضعف عار ... أي وربي سلوا الشعوب القوية
كم ضعيف بكى ونادى فراحت ... لبكاه تقهقه المدفعية
لغة النار والحديد هي الفصحى ... وحظ الضعيف منها المنية

وأخيرا يلقي مؤلفنا عبدالله محمد الطائي نظرة على الماضي فيتناول بالاشارة بعض الأدباء السابقين مثل الشاعر ابن مقرب المولود بالاحساء عام ٥٧٢ والمتوفى عام ٦٢٩ هـ واسمه بالكامل : علي بن مقرب بن منصور بن الحسن الربعي العيوني ، وذلك بمناسبة طبع ديوانه طبعة جديدة ؛ والشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن درهم المولود في الدوحة عام ١٢٩٠ - ١٣٦٢ هـ/ ١٨٧٣ - ١٩٤٣ م، مؤلف كتاب «نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار» الذي طبع فجاء في ثلاثة مجلدات بلغ عدد صفحاتها ألفين ومائتين وتسعا وستين صفحة جمعت من الشعر أشهره وجاءت شاهدا على اطلاع ابن أدهم وحسن اختياره ، كما جاءت ناطقا بحيوية الأدب في قطر قبل قرن كامل ، وإلا فمن أين كان للمؤلف كل هذا إذا لم يكن محيطه عامرا . ثم ينوه بالشاعرين محمد بن عبدالله الحسيني ونجله عبدالله بن محمد وهو أكثر وأجود شاعرية من أبيه لأن شعره أكثر غزارة وجزالة خفيف في أسلوبه رائع في معناه .

ثم يشير إلى الأديب ابراهيم بن محمد آل خليفه الذي اعتبره مؤرخ الكويت عبدالعزيز الرشيد أنه باعث النهضة الأدبية في البحرين . ومن طريف شعره مخاطبته شعرة بيضاء لاحت في فوديه :

فكيف أتيتني يا ضيف شيبي   وسني دون مقدار النصاب
فلولا شيمتي إكرام ضيفي   لسودنا بياضك بالخضاب

***

هذا قليل من كثير من هذه الحديقة الخليجية الوارفة المثقلة بالثمار (٣٨٦) التي تكاد تشبه دائرة معارف عن الخليج العربي في عقد الستينات .

شقائق النعمان على سموط الجمان

فى أسماء شعراء عمان

شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان
وسبق عماني في تاريخ الشعر العربي

من التقليد الجميل الذي يبدأ به هذا الكتاب ـ وقد نشرت جزءه الأول مؤخرا (١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م) وزارة التراث القومي والثقافة ـ تعريف بالمؤلف بقلم تلميذه حمود بن حمد بن علي المسكري ، ومنه نعرف أن فضيلة الشيخ الفقيه الأديب محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي ولد عام ١٣٣٦ هـ . فله من العمر الآن (١٤٠٤ هـ) حوالي ٦٨ سنة هجرية أمد الله في عمره ، وأنه ولد في سمائل ، وله تاريخ طويل في كل من الفقه واللغة العربية قاضيا حينا ومدرسا حينا ، وأنه لازم الامام محمد بن عبدالله الخليلي أحيانا في نزوى وسمائل ، وهو الآن أستاذ بمعهد القضاء متعه الله بالصحة والعافية . وهو تاريخ ـ كما نرى ـ يؤهله لهذه المهمة الجليلة التي وهب جانبا من حياته لها بحيث اقترنت فيها الهواية بالجهد فكانت حصيلتها هذا التأريخ الأدبي الشامل . فهو يعترف في مقدمته أنه يحب «استماع الشعر والاطلاع عليه وتسريح النظر في رياضه وخمائله وغياضه والتطرح بين شجونه وشئونه» (ص ٦) . كما يقول أنه لم يأل «جهدا في تتبع الشعراء العمانيين والتنقيب عن أسمائهم وأنسابهم وأوطانهم ووفياتهم» (ص ٧) ، كما يقول في تواضع إنه وإن لم يكن من فرسان ميدان الشعر لقصر باعه وقلة متاعه إلا أنه تطفل ونظم هذه القصيدة التي سماها «سموط الجمان في أسماء شعراء عمان» وقام بشرحها في هذا المؤلف الضخم .

ويقوم ترتيب الكتاب على أساس تقسيم شعراء عمان إلى سبع طبقات بسطها في قصيدته التي اختتم بها جزءه الأول المنشور بين يدينا . وهذه الطبقات على النحو

التالي ، الطبقة الأولى : الشعراء الذين لهم الجودة في الشعر والملكة والشهرة ، والذين لهم الدواوين المطبوعة أو المخطوطة أو المجموعة أو مقطعات فقط . الطبقة الثانية : من الشعراء المجيدين من لهم المجموعة من الشعر أو بعض القصائد أو المقطعات ، ويقل فيهم من له ديوان . والطبقة الثالثة : من الشعراء المجيدين الأئمة والملوك والأمراء الذين لهم الدواوين المطبوعة أو المخطوطة أو لهم المجموعة أو المقطعات . الطبقة الرابعة : الذين هم أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، وهؤلاء شعرهم مدون مطبوع . الطبقة الخامسة : من الشعراء جهابذة العلماء الذين لهم الأراجيز في الأديان والأحكام والسير والآداب وغير ذلك ، كما أنهم قرضوا الشعر في أجوبة مسائل وفي فنون مختلفة مثل الحكم والمواعظ والنصائح . الطبقة السادسة : العلماء والقضاه الموجودون في القرن الرابع عشر من الهجرة ، والذين قضوا نحبهم خلاله . وهؤلاء قرضوا الشعر في فنون مختلفة من العلم والأدب ولم توجد لهم أراجيز في الأديان والأحكام إلا البعض اليسير . والطبقة الأخيرة وهي الطبقة السابعة هم القضاة الموجودون بهذا القرن الخامس عشر ، وهؤلاء قرضوا الشعر في أسئلة وأجوبة فقهية وغير ذلك من فنون الأدب .

والجزء الأول المنشور يضم ٥٥ شاعرا منهم ٣٧ من شعراء الطبقة الأولى و ١٨ من شعراء الطبقة الثانية ، أو على وجه أدق ١٧ شاعرا ، أما الثامن عشر فهو الشاعر سليمان بن سعيد بن سالم بن محمد النبهاني جاء ذكره عرضا بمناسبة ذكر الطبيب سعيد بن راشد الفارسي ولد الظبي السموءلي لأنهما كانا يسكنان عرضا محلة الدن .

ثم يختتم هذا الجزء بقصيدته المسماة «سموط الجمان في أسماء شعراء عمان» وفيها يفهرس شعرا لأجزاء الكتاب الثلاثة التي نشر الجزء الأول منها . أما الجزء الثاني فيضم ٤١ شاعرا منهم ٢٨ بقية شعراء الطبقة الثانية فيكون مجموعهم بذلك ٤٦ شاعرا ، وعشرة شعراء من الطبقة الثالثة وثلاثة من شعراء الطبقة الرابعة . وهنا نلاحظ أنه يشير في قصيدته إلى الشاعرة الوحيدة بين كل شعرائه ـ وقد وضعها بين شعراء الطبقة الثانية ـ دون أن يذكر اسمها (لعلنا نعرفه عند ما نطلع على نماذج من شعرها في الجزء الثاني من الكتاب بإذن الله) ولكنه يذكر اسم أبيها :

ومن الصاحات من أهل رشد حرة لم تزل من المحصنات

بـنــت عــلامــة أمــير زكــي ذاك عيسى بن صالح ذي التقاة

ثم يلي ذلك الجزء الثالث والأخير ويه عشرة شعراء من الطبقة الخامسة واثنين وعشرين من السادسة وعشرة من السابعة .

وبذلك يكون مجموع عدد الشعراء الذين يعرف بهم الكتاب ويقدم نماذج من شعرهم ١٣٨ شاعرا على مدى أربعة عشر قرنا هجريا .

ومما يلاحظ أن تقسيم الشعراء إلى طبقات ليس له أساس واحد ، فهو أحيانا الجودة في الشعر أو الشهرة ، أو وجود أو عدم وجود دواوين مطبوعة أو مخطوطة ، وأحيانا على أساس المركز القيادي روحيا كان أو زمنيا أو علميا مثل الأئمة والملوك والأمراء والعلماء ، وأحيانا على أساس يجمع بين المكانة الدينية والاجتماعية والعصر الواحد الذي يعيشون فيه كالطبقة السابعة التي تختص بالقضاة الموجودين بقرننا الحالي أمد الله في عمرهم .

منهج الكتــاب :

والكتاب ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تعليق على قصيدة المؤلف «شقائق النعمان» وشرح لها ، ولهذا فلا نعجب حين نقرأ على غلاف الكتاب هذه الكلمات «حققه وعلق عليه مؤلفه» . وهي طريقة معروفة عند أدباء عمان وكتابها ومؤلفيها على نحو ما فعل ابن زريق الذي عاش في القرن الثالث عشر الهجري (توفي عام ١٢٧١ هـ/ ١٨٧٤ م) بقصيدته «الشعاع الشائع اللمعان ، في ذكر أئمة عمان» ، والتي تقع في ١٤٨ بيتا ، حيث أرخ فيها لعمان ، ثم جعل منها كتابا على نمط الكتب المعروفة بكتب المتون والشروح ، ذلك أنه يذكر البيت من الشعر ، ثم يشرح مفرداته شرحا لغويا ، مع بيان كل كلمة فيه من الاعراب النحوي ، وما في البيت من بلاغة ، ثم يشرح المعنى الكلي للبيت ، ويعقب بعد هذا بذكر الجانب التاريخي الذي يتضمنه البيت . كذلك فعل شيئا من هذا مؤلف كتاب شقائق النعمان بقصيدته المسماة بهذا الاسم والتي يبلغ عدد أبياتها ٣٦٦ بيتا ، شرح منها في جزئه الأول ١٤٩ بيتا منها عشرة أبيات للمقدمة و ١٠٧ أبيات للطبقة الأولى ، و ٣٢ بيتا للطبقة الثانية ، بقيتها

يبدأ بها الجزء الثاني ويشرح فيه مائة بيت ، أما الجزء الثالث والأخير فيشرح فيه ١١٧ بيتا .

ويعلن مؤلف الكتاب أن بحثه لم يتوقف ، ولهذا فمن لم يذكره في قصيدته سيذكره في الشرح إن شاء الله حسب الاستطاعة والامكان ، وبعد ذلك يذكر بإيجاز ما يعرفه عن حياة كل شاعر : في أي قرن عاش وأية سنة توفي إذا كان ذلك متاحا ، وعمن تتلمذ ، وما تقلد من مناصب وربما بعض القصص والطرائف عنه ، وبعد ذلك يورد لكل شاعر تقريبا مختارات من شعره . والمفروض طبعا أن يكون شيئا من أحسن ما أبدع كل شاعر ، ولا شك أن تذوق المؤلف ـ في حدود المتاح أمامه ـ هو أساس هذا الاختيار ، لأننا نقرأ في مقدمات المختارات الشعرية أحيانا إشادة بما وقع عليه اختياره ، فيقول ـ على سبيل المثال ـ «تخميس (أي قصيدة مقسمة إلى مقاطع كل مقطع من خمسة أشطر أربعة منها يشتركون في قافية واحدة فتكوّن وحدة المقطع أما الشطر الخامس فيشترك في قافيته مع الشطر الخامس من بقية المقاطع فيكوّن وحدة القصيدة) رائق على أبيات غزلية» و «وفي الختام سؤ ال منه نفيس» أو «ذكر أحد من نباهنة أهل الدن من سمائل وقصيدة له يرثي فيها ابن عمه وهي رائعة جدا» أو «أدبياته الفائقة ومطارحاته الرائعة» أو «ومن شعره هذه القصيدة البارزة بدقة المعاني وحسن المباني ويحق لها أن تكتب بماء الذهب» (ص ٨) . ومن جانب آخر نراه أحيانا يقول «وللشاعر سالم بن حبيب قصائد ولكن رأيناها سقيمة متكسرة من تغيير النساخ ومن الرواة فما أحببنا إبرازها على تلك الصفة» (ص ٣٤٥) ، مما يدل على أنه يحاول اختيار الجيد وتجاهل السقيم .

ولكن كتابنا ـ بالرغم من ذلك ـ أقرب إلى حصر الشعراء من أن يكون قاصرا على جيد الشعر العماني ، وليس أدل على ذلك من أنه يورد أحيانا أسماء بعض الشعراء الذين يذكر أن لهم قصائد لكن لم يطلع عليها (ص ١٦١) ، كذلك يعلن معترفا مرة بقوله «وإذا أمعنا النظر في نظم هذا الشاعر وجدناه ليس بفصيح ولا جيد ، ولكن زانه ذكر الامام العظيم» (ص٦٦) ، كما يورد بعض قصائد الشيخ جاعد من شعراء القرن الثالث عشر الهجري ثم يعلق قائلا «وكما ترى أيها القارىء غموض معاني بعض الألفاظ من هذه القصائد ، فلا ندري هل هي أصلها كذلك أم

طرأ عليها التغيير من أقلام النساخ ، والأخطاء كثيرة منهم ، والله المستعان» . (ص ١٤٧) ، كما يعلق على شعر الساساني من شعراء القرن الثالث عشر أيضا بقوله «وفي قصائده أخطاء كثيرة لم نستطع أن نورد منها أكثر من هذا القدر ، فشيء من الأخطاء من أصل النظم وشيء من جهة الخط» (ص ١٧٥) .

وهو يوضح منهجه في قصيدته «شقائق النعمان» إذ يقول في مقدمتها عن شعراء عمان :

وهم إذ نعدهم فكثير ... حصرهم ليس ممكنا بالبتات
إنما نذكر الذين تناهى ... علمنا عنهم بذي الصفحات
من له شهرة ومن أنبأ التا ... ريخ عنه في الأعصر الخاليات
وجدير بالذكر من قد عهدنا ... منهم والأولى بقيد الحياة

ونحن نعرف من كلمة المفتي العام للسلطنة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي أن شيخنا محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي رائد في محاولته حصر الشعراء العمانيين في كتاب واحد ، فهو يقول «إن عمان جزء من جزيرة العرب التي هي قاعدة العرب ومهد العربية ، فقد أسهم أهلها إسهاما واسعا في الحركة الأدبية الشعرية والنثرية ، فكان منهم الشعراء النابغون والخطباء المصاقع والكاتبون البارعون . ولكن جُل ما أبدعوه ظل تحت أنقاض الدهر حقبة من الزمن ، وكاد معظم الأدباء يجهلون الأدب العماني والأدباء العمانيين حتى قيض الله الشيخ العالم الجليل والأديب البارع محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي . . فكان ـ وأيم الحق ـ رائدا لم يُسبق في اكتشاف هذه المخبآت ، وكانت بادرته هذه نموذجا فريدا في الحركات الأدبية المعاصرة» ، (ص ١٢ ـ ١٣) .

وقد حرص المؤلف أن يثبت مراجعه ، وهي تتراوح ما بين مراجع عربية عامة كتاريخ ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) ومعجم البلدان لياقوت الحموي (١١٧٩ ـ ١٢٢٩ م) ، وبعضها خاص بعمان مثل الفتح المبين في أخبار السادة البوسعيديين لابن زريق ، وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمي ، وكشف الغمة الجامع لأخبار الأمة لسرحان بن سعيد الأزكوي . . الخ . ولكنه في ثبت مراجعه

ذكر أحيانا المؤلف، ولم يذكر كتابه ، وأحيانا فعل العكس إذ ذكر الكتاب دون المؤلف . فإذا قرأنا الكتاب وجدناه قد رجع إلى مراجع أخرى لم يذكرها في ثبته مثل وفيات الأعيان لابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢ م) ، ومروج الذهب للمسعودي (٩٥٧ م) وإن أخذه عن ابن خلكان .

فكتاب «شقائق النعمان» إذن يقدم صورة للشعر العماني في مختلف عصوره ومختلف موضوعاته . وهو شعر يتراوح بين الشعر بالمعنى الفني - وهو الأقل - ومجرد النظم ، أي استخدام القالب الشعري في موضوعات لا تمت إلى الشعر بصلة ، ربما تسهيلا للحفظ والرواية في عصور لم تكن قد عرفت المطبعة بعد ، وذلك مثل الوعظ ومكارم الأخلاق والتاريخ والمسائل الفقهية التي كثيرا ما تدور على شكل سؤال وجواب - كلاهما نظما - ربما زيادة في الايضاح (وهي خاصية من خصائص التأليف العماني) مرورا بالاخوانيات والتوبة والانابة ومديح الرسول ﷺ ، فاغراض الشعر العربي التقليدية كالفخر والمدح والرثاء والغزل وبث الأشجان ووصف الحرب . . الخ ، ولا عجب فعمان جزء من العالم العربي . وها هو ذا المؤلف يقول عن الشاعر حمود بن حمد بن سعيد الخاروصي السمونلي من شعراء القرن الرابع عشر الهجري إنه «كان يقرأ كثيرا شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري ، ولا يلتذ بشعر غيرهم كما يلتذ بشعرهم» (ص ٢٤٧) . ولكننا نلاحظ غياب بعض الأغراض التقليدية في الشعر العربي من هذه المختارات مثل الهجاء ، ولعل المؤلف آثر أن ينحيه جانبا .

ونحن لا نلحظ - من هذا البعد الزمني - تطورا كبيرا في الأساليب والقوالب الشعرية ، كل ما يمكن ملاحظته أن الشعر العماني - شأنه شأن معظم الشعر العربي قبل العصر الحديث أو ما أحب أن أطلق عليه عصر المطبعة - كان في عصوره المبكرة شعرا تلقائيا خاليا من الصنعة ، ثم ما لبث أن دخلت عليه الزخارف والألاعيب اللغوية بغرض إظهار الشاعر عضلاته اللغوية إن صح التعبير ، فيما عدا فلتات نادرة - على نحو ما سنرى - لكنها لم تمثل تيارا .

مثال ذلك ما رواه النصر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد الذي استنبط علم العروض (وبقية اسمه ابن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي ، وهو من

شعراء عمان في القرن الثاني الهجري) أنه أقام في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال ، وكان له على سليمان بن حبيب والي فارس والأهواز راتب فكتب اليه يستدعيه ، فكتب الخليل جوابه :

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال
شحا بنفسي لأني لا أرى أحدا ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب ، فقال الخليل :

إن الذي شق فمي ضامن ... للرزق حتى يتوفاني
حرمتني خيرا قليلا فما ... زادك في مالك حرماني

ومن شعراء القرن الثالث عشر الهجري ابن دُرَيْد ، ومما اختاره المؤلف باعتباره أجود شعره وأحسنه قصيدته التي أولها :

يا ظبية أشبه شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا
أما تري رأسي حاكى لونه ... طرة صبح بين أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده ... مثل اشتعال النار في جزل الغضا

وتشبيه البياض بالنار هنا له أكثر من وجه ، منه تشابه اللون ، ومنه أن ظهور البياض دلالة على احتراق العمر .

غير أن الشعر ما لبث أن دخلت عليه الصنعة والتكلف كأن تكون القصائد مرتبة حسب الحروف الهجائية ، بل إن كل شطر من الشطرين يبدأ بنفس الحرف الهجائي ، بل إن الحرف الهجائي يتكرر في كل منهما ، وذلك على نحو ما نقرأ في قصيدة الشيخين المحروقي والمعولي من شعراء القرن الحادي عشر الهجري ومطلعها :

أأرجو إيابا من أناس تحملوا ... ألم ثم ارجو أن يثوموا فأملوا
بليت ببيض بهكنات بريني ... بحسن بهاء باهر يتهلل .. الخ

وواضح أن قارئها ينصرف ذهنه إلى متابعة هذه المهارة اللغوية أكثر مما ينصرف إلى ما تحمله من معنى ، بل واضح أن المهارة اللغوية كانت على حساب بساطة المعنى . فما أبعد الشقة بين بساطة التعبير والفكرة في القرن الثاني أو الثالث الهجري وتعقيدهما هنا في القرن الحادي عشر ثم هناك الاهتمام بالمحسنات البديعية ، وذلك على نحو ما نقرأ في هذه الأبيات للشيخ العلامة خلف بن سنان بن خلفان بن عثيم الغافري من أهل عمان في القرن الحادي عشر وصاحب علم الكشف الذي قابل أحمد بن سعيد وهو ما يزال صبيا صغيرا ـ أي قبل أن يصبح سلطان عمان فيما بعد ـ فوضع يده على رأسه وقال له : اتق الله في الرعية ، يقول هذا الشاعر :

لقد صرت حيرانا أصم المسامع لفقد حبيب في الضحى والمسامعي
ولو أن من أهواه طول المدى معي لما صرت محزونا هطول المدامع

ففي هذه الأبيات جناس مركب بين كلمتي المسامع والمسامعي في البيت الأول وكذلك بين كلمتي المدى معي والمدامع . ونحن نحس أن الشاعر كان أكثر اهتماما بإظهار براعته اللغوية من التعبير الصادق عن مشاعره التي تحتاج إلى تعبير أكثر رقة فالشكل لا يتفق والمضمون .

وكذلك على نحو ما قاله في التورية محمد بن شيخان من شعراء القرن الرابع عشر :

فإن تك من بني سيف فإني من بني رمح
وإن تك من بني ليل فإني من بني صبح

فبنو سيف وبنو رمح وبنو صبح قبائل مشهورة بعمان ، وقد ورّى (من التورية) عنها بالمعنى القريب (ص ٢٠٩ ـ ٢١٠) والمؤلف معجب بالشاعر وبمحسناته البديعية فهو يشيد به قائلا «أما الجناس فهو فيه مثل ابن الفارض ومثل الموسوي فحدث عن البحر ولا حرج ، فقلما يمر عليك بيت من شعره وهو خال من الجناس أو من نوع آخر من البديع ، فإن هذا الشاعر متضلع بعلوم الآلة متوسع فيها ، وهل ينسى ذكر استعاراته وتشبيهاته في شعره فإن له القدح المعلى في ذلك ،

والرجل من فحول الشعراء لا يشق له غبار ولا يجارى في مضمار .. الخ (ص ٢١١) .

ومن بين هذه المهارات اللغوية أننا نجد التزام الشاعر بحرف هجائي في أول كل بيت من أبيات قصيدته وآخرها . وقد نسج ثابت بن علي الساساني من شعراء القرن الثالث عشر الهجري على هذا المنوال قصائد بعدد حروف الهجاء . وقد أورد مؤلف الكتاب القصيدة التي قافيتها حرف الراء كما أن أول بيت منها الحرف نفسه كمثال على هذا النوع من القصائد ، ومطلعها :

رضى الأحبة سؤلي بعد ما هجروا　　يا ليتهم نصحوني قبل ما غدروا
... الخ
راحوا ولم يبق لي إلا تذكرهم　　يا ليتهم ذكروني مثل ما ذكروا
... الخ (ص ١٧٣) .

أو قصيدة إذا قرأت أبياتها وجدتها مدحا فإذا عكستها كلمة كلمة كانت ذما ، مثل قصيدة الشاعر المعولي الذي سبق ذكره (اسمه الكامل محمد بن عبدالله بن سعيد بن راشد بن محمد المعولي المنحي المعروي من أهل معره التابعة لمنح) وها هي بعض أبيات من هذه القصيدة العجيبة :

سير لهم طابت فما خبثت　　ربحت لهم سلع فما خسروا
ظفروا وما ضعفت لهم فرق　　رفعوا فما هدمت لهم جدر
ظهروا وما خفيت لهم منن　　ظلم بهم شرقت فما كفروا
صبروا فما جزعوا بما حرموا　　مدحوا فما ذمت لهم سير
شكروا فما كفرت لهم نعم　　عظموا فما محيت لهم أثر .. الخ

وللقارىء أن يعكس هذه الأبيات كلمة كلمة فيدرك اللعبة اللغوية .

وقد كان هذا الشاعر موهوبا حتى ليعلن المؤلف قائلا إن شعره ينبىء عنه وأنه من الأدباء الفصحاء المتفوقين والمثقفين . ويورد له قصيدتين يعجب المرء كيف كتبتا منذ أربعة قرون ، حيث أنهما من ناحية الشكل أقرب ما تكونان إلى ما يمكن أن نطلق

عليه آخر الصيحات في الشعر الأمريكي الحديث الذي نجده مكتوبا في أشكال هندسية كالمثلثات والدوائر والأشكال السداسية ، وهو سبق للشعر العربي في وقت مبكر جدا (القرن السادس عشر الميلادي) ، لم أعثر عليه ـ في حدود اطلاعي ـ فيما قرأت في تراث الشعر العربي ، هذا فضلا عن معانيها الدقيقة وألفاظها الرقيقة . وهي قريبة مما انتشر اليوم في شعرنا العربي الحديث مما نطلق عليه اسم شعر التفعيلة ، أي أن الشاعر لا يلتزم بنفس عدد التفعيلات في كل بيت ، وإن كان تغير عدد التفعيلات في كل بيت هنا مرتبط بالشكل الهندسي للقصيدة . والمسألة المحيرة أن هذه الأشكال الشعرية الجديدة مرتبطة بالمطبعة لأن شكلها لا يتضح إلا بطباعتها ، وروايتها شفاهيا أصعب بكثير من رواية الشعر التقليدي الابن الشرعي للأدب الشفاهي ، ومن هنا تبدو هاتان القصيدتان ـ ولا نعرف إن كان لهذا الشاعر قصائد أخرى مماثلة ـ كأنها نبت شيطاني يدل على عبقرية رائدة وسبق أدبي ، أما أسلوبها الشعري فيذكرنا على الفور بأسلوب الموشحات الأندلسية .

ومن طريف القصائد تلك القصيدة التي وردت في ديوان الحبسي من شعراء القرن الثاني عشر الهجري وأوردها المؤلف في كتابه بعد أن قدم لها بقصة القصيدة ، ذلك أن رجلا بقرية السر من عمان يسمى راجحا جُنَّ بإمرأة عشقها تسمى بشارة بنت سنان ذات حسن وجمال . وكان صحيح العقل ، فبقي حائرا من شدة حبها وحسنها ، وهام بها حتى لم يعد يذكر سواها ، فخرج بسبب ذلك مجنونا تضرب به الأمثال . ويبلغ به الحال إلى أن أشار عليه بعض المتهكمين عليه أن يسأل هذا الشاعر نظم أبيات في محبوبته . فسأله فأجابه ، فنظم هذه الأبيات وقرأها عليه ، ففرح بذلك فرحا عظيما حتى كاد أن يطير من شدة الفرح بها ، وتعلمها وحفظها وصار ينشدها في سكك البلد وأسواقها ليلا ونهارا ويصفق بيديه ويرقص برجليه ، ومنها الأبيات التالية :

سمحت لي الدنيا ببنت سنان   ذات قد يميس كالخيزران
ذات فرع وذات وجه منير   وخدود محمرة الأوجان
لم نجد في زماننا من يباهي   هذه الخود في نواحي عمان

سلبت راجحا بطرف كحيل فهو منه بغير العقل ضاني
تركته مدله العقل لكن صيرت عقله إلى النقصان

ولما كانت النخلة رمزا حيويا من رموز عمان فإن التغني بها بل التغزل فيها موضوع من موضوعات هذا الشعر تجعلنا نحس أننا أمام شعر ذي طابع عماني خالص ، وها هو ذا الشيخ عبدالله بن سليمان بن عبدالله بن سعدالله النبهاني النزوي من شعراء القرن الماضي يتغنى في قصيدة أوردها المؤلف من خمسة وخمسين بيتا بثمار النخيل والأشجار في الجبل الأخضر ، فيذكر فيها أنواع التمر وألوان الفاكهة والزهور ، نختار منها الأبيات التالية :

تيهي عمان بكل فخر مستتم حزت الفواكه والفضائل والنعم
فيك الجنان بها من الأشجار ما لم يحصه كلم يقال ولا قلم
وكفاك أن النخل فيك كثيرة فضلا فقد أحرزت أقوام الأمم
إن كانت الأشجار صاح شريفة في كل أقطار الأعارب والعجم
فالنخل قد أثنى عليها ربنا بكتابه والله أعدل من حكم

وبعد أن يعدد أنواع التمر وأطوار نموه يقول :

وإذا بدا رطب الخصاب لنا فقد خصبت مرابعنا وكان الخير عم
وتطيب أوقات الزمان ببيعها والناس من كل الجهات لها تؤم
ولقد ذكرت من النخيل قليلها ما كان معروفا ومشهورا علم
فالنخل أمثال النجوم فمن ترى يحصي النجوم بفيه يوما أو قلم
إني ذكرت البعض منها نبذة وكفى الذي سميت عما لم يُسم

أما ما يمكن تسميته بشعر الذاتيات ـ وهي وقفة الشاعر مع عالمه الداخلي ـ فهو قليل في هذه المجموعة من المختارات ، ولعله دلالة على ندرته في التراث الشعري العماني . ونكتفي بالاشارة إلى قصيدتين أولاهما لعبدالرحمن بن ناصر بن عامر الريامي الأزكوي ، وكان من الأدباء البارزين والفصحاء المثقفين على حد تعبير المؤلف وهو من شعراء القرن الرابع عشر الهجري . قال معبرا عن انفعاله بالشيب

الملم بالوجه والمخيم بالرأس ، ونلاحظ أنه يستسلم له حينا فيمدحه ويثور عليه حينا فيتشاءم منه ، نقتطف من قصيدته الأبيات التالية :

خليـاني واتـركـا ذكـر الصبـا ... إنمـا ثـوب الصبـا ثـوب معـار
إنمـا عصـر الصبـا ليـل دجـا ... أدبـر الليـل بـإشـراق النهـار
أيـن ريعـان الـصبـا لما أتى ... رائـع الشيب ينـادي بـالـبـدار
ظـلة ولـت فـلا تحـفـل بهـا ... وضـح الحـق وقـد شط المـزار
بـومـة قـد عششت في هـامتي ... بعـد غـربيب بهـا حـل وطـار
أقبـل الـشـيـب بـنـور زاهـر ... وشبـاب قـد تـولى بـاعتكـار
يـا مشيبا قـد تـوافي مـرحبـا ... صـاحب لي أينـما سـرت سـار
زادك الله بهـاء وضـيـا ... مثلما قـد زادني منـك الـوقـار
صـرت في رأسي ووجهي مشرق ... منـك قـد أشـرق قلبي واستطار
رب كـرمـه وأكـرمـني بـه ... واكـفـني أفـعـال عـار وشـنـار
واكسني التقـوى ريـاشـا سابغـا ... واقيـا مـن كـل سـوء وعـثـار
تـبت مـن كـل ذنـوبي سيـدي ... يـا مجيري هبني آثـامي الكبـار

. . . الخ (ص ٢٧٦)

أما القصيدة الأخرى فهي للقاضي سالم بن محمد الدرمكي الأزكوي من شعراء القرن الثالث عشر ، قالها حين أتاه من يبشره بولادة طفلة له منها هذه الأبيات :

جـاءت تبشـرني بـوضـع فتـاة ... فـأجبتـهـا بُشِّـرتِ بـالجنـات
هـذي على مـدى الحياة هي التي ... تحـمـي وتـنـدبـني زمـان وفـاتي
هـذي الـتي مني يـسـر فؤادهـا ... إن قـلت هـاكِ بنيـتي أو هـاتي
هـذي التي يـوم الـنـوى تشتـاقني ... وتـلـح لـلرحمـن بـالـدعـوات
هـذي التي ملهـاتـهـا أدنى اللهى ... وأقـل شـيء سـار في اللهـوات
هـذي التي إن عاينت مـا سـرني ... في سـاعة سرت مدى السـاعـات
وإذا رأت مـا سـاء قلبي سـاءهـا ... فـرأيـتـهـا مـنـهلة الـعـبـرات
لـو أن ربي قال لي مـا شئت قل ... تُعـطى لقلتُ تُـطيـل عمـر بنـاتي

ولكن مثل هذا الشعر ـ كما قلنا ـ نادر . فمع أن جو عمان تغلب عليه الحرارة مما يتطلب ارتداء ما خف من الثياب ، إلا أن المتتبع لمعظم تراث الشعر العماني ـ كما يقدمه لنا هذا الكتاب ـ يحس أن قائليه قد ارتدوا أثقل ما لديهم من ملابس رسمية قبل أن ينشدوا قصائدهم ، ونادرا ما نعثر على قصيدة قد تخفف فيها الشاعر من تلك الصيغ التقليدية التي تطمس فرديته وفردية أسلوبه وصوره ومصطلحه الشعري . وهذا ما يحاوله بعض شباب الشعراء والشاعرات العمانيين المعاصرين أن يفعلوه ، أن ينفضوا عنهم هذه الملابس الرسمية التقليدية التي نسجتها قرون فوق قرون وتراكمت على مر السنين ، ويلتقوا بقرائهم لقاءهم بأصدقائهم وأحبائهم ـ لابضيوفهم ـ في بيوتهم بملابسهم المنزلية ، فيهمسون لهم حينا ويحدثونهم حديث القلب للقلب حينا . ولا شك أن ما حدث لسلطنة عمان من تطورات حضارية في العقدين الثامن والتاسع من هذا القرن والقضاء على عزلتها وتفاعلها مع العالم الخارجي له أثره ـ وسيكون له مزيد من الأثر ـ في تطور الشعر العماني الحديث .

ونحن نرجو أن تكون الخطوة التالية لهذه الخطوة الرائدة أن يقيض الله أديبا عمانيا يقوم بجمع مختارات من جيد الشعر العماني ـ بعد أن تم حصر شعرائه على هذا النحو ـ يضمنه ما أضافه الشعراء العمانيون الشباب الذين غابت أسماؤهم عن هذا الحصر الذي بين أيدينا ، وذلك أسوة بما فعله الكثيرون من الأدباء العرب لعل من أقدمهم أبو تمام في ديوانه الحماسة ، وعلى نحو ما نجد في الشعر الانجليزي من مجموعات مختارة لعل من أشهرها وأمتعها الخزانة الذهبية ، مما يجعلنا في انتظار «الخزانة الذهبية في الأشعار العمانية» .

فنون الشعر الشعبى فى سلطنة عمان

طلبت ربي كـريم من به نستعـين ... قال الفتى خو على قلبي انقسم قسمتين
قلبي انقسم بالنصف قسمة مود وظنين ... قسم عطيته السمر سمعوا يا السامعين
وللبيض نصف القلب رغم على الحاسدين ... ويقسم قسمه عدل ما بين صافي الجبين
البيض روضة قمر اللي يعيش الناظرين ... والسمر فيهن حسن يبغي فواد رزين
البيض اللي ينهب واكدوا قولي يقين ... وأما السمر حبهن في مهجة العاشقين
البيض سكنتهن في وسط عيني اليمين ... والسمر يبني لهن في القلب قصر مكين
البيض هيل ويل والسمر خوخ وتين ... بيض وسمر كلهم وسط القلب ساكنين

(هيل ويل أي حب هان وياسمين) .

هذه أبيات طريفة من إحدى أغنيات فن الرمسه ـ وهو أحد فنون الشعر الشعبي العماني ـ يرضي بها الشاعر الشعبي سعيد عبدالله ولد وزير كلا من السمر والبيض ، وقد أوردها سعادة السفير سالم بن محمد الغيلاني في كتابه الذي نشره أخيرا (عام ١٩٨٥) بعنوان «أغاريد البحر والبادية» .

وسعادة السفير سالم بن محمد الغيلاني من أبرز العمانيين المهتمين بالأدب العماني الشعبي ، ولعل ذلك مرجعه إلى أن والده المرحوم محمد جمعه الغيلاني كان من أبرز شعراء الشعر الشعبي في صور ، هذا فضلا عن الثقافة والحس النقدي اللذين يتمتع بهما الأستاذ سالم الغيلاني . لهذا فلا عجب أن كان أول كتاب ينشره هو ديوان والده بعنوان «من أغاريد البحر والبادية» عام ١٩٦٦ ، وفيه مقدمة تعطي

فكرة عن فنون الشعر الشعبي العماني وكذلك نبذة عن حياة الشاعر محمد جمعه الغيلاني .

ثم تلا ذلك كتابه «على هامش الشعر الشعبي العماني» وفيه يشرح بعض ألوان هذا الشعر ثم يتناول الأثر الديني فيه ، وفي الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب يقدم دراسة مركزة عن شعر والده في صورتيه : الشعبي والفصيح .

أما كتابه الثالث الذي نشره عام ١٩٨٥ فهو عن الشاعر الشعبي سعيد عبدالله ولد وزير بعنوان «الأدب الشعبي في بلد الشراع» . وفيه مقدمة تكمل ما بدأه في كتابيه السابقين عن ألوان الشعر الشعبي العماني ، بحيث أن قارىء الكتب الثلاثة يمكن أن يأخذ فكرة طيبة عن هذا اللون من الشعر نظريا وكذلك تطبيقيا من خلال ديواني الشاعرين محمد جمعه الغيلاني وولد وزير .

والأستاذ الغيلاني يقدم بذلك نموذجا عمليا للاهتمام بالتراث الشعبي العماني وضرورة جمعه والحفاظ عليه قبل أن تقضي عليه التطورات الحضارية التي تمر بها السلطنة في السنوات الأخيرة ، لا سيما انتشار الاذاعة والتليفزيون اللذين حلا محل الشاعر الشعبي وأقاصيص الجدات للأحفاد في كل مكان بالعالم . وهو يدعو في مقدمة كل كتاب من كتبه إلى ضرورة الاهتمام بجمع هذا التراث كوسيلة من وسائل دراسة المجتمع العماني والنهوض به من جهة ، وحفاظا على هذا التراث من الضياع من جهة أخرى .

الشعر الشعبي في تراثنا العربي

وهو يجب أن يطمئن قراءه أولا إلى أن الاهتمام بالأدب الشعبي لا يتناقض مع التمسك بلغتنا العربية الفصحى ، فيعلن في الفصل الأول من كتابه «على هامش الشعر الشعبي العماني» «أن الاهتمام بحماية اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، يجب أن يسير في خط مواز للاهتمام بالفنون الشعبية في الأوطان العربية» . ويستطرد قائلا : إنه مع استقرار الحياة في المجتمع الاسلامي لم يعد الخوف على الفصحى يمثل عقدة عند العربي ، فقد توطدت دعائم الأدب العربي الفصيح ، وأصبح في

مستطاعه أن ينمو في أمان ، بينما تنمو من حوله وبلا تناقض معه ثقافات الريف الجديد الذي يفخر بأنه جزء أصيل من المجتمع العربي ، ويشعر أهله أنه جزء أصيل من المجتمع الاسلامي الجديد» . (سالم محمد الغيلاني ، على هامش الشعر الشعبي العماني ، المطابع العالمية ، روي ، سلطنة عمان ، د.ت. ، ص ١٥) .

ثم يتابع المؤلف في هذا الفصل تطور الشعر الشعبي في اللغة العربية وألوانه بدءا من فن الزجل الذي ظهر في الأندلس ـ كما ظهر فن الموشحات ـ إلى الشعر الشعبي الذي كان يُنشد بمصاحبة الموسيقي (كالربابة) في أغلب الأحيان باعتباره ابنا شرعيا للأدب الشفاهي .

ثم يورد أقوالا مما جاء في تراثنا العربي منوها بالأدب الشعبي مثل قول نصر الدين بن الأثير (١١٦٢ ـ ١٢٣٩ م) في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» حيث يقول «ويبلغني أن قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون الليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر ، وان لم يكن من بحور الشعر المنقولة من العرب . وسمعت شيئا فوجدت فيه معان حسنة مليحة ومعان غريبة وإن لم تكن الألفاظ التي صيغت به جيدة الصنعة» .

وفي مختصر مناقب بغداد نقرأ «ومن خالط أهل بغداد وعلماءها عرف فضلهم ولطفهم . ومن تأمل لطافة العوام بها في مجونهم وحديثهم وإشاراتهم التي لا يفهمها أكثر علماء غيرها من البلاد ، حتى إن فيهم من يقول الشعر المسمى (كان كان) ، فيأتي بالمعاني التي لا يقدر عليها فحول الشعراء ، تبين له فضلهم ولطافة أخلاقهم» .

ثم يورد فنون الشعر السبعة كما ذكرها الابشيهي (١٣٨٨ ـ ١٤٤٦ م) صاحب كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» ، حتى يصل إلى الشعر الشعبي العماني ممثلا في المنطقة الشرقية في صور ، فيصفه بأنه يجمع بين بداوة الصحراء وطلاوة البحر ، وأنه دائما مزيج من الصدق والحلاوة حين يقدم القيم والتجارب الانسانية والحكمة .

ويعلن سعادة سالم محمد الغيلاني أن الجانب البدوي في الشعر العماني يمتد إلى عصور الجاهلية الأولى يوم كان عرب البادية يضربون في الصحارى والقفار ، ويواجهون المشاق والأخطار ، متحلين بالصبر والشجاعة والكرم والنجدة والصدق والأمانة .

والشعر الشعبي يستغرق كل فنون الشعر الفصيح من مديح وغزل ورثاء وفخر ووصف وهجاء ، وفضلا عن ذلك فإنه يصلح للرقص الشعبي والغناء ، وله في عمان ألوان عديدة بحسب الشكل والمضمون من أبرزها : الرزحة ، وفن الميدان ، والرمسة (فن بن عبادي وعلوه سالم) والتغرود .

الرزحـــــة

والرزحة أشهر ألوان الشعر الشعبي في عمان ، وهي الوسيلة الفنية التي يعبر بها الشعب عن انفعالات الفرح والحزن والرضى والغضب ، وهي فن الحماسة والفخر .

والرزحة ألوان كثيرة منها الهمبل واللال والهبوت والعازي . ويقول المؤلف إننا إذا ذكرنا الرزحة في عمان فإنه يتبادر في ذهننا على الفور القلطة في الكويت والعيالة في ساحل عمان والسدة في اليمن . والخلاف بين هذه الرقصات يكون عادة في الأداء والتعبير بحسب ظروف كل منطقة (المرجع السابق ، ص ٢٤) .

فمن الأشكال الشائعة للرزحة ذلك النوع الذي يسمى «همبل» ، ويتميز بصفوف الراقصين المتوازية ، والرجال المسلحين يتقدمهم قارعو الطبول (الكاسرو والرحماني) . وكلما أخذ الحماس الرازحين عبروا عن ذلك بإطلاق الأعيرة النارية في الهواء .

أما اللال فيطلق عند ثبات الراقصين في الرزحة . وفيه ينقسم القوم صفين متقابلين ، وهم عادة مسلحون . وهناك صفان آخران متقابلان غير الرزاحين ، يكونون في العادة من شيوخ القبائل والنساء والأطفال والطاعنين في السن . وهكذا تكون ساحة الرزحة في فن اللال عبارة عن مربع ، ضلعان منه للرزاحين والضلعان

الآخران للمتفرجين . أما داخل المربع فيوجد فريق ثالث من أربعة رجال ، إثنان منهم يحمل كل منهما سيفا ودرعا يتبارزان على إيقاعات طبلتين يحملهما الرجلان الآخران . وحاملا الطبلتين يدوران بطبلتيهما حول مربع دورتين أو أكثر ثم يقفان ساكنين . لهذا فإن هذا اللال الذي يدخل ضمن إطار الرزحة يسمى أيضا رقصة السيف والترس . ويقول المؤلف إنها رقصة شعبية عريقة في قدمها عراقة الانسان العربي منذ كانت الجزيرة العربية ميدانا للصراع بين القبائل في العصر الجاهلي . وهذا النوع من المبارزة ليس محصورا في عمان بل يوجد بأشكال مستمدة من البيئات المختلفة في الخليج ومصر وتونس والسودان بل إنه وصل إلى أوروبا في القرون الوسطى عن طريق اسبانيا .

وللشعر مكانة ممتازة في رقصة اللال ، ذلك أن كل صف من الصفين المتقابلين من الرزاحين يضم شاعرا شعبيا له القدرة على ارتجال قصائد الهجوم والدفاع ، وبمجرد أن يتوقف قرع الطبول أمام الصف الذي فيه الشاعر يرتجل الشاعر القصيدة المناسبة للموقف المناسب . وعادة ما تكون من نفس وزن وقافية شعر الشاعر المعارض له . ويخلص المؤلف إلى أن الرزحة إذن مطارحة شعرية فيها سرعة البديهة والارتجال السريع والرد المناسب .

أما العازي فهو لون من ألوان الرزحة إلا أنه يختلف في إيقاعه وأدائه . وهو الفاصل الختامي للمسيرة الايقاعية المهرجانية في شكل الهمبل . فمتى رأت الفرقة أنها على وشك الانتهاء توقفت الطبول وتوقف الرزاحون عن الغناء وبدأوا يتجمعون على شكل دائرة يتوسطهم رجل يتميز بجمال الصوت . وينشد العازي ممتدحا القبيلة معبرا عن مآثرها ، ثم ينتقل إلى موضوعات عاطفية أخرى . وشاعر العازي يحمل هنا سيفا باحدى يديه وترسا بالأخرى ، ويدور حول تلك الدائرة يتبعه نفر من الرجال يحملون البنادق ويرددون معه : عزك الله يدوم ، عزك الله يواب . وبعد كل بيتين من العازي يطلقون من بنادقهم طلقات نارية في الهواء .

فــن الميــدان

وفن الميدان من الفنون الشعبية المنتشرة في كثير من مناطق السلطنة وكذلك

البلاد العربية التي تختلف تسميته فيها . ويختلف شعر الميدان عن الأشعار الشعبية الأخرى ، فالشاعر ينهي شطر بيت قصيدته بكلمة ويرددها عدة مرات ولكن بمعان مختلفة تماما عن المعنى الأول والثاني وهو ما يعرف في البلاغة بالجناس ، ويوجد شبه له في الموال المصري . ويقام هذا الفن بالطبل والزمر وتمارس فيه بعض الطقوس الخاصة حيث يعتقد البعض ـ خصوصا الموالي وهم السواحليون أو سكان ساحل افريقيا الشرقي الذين جيء بهم إلى عمان في الماضي ـ أن ممارستهم لطقوس هذا الفن تشفي بعض الأمراض ، فهم يزاولون هذا الفن كجزء من طقوسهم الدينية . ومن المعتقد أن هذا الجزء من فن الميدان جاء إليهم من شرق افريقيا أو جاءوا هم به إلى عمان .

ويقول الأستاذ الغيلاني إن فن الميدان من الفنون التي تحتاج إلى إعمال ذهن وإلى موهبة شعرية حادة . وهو يعتبر من أكثر الفنون الشعبية انتشارا في مناطق السلطنة المختلفة . ويطلق عليه شعراء الميدان اسم «فراخ الهوى» أي زهور الهوى لتنوعه وتعدد أساليبه . ويقتبس عن أحد شعراء الميدان قوله إنه نظم في جميع ألوان فنون الشعر الشعبي الأخرى فلم يجد أية صعوبة ، إلا أنه إذا أراد النظم في فن الميدان فلا بد من الاستعداد له وحضور الذهن والقلب . ويضيف قوله إن لهذا الفن بابين يدخل الشاعر فيه من باب ويخرج من الباب الآخر . وهذا تعبير شعبي معناه صعوبة انتقاء الكلام في فن الميدان (سالم بن محمد الغيلاني ، الأدب الشعبي في بلد الشراع ، القاهرة ، مطابع أخبار اليوم ، ١٩٨٥ ، ص ٣٧) .

ولئن كان الموالي أكثر الناس تعاملا مع هذا الفن الشعري رجالا ونساء ، إلا أن نظم الشعر يشترك فيه الأحرار والموالي على السواء . فالشاعر ينظم شعره ويردده الرجال والنساء وراءه .

ويمتاز شعر الميدان بالنضج وحسن الصياغة وقوة الجَرْس ، فالشعراء يتلاعبون في ألفاظه على نحو ما نرى في المثال التالي :

لا تخلط الهيل في الفلفل　　راعي النظر يس يس يس
ما حيدني أقطعت بر بر بر　　ولا حيدني زرعت بر بر بر

إلى أن يقول :

بــرايــك تــبــا تــفــل فــلفــل يــوم تـبـا تـفـل يس يس يس

فنلاحظ هنا التلاعب في الألفاظ ، ففي الشطر الأول من البيت الأول يقول لا تمزج الهيل مع الفلفل ، أما في الشطر الأول من البيت الأخير فيقول إذا أردت أن تغادر البلاد فلك ذلك ، لأن كلمة فلفل في الشطر الأول من البيت الأول معناها الفلفل ، أما في الشطر الأول من البيت الأخير فمعناها المغادرة أو الهروب من فلّ يفل فلولا . كذلك في الشطر الثاني من البيث الثاني يقول الشاعر إنني لم أذكر أنني استطعت قطع البراري والقفار ، لأن كلمة بر مفرد براري ، وكلمتي بر بمعنى أبدا ، أبدا . ثم يعود في الشطر الأول من البيت الثالث ليستخدم كلمة بر بمعنى آخر هي الحنطة ، ويؤكد بكلمتي بر بر أنه لم يزرع في حياته حنطة أبدا أبدا ، (المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ٣٨) .

وإلى جانب ذلك فلفن الميدان أصول ونظم يجب اتباعها بدقة وتطبيقها من جانب كل المشاركين سواء ممن أقاموه أو من الضيوف . وقد يكون سبب إقامة الميدان رغبة عائد من سفر نذر إذا عاد سالما أن يقيم ميدانا ، أو مريض يعتقد أنه سيشفى عند إقامة الميدان . وهكذا يذهب إلى كبير القوم يطلب منه الاذن بإقامة الميدان ويبلغه أنه قد أعد كل المستلزمات المطلوبة . فيبدأ كبير القوم في التهيئة والتحضير ، فتنصب الخيام في المكان المخصص ، حيث أن لكل قبيلة مكانا خاصا يقام فيه الميدان لا يسمح للقبائل الأخرى باستخدامه ، كما تبدأ الاستعدادت في تحضير المعدات اللازمة كالطبول والدفوف وغيرها . وقبل البدء ترسل الرسل إلى القبائل الأخرى المجاورة لدعوتهم . ومن تقاليد فن الميدان أنه إذا وصلت القبيلة المدعوة يقف المدعوون حتى يطلب منهم الداعون الجلوس . فإذا سمح للمدعوين بالجلوس يسمح بعدها بقرع الطبول والبدء في الغناء ، وعند ما ينتهي «الدور» يضعون طبلا في كل جانب وفي الوسط طبلا كبيرا يسمونه «الواقف» ، ثم ينبري كبيرهم ـ وهو المقدم على الفريق المضاف ـ يقول لأصحابه : تفضلوا ادخلوا واحدا واحدا . ثم يضع رئيس المجموعة يده على الطبل «الواقف» ، ويبدأ القرع عليه ، يليه الغناء

الذي يبدأ دائما بالسلام من جانب الضيوف إلى أصحاب المقام . (المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩) .

وبعد التحية والسلام والترحيب بتنصيب الميدان ، ينبري أربعة شعراء يمتاز أحدهم بالتفوق والسبق على الآخرين ، فيتحداهم حتى يشعر منافسوه أن وجودهم غير ضروري .

تلك بداية الميدان . ثم يتطور الأمر ويتحول إلى صراع كلامي بين شاعرين من مجموعة الشعراء الذين عادة ما ينسحبون عند إحساسهم بالعجز من الاستمرار . وتستمر المعركة ويحمى وطيسها حتى منتصف الليل . هنا يأتي الدور الرئيسي الذي من أجله أقيم الميدان حين يحضر الداعي له ويجلس في زاوية من زوايا المقام ، ثم يصطف الرجال في صف والنساء في صف ، ويتقابل الصفان ويهتز الجميع في طرب ونشوة دون أن يمس أحدهم الآخر . وقد ينبري أحد الرجال من صفه يكب على ركبتيه أمام إحدى النساء في الصف الثاني معبرا بذلك عن رغبته في مراقصتها فتخرج من صفها ملبية طلبه .

ثم يأتي بعد ذلك دور الزفة . وهي عبارة عن مسيرة كان يحمل فيها الموالي الأعلام الملونة ويزفون الداعي ـ كأن يكون عائدا من سفر أو مريض ـ إلى موقع قد يكون منزله . ويقول لنا المؤلف إن هذه الزفة مرتبطة بطقوس دينية وتقام خصيصا للداعي للميدان . كما يرى المؤلف أن جزء الزفة هذا الذي أدخل على الميدان جاء من شرق افريقيا مع هؤلاء الموالي الذين هم من أصل افريقي ، ودليله على ذلك أن الكلام الذي يقال في الزفة يختلف عما يقال في الميدان ، فهو بمثابة كلمات معروفة ثابتة تقال وتتكرر كلما أقيمت الزفة . وعلى سبيل المثال ففي مسيرة الزفة يردد الجميع هذه العبارات :

شيل لله شيل لله طاب الخير طاب الخير
حبانا الخير حبانا الخير صلوا عليه صلوا عليه
محمدا صلوا عليه

(المرجع السابق ، ص ٤٢)

الرمســـة

ويعرض المؤلف لفن آخر شعبي مشهور في المنطقة الشرقية وخاصة في مسقط رأسه مدينة صور هو فن الرمسة .

فيحدد أولا الوقت الذي تقام فيه هذه الرقصة وهو عيد الأضحى المبارك . أما المشتركون فيه فهم الاماء ، كما يُسمح للفتيات من سن العاشرة إلى الخامسة عشر بالمشاركة فيه أثناء النهار ، فيلبسن ملابسهن الجميلة ، ويتزين ويحسرن رؤ وسهن ويبدين في أجمل زينة ، ويأتي الناس للفرجة من كل مكان . ومن بين هذه الجموع مَنْ يأتي لمشاهدة الفتيات اللاتي سمع عنهن من ذويهن أو رُشحت بعضهن للزواج منه ولم يتمكن من رؤ يتها إلا في مثل هذه المناسبة ، فإذا أُعجب شاب بفتاة عبّر عن اعجابه بأن سحب نصل خنجره من غمده ودخل ساحة الرقص ومسح بنصل خنجره رأس الفتاة الحاسر المزيّن بالحلي . وهذا يعطي الأهل من جانب الشاب إشارة البدء في الحوار مع أهل الفتاة حول امكانية الزواج .

أما الطريقة التي تقام بها الرمسة فتتلخص في مجموعة من الاماء يقفن في صفين متقابلين ، كل فريق يتكون من خمس إلى ست من الاماء جالسات تحمل كل منهن دفّا ، وتختفي أو يختفي خلف كل فريق شاعرة أو شاعر ، تماما كما هو الوضع بالنسبة للرزحة والفنون الشعبية الأخرى المشابهة . فالفن الشعبي أساسه المبارزة الشعرية بين شاعرين . وهكذا تشترك ثلاث مجموعات في الرمسة أو في هذا الفن الذي يجمع بين الغناء والرقص أو الأدب والموسيقى والحركة الايقاعية : فالمولدات (الاماء) يغنين ويقرعن الطبول ، والبنات يرقصن ، وقرائح الشعراء تجود بالكلام الحلو العذب والعاطفة الجياشة ، والشباب يحملقون معجبين بما يدور حولهم وأمامهم (المرجع السابق ، ص ٧٠ ، ٧١) .

والأشعار التي تقال في فن الرمسة يطلق عليها : ابن عبادي علو وابن عبادي يا سالم ، والفرق بينهما في الميزان الشعري .

وهذا الفن لا يزال يمارس حتى الآن في الأعياد ، وله ما يماثله في عمان الداخل إلا أنه يختلف عنه في الايقاعات والتسمية إذ يطلق عليه «دان دان» .

ألوان أخرى من الشعر الشعبي

وهناك ألوان أخرى من الشعر الشعبي المرتبط بالغناء منها :

العيالة : وهي شقيقة الرزحة مع اختلاف في الايقاع والحركة . وهي لون منتشر في ساحل الباطنة .

المقاييض : لون من ألوان الأهازيج الشعبية تؤديه النساء في الأعراس ، تتغنى فيه بصفات العروسين الجمالية والخلقية .

أمبوم : هذا النوع من الفن الشعبي موجود في الشرقية ، وهو خاص بالنساء حيث يرقصن ويغنين والرجال ينشدون ، ويخيم على الجميع الانسجام مع الايقاع والموسيقى المميزين لهذا اللون الذي يبعث في النفوس النشوة والطرب .

وفيما يلي نموذج لما يقال في هذا الفن :

يا دان يا دان الدان يا دان يا دان الدان
يا دان يا دان الدان ذا بو العبد يوم قال

* * *

حس الطبل يا محسنة حس الطبل يا محسنة
وسمعت طير عجيب كل يجيني بلحنه

* * *

جبت المثل من معدنه جبت المثل من معدنه
وزاد الفرح في بلادنا بعيد الوطن في السلطنة

* * *

عاشق وحنت مهجته عاشق وحنت مهجته
زاير بنات الهوى سلم وأدى تحيته

شحشح : أحدث الفنون الشعبية وأحبها إلى قلوب النساء لأن شعره غالبا ما يكون رقيقا فيتطرق إلى الوصف والغزل . ورغم شعبيته الواسعة إلا أن بعض الناس لا يميلون إليه ولا يحضرون حفلاته ، ويعلل المؤلف ذلك بأنه ربما يعود لكون هذا الفن يمتاز بالصراحة في التعبير والوضوح في الوصف (المرجع السابق ، ص ٢٧) .

ولعل أهم ما نخلص به من هذا العرض لمختلف فنون الشعر الشعبي العماني ، أن هذا الشعر ـ شأنه شأن الشعر الشعبي عامة ـ مرتبط بالحياة الاجتماعية أشد الارتباط فهو منها وإليها ولا تعني ظاهرة مثل ظاهرة الارتجال أو المبارزات الشعرية إلا أن الشاعر يستلهم أبياته ـ ألفاظا ووزنا ومعنى ـ من اللحظة الاجتماعية التي يندمج فيها وينفعل بها وتلهمه القول . وتفوقه الشعري على منافسيه ليس تفوقا لشخصه فقط بل لعله بالدرجة الأولى انتصارا لجماعته التي ينتمي إليها : قبيلة أو مدينة أو قرية . ثم إن هذا الشعر الشعبي مرتبط ـ على نحو ما رأينا ـ بالمناسبات كالأعياد والأفراح أو شفاء مريض أو عودة غائب ، كما أنه مرتبط بالأغاني والرقص والايقاع والألعاب الشعبية أي بالجماعة وهي في أوج حيويتها ، فهو جزء منها متمم لها . لهذا فإن قراءته بمعزل عن اللحظة الحية التي ينبثق منها ولها لا تعطينا إلا فكرة باهتة عنه ، كأنما تشاهده من خلال صندوق زجاجي في متحف تاريخي ، وهذا شأن كل أدب شفاهي حين يتحول إلى أدب تسجنه حروف المطبعة .

***

وأخيرا فإن هذا الجهد المشكور من جانب الدارس الفنان سالم بن محمد الغيلاني ـ الذي يضرب المثل العملي بما بذله من جهد ليحتذيه الآخرون ـ يوضح حقيقتين وينبه إليهما : أولهما أن لعمان كنوزا من تراثها الشعبي ، وما كشف عنه ليس إلا ذرة من هذه الكنوز التي تنتظر أكثر من دارس مخلص محب لوطنه وتراثه . أما الحقيقة الثانية فهي أنه يجب الاسراع بإنقاذ هذا الكنز قبل أن يجرفه ما يتدفق عن

طريق الاذاعة والتليفزيون وأشرطة الكاسيت والفيديو من سيل الأغاني والرقصات والألحان من كل أنحاء العالم لتصل بلمسة زر وفي أية لحظة إلى كل بيت وكل مجتمع في عمان على ساحلها كما في داخلها ، وإني أضم صوتي إلى صوت أخي سالم بن محمد الغيلاني في ضرورة تضافر جهود الأفراد والدولة لتحقيق هذا الهدف الثقافي الوطني النبيل .

شــاعر البحــر والبــادية محمد جمعــه الغيلاني

شاعر البحر والبادية
محمد جمعه الغيلاني

ولد الشاعر محمد جمعه الغيلاني عام ١٣٢٧ هـ في مدينة صور ، ونشأ في بيت والده الشاعر «جمعه راشد الغيلاني» . وكان لذلك أثره في تنمية المواهب الفنية لدى الشاعر الابن ـ كما يقول ابنه سعادة السفير سالم محمد الغيلاني في المقدمة التي كتبها لديوان أبيه والذي قام بجمع أشعاره فيه ـ فقد اعتاد الابن أن يصاحب الوالد الشاعر في أسفاره وأن يرافقه في المناسبات التي يلقي فيها أشعاره . بل إنه قام في أول حياته بدور الراوية لأشعار والده ، إلى درجة أن الوالد كثيرا ما كان يستعين بذاكرة الابن لتذكيره ببيت أو بيتين مما قاله في مناسبات سابقة .

ويروي لنا الأستاذ سالم محمد الغيلاني أن والده لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره عند ما بدأ ينظم الشعر خفية عن جده ـ ربما لعدم ثقته فيما ينظم ـ لكن حدث ذات يوم أن تصدى الابن لمبارزو والده في إحدى المساجلات التي كانت تقام في حفلات الرزحة وهي رقصة شعبية عمانية تتخللها مساجلات شعرية . وعند ما أراد الأب أن يعرف مَنْ هذا الذي يرد عليه بنفس القافية والوزن اكتشف أنه ابنه . فأسعده ذلك وشجعه على المزيد من نظم الشعر وارتجاله . وهكذا وجدت موهبة شاعرنا المناخ الذي تنمو وتزدهر فيه ، ثم ما لبث أن صقلها تعلمه القراءة والكتابة بعد ذلك وشغفه بمطالعة كتب الأدب .

وعند ما كبر محمد جمعه الغيلاني عمل بحارا فربانا على إحدى السفن ـ كعادة الكثيرين من أهل صور في ذلك الزمان ـ يتنقل بين موانىء البصرة ودار السلام على

ساحل افريقيا الشرقية ، وبين الهند وعمان ، يتاجر في الأخشاب والتمور والحرير . من هنا كان البحر أحد أهم موضوعين من الموضوعات التي تناولها في شعره : البحر بجماله وجلاله ومخاطره وطيوره التي تدل على اقتراب السفينة من الشاطىء ، وما يثيره من مشاعر الوحدة والغربة والحنين .

وإذا كان البحر أحد وجهي عمان ، فإن البادية وجهها الثاني . وقد أتيحت لشاعرنا فرصة مخالطة عرب البادية في فترة من فترات حياته ، وذلك حين عمل بتجارة الأخشاب التي كان يقطعها من أعالي الباطنة لتستعمل في بناء السفن ، ويُطلق عليها اسم «شلمان» . «فكان يستخدم الجمالين بجمالهم في نقل الأخشاب من الأعالي إلى الشاطىء ، لنقلها بعد ذلك في السفينة . وكان يسير معهم مسافات طويلة ، مما أتاح له فرصة الاحتكاك بهم ، والتعرف على عاداتهم وتقاليدهم فضلا عن أشعارهم وأغاريدهم» ، (سالم محمد الغيلاني ، أغاريد البحر والبادية ديوان الشاعر محمد جمعه الغيلاني ، ط ٢ ، د.ت. ، دار العرب للطباعة والنشر ، كراتشي ، باكستان ، ص ٦٠) . ومن هنا كانت البادية هي الوجه الآخر لشعر محمد جمعه الغيلاني ، وبذلك يكون شعره قد ألم بكل جوانب الحياة في عمان ، مما جعله يشتهر بحق باسم شاعر البحر والبادية .

بطاقة تعارف للشعب العماني

ويصف الابن سالم محمد الغيلاني أباه محمد جمعه الغيلاني وصفا طريفا حين يقول إنه بطاقة تعارف للشعب العماني وسفيره المتطوع ومنارته ، ذلك لأنه صوّر وجه عمان الجميل ، وعبّر عن المواطن العماني . وقد لخّص لنا سالم محمد الغيلاني المواطن العماني في مجموعة من الثنائيات نجملها فيما يلي :

كائن بشري مؤمن بالله ورسوله ، إيمانا نابعا من اعتقاد صادق ، فخور به . وهو يسعى جاهدا لحماية هذا الدين ونشره ، بالجهد والمال ، داخل البلاد وخارجها . يقف على ربوة عالية من التراث والأجيال تمتد آلاف السنين . يقظ للطبيعة . عاشق يربط بين حبيبه ووطنه . نبيل يفاخر بنسبه وبالقيم السامية :

كالقوة والتعاون وحماية العِرْض وكتمان أسرار الهوى . يحارب كل سلوك غير كريم كالبخل والوشاية .

وفي كل هذه الأغراض قال محمد جمعه الغيلاني شعره .

إيمانه بالله ودينه

ويتابع الابن الوفي هذه الأغراض بأمثلة من شعر والده في كتابه «على هامش الشعر الشعبي العماني» إذ يخصص الفصل الثالث منه لوجه عمان الجميل من خلال شعر المرحوم محمد جمعه الغيلاني . فأغلب شعره يبدأ باسم الله ، ويُختتم بالصلاة على رسوله ﷺ ، مثال ذلك قوله :

سميت باسمك يا بديع السموات
يا عالم بما في قلبي وضميره
يمصور الانسان في حسن صورات
ومزين الدنيا بشمس المنيرة

ثم يختتمها بقوله :

وصلوا على من خصه الله بآيات
يشفع لنا يوم الندم والعسيرة

(أغاريد البحر والبادية ، ص ٧١ ، ٧٥)

الألغـــــاز

واللغز شكل أدبي شعبي يتم عن طريق السؤال والجواب . والمثل الأعلى للفتاة المحبوبة في الشعر العماني هي الفتاة الذكية التي تفهم الاشارة وتتحدث بالرموز ، لذلك يقول شاعرنا لرسوله إليها :

أوصل إلى بوعيون ثليله
لي محرمني لذيذ المنامي

أي إذهب إلى ذات العيون الجميلة التي حرمتني لذيذ المنام .

حلو الوهد يا رفيقي اعتني له
بيفاكرك وانتبه يوغلامي

وحلو الوهد معناها أنها تبعث الأمن والسكينة في قلب من تأنس إليه ، فيلقى منها الرضا والايناس . واعتني له معناها إذهب إليها باهتمام . وبيفاكرك أي أنها تعرف قصدك بذكائها قبل أن تحكي لها ، وانتبه يا غلامي .

إن ناشدك خبره واستمع له
واخضع له الرأس عند السلامي

وفي الديوان أكثر من مساجلة شعرية بين شاعرنا وشعراء صور الآخرين مثل الشاعر سعيد ولد وزير الفارسي ، والشاعر حافظ المسكري ، والشاعر راشد الدهشمي ، والشاعر خادم بن راشد . يختبر فيها كل شاعر ذكاءه عن طريق الألغاز . من ذلك مساجلة بين شاعرنا محمد جمعه الغيلاني وسعيد ولد وزير . يقول الشاعر ولد وزير :

قم هات لي عالم لتفسير اللغات
وبرأيه القاضي يمن بمنته
لا هو من الأحياء ولا من الأموات
وبلا مهر حلت وجازت زوجته

إن الشاعر يسأل عن شيء له علم العلماء ، ويعرف كل لغات العالم ، ولا يستغني عنه القاضي حين يصدر حكمه ويسجل رأيه . وهو ليس كائنا حيا لكنه في الوقت نفسه ليس ميتا . وهو متزوج ولكنها زيجة بلا مهر ولا عقد ، ومع ذلك فعلاقته بزوجته علاقة حلال . ويأتي جواب شاعرنا محمد جمعه الغيلاني فيقول :

تكلفنا بفتح بواب مغلقات
عن لا تقولوا محمد شينه صحبته

ربي طراهن في الكتاب البينات
حبر وقلم اللي في ضنى تنعته

أي أنني ظننت يا سعيد أنك ستأتي بلغز صعب فَتَكَلَّفنا أي تهيأنا لفتح أبواب الأسرار المغلقة حتى لا تقول إن محمد شينة صحبته أي أن صحبة محمد سيئة . فإذا اللغز سهل فقد ذكره الله في كتابه العزيز فقال جل جلاله : ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ (سورة القلم) . وقال تعالى : ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم﴾ (سورة العلق) . وينبه الأستاذ سالم محمد الغيلاني إلى تواضع الشاعر حين يقول في أسلوب مهذب : أظنك (في ضني) أنك تقصد الحبر والقلم . (على هامش الشعر العماني ، المطابع العالمية ، روي ، سلطنة عمان ، د.ت. ، ص ٤٧ ـ أغاريد البحر والبادية ، ص ١٣٤) .

بعد ذلك يقدم الشاعر محمد جمعه الغيلاني بدوره لغزا فيقول من نفس الوزن والقافية :

قامت على أربع قوائم ميتات
تمشي وحمول في بطنها شلته
تمشي ولا ضني القوائم ثابتات
وعيالها كل ينوح بشلته

أي ما هو الشيء الذي يمشي على أربع ، وفي بطنه أو جوفه حمل أو جنين ، ولكن هذه القوائم الأربع غير ثابتة فهي خائرة مرتعشة ، ثم تزداد الصورة تعقيدا حين نجد أن كل من يسير من حولها أو خلفها ينوحون في جماعات .

ويجيب ولد وزير قائلا :

يا تاجر الفضة خذ م الذهب اميات
اليوم الخزائن والبنوك أمفلته

أي أنه يصف منافسه بأنه يتاجر في الفضة بينما هو يملك الذهب الأغلى ، وبأنه

يفتح أبواب خزائنه ليغترف الناس ما شاءوا . ونلاحظ هنا أن كل شاعر لا يذكر حل اللغز مباشرة بل يمهد له بمقدمة من بيتين في الأغلب يسخر فيها قليلا من منافسه ويعبّر عن ثقته في نفسه واستهانته بما يظنه منافسه أمرا يعسر عليه فهمه أو حلّه . لهذا ما يلبث أن يعود سعيد ولد وزير إلى اللغز ليحله قائلا :

تعني الجنازة . . وربي عالم النيات
عندي مشاهيد الكلام تثبته

أي أنك تقصد الجنازة .

هذا مثال واحد من مساجلة طويلة بين الشاعرين ، ولون من ألوان المبارزة في الشعر الشعبي .

وحدة الوطن والحبيب

والشاعر محمد جمعه الغيلاني - شأنه شأن شعراء الشعر الشعبي الآخرين - يرى في وطنِه حبيبَه وفي حبيبِه وطنَه فيقول :

ويا طارشي كان عندك دليلة
لا تهاب موج البحور الطوامي

والمعني ؛ يا رسولي إلى أرض الأحباب اجعل لك دليلا كأن تكون نجمة تسير على هديها ، وساعتها لن ترهب الأمواج العارمة ولا البحر الهادر .

واقطع مسير العشر وضح ليله
بيني وبين المحب مية زامي

والزام كلمة هندية هي وحدة لقياس المسافة في البحر وتعادل مسيرة ثلاث ساعات بالشراع أي حوالي اثني عشر ميلا بحريا . والمقصود أن المسافة بينه وبين المحب ما تزال طويلة . . مئات الأميال البحرية .

حذرك سبيل الدرب لا تعيله
عمّد على الياه عندك أمامي

وحذرك معناها حذار ، لا تعيله أي لا تغفل عنه حتى لا تضل الطريق ، وعمد أي ركّز انتباهك ، والياه هو الجاه أو النجم القطبي بلغة أهل صور الذين يقلبون الجيم ياء .

والمعنى أن تكون أيها الرسول حذرا لئلا تفقد الطريق ، واجعل النجم القطبي هاديا لك ومرشدا في هذه الرحلة ، ثم يقول :

لي مهجة مِلْمَوَدَّة نحيلة
في مغرب الشمس خاتم بهامي
إن دق ساري الليالي صهيله
حنيت من ونتي ومن غرامي

(أغاريد البحر والبادية ، ص ٨٤ ، ٨٥)

ومهجة كلمة فصيحة معناها قلب ، ومِلْمَوَدَّة أي من المودة ، وبهامي أي بهامي . والمعنى أن صهيل الخيول المنطلق في ظلام الليل يوقظ أعماق قلبي الذي حلته المودة أو أرهفه الحب . (على هامش الشعر الشعبي العماني ، ص ٥١ ، ٥٢) .

الغـــزل

ولعل من أجمل غزلياته هذه الأبيات التي لا تحتاج إلى شرح كثير :

يا طير يا طاوي المسافات بجناح
انت حثيث السير والبد تقصيه
بلغ وهات الرد لتكون بياح
واحفظ كنين لا على الغير تبديه

• • •

عندي وليف في قصي البعد مزاح

لمفارجنه كيفن النوم يهبيه
راعي المودة بات في قلبه جراح
ساهر ولا حصل طبيب يداويه

(أغاريد البحر والبادية ، ص ٨٠)

حتى يصف حبيبته وصفا حسيا ـ وهو سمة من سمات الشعر الشعبي ـ فيقول :

يا بو جبين كوكب الصبح إن لاح
دورة هلال كامل الشهر وافيه
...
والخد أحمر أبيض لون تفاح
بتقول فراخ الورد نابت فيه
وأما المباسم شهد ممزوج بالراح
قطر الشفا يبرا السقيم ويداويه
ضخم الظفاير يعدل العود إن ساح

إلى أن يقول :

ما نال ساعي الشر خير لورتاح
واللي سعى بفراق الله يجازيه
واللي قطع حبل المحبين سفاح

(أغاريد البحر والبادية ، ص ٨١ ـ ٨٣)

الاشادة بالتقاليد العمانية

وشعر محمد جمعه الغيلاني مرآة تعكس القيم العمانية الأصيلة من اعتزاز وفخر إلى حماية الجار وحب الجماعة والعفو عند المقدرة والترحيب بالضيف مثل قوله :

والضيف رحب به ببشه وفرحات

وصافي وكافي وثمرة الصفح راحات
واخفض جناحك للأهل والعشيرة
وخاوي خوي الصدق في كل الحالات

ويقول عن حبيبته وأسرتها مفتخرا بقومها :

عالي النسب بين أهل الفضيلة
أهل الكرم واللزم واحترامي
قوم يحبوا الفخر والجميلة
. . .
كل من قصد شرهم ما ينامي
إن أقبلوا أولاد عم أصيلة
من عرضهم يبعدون الملامي

(أغاريد البحر والبادية ، ص ٨٧)

أي أن بيت حبيبته بيت حسب ونسب وكرم يستحقون احترامه ، وهم يقومون بالأعمال الجميلة أو الطيبة لأنهم يحبون الفخر ، وكل من قصد بهم سوءا تنقلب عليه الآية فلا يأتيه النوم خوفا منهم . وهم متعاونون شرفاء أنقياء (على هامش الشعر الشعبي العماني ، ص ٥٧) .

ومن التقاليد العمانية التي تناولها في شعره ظاهرة الاعتذار أو ما يسمى بالشره ، وهو تقليد عربي أصيل في صور . فإذا غضب شخص فإن الجماعة تعتذر له بأن يلقي كل واحد أمامه سيفه أو خنجره أو أي سلاح عنده دلالة على أنهم سلموا له . وكأنما يقولون «فلتفعل بنا ما تشاء» . يقول شاعرنا :

عقب الشره نبدي لكم باب العذر
سمحوا الخطية منا وقبلوا المعذرة

(أغاريد البحر والبادية ، ص ١٢٣)

شـــعره الفصـــيح

وأخيرا فقد حرص الابن الوفي سالم محمد الغيلاني أن يضم إلى الديوان شعر والده الذي قاله بالفصحى . ولست أوافقه على سبب واحد لتردده في أن يفعل ذلك ، ففي شعره الفصيح قصائد لا تقل جمالا عما نقرأ له في شعره الشعبي . وهذا أمر منطقي لأن الموهبة التي يصدر عنها كلا النوعين من الشعر موهبة واحدة .

وقد خصص الأستاذ سالم الفصل الأخير من كتابه «على هامش الشعر العماني» للتعليق على شعر والده الفصيح . وكان قد ذكر في مقدمة ديوان والده أن ما دفعه إلى ضم القصائد الفصحى هو أنها فرصة للتعرف على نوع التعبير الذي يطرأ على الشعر عند ما ينتقل من دنيا الأدب الشعبي إلى ما أطلق عليه الأستاذ سالم الغيلاني «عالم الأدب الخاص» يقصد شعر الفصحى . وقد خلص في تعليقه في كتابه «على هامش الشعر الشعبي العماني» إلى أن شعر والده الفصيح ينتمي شكلا وموضوعا إلى الشعر الشعبي وإن كان مكتوبا بألفاظ فصحى ، وذلك لأسباب ذكرها نوجز بعضها فيما يلي :

ـ ائتناسه ببحر الرجز واستجابته الطبيعية لتفعيلته «مستفعل» .

ـ لا يطيق العمود الشعري أي الالتزام بتقسيم كل بيت إلى شطرتين متساويتي الوزن ، ولا الالتزام بقافية واحدة من أول القصيدة إلى آخرها . بل هو يلجأ في معظم الأحيان إلى المخمسات وهي مقطوعات يتكون كل منها من أربعة أشطر ذات قافية واحدة ثم شطر خامس له قافية تتفق وقافية كل شطر خامس في كل مخمسة .

ـ إن موضوعات شعره الفصيح هي نفس موضوعات شعره الشعبي .

ـ إنه يتخذ في بناء العمل الشعري الفصيح نفس التدرج النفسي والأدائي للشعر الشعبي .

ـ إنه يهتم في شعر الفصحى بالمجسمات والمحسوسات والملموسات ، بينما تقل المعنويات فكأنك تسمع وتتذوق ، وتلمس وتعانق وهذه سمة من سمات الشعر الشعبي .

- إنه لا يميل إلى الألفاظ الفصحى المهجورة ، ولا يستعرض قدرة بلاغية .
وهذا هو نفس ما يفعله في شعر العامية ، فهو لا يميل إلى اختيار الألفاظ الغريبة التي لا تستعمل إلا في المنطقة الشرقية .

إيقاعات الايمان المصاحبة للشعر الشعبي من خلال بدء القصيدة وخاتمتها موجودة في شعره الفصيح .

ولعل خير ما نختتم به هذا العرض قصيدته الغزلية الرقيقة العذبة التالية ، ولو أنها من ناحية الشكل قصيدة عمودية ، إلا أن فيها كثيرا من الملامح الأخرى لشعره الشعبي لعل أبرزها اهتمامه بالجانب الحسي في الحبيب ، وبساطة اللفظ ، وتشبيهاته المستمدة من البيئة العمانية كغُصَيْن البان والغزلان واللؤلؤ ، ثم طهارة الحب حتى انه لا يلقى حبيبه إلا في عالم الأحلام . إلى أن يختتمها بذكر البيئة في صور وما يتصل بها من رحيل وحنين إلى الوطن فيشبُه وصاله بحبيبته بعودة الغائب للأهل والأوطان .

مني التحية يا غصين البان
وسلام قلب زائد الأشجان
طيف الحبيب الم بي عند الكرى
فهتفت أهلا سيد الغزلان
يا زائرا شغف الفؤاد بحبه
البعد يأس ، والدنو أماني
قد طالما ستر البعاد جماله
فكأنني ناديته ، وأتاني
قبلته كلفا لفرط محبتي
وضممته بترفق وحنان
فشربت من ريق المباسم رشفة
وقطفت من ورد الخدود الداني
وصحوت منفردا ، ولم أر زائري

أيـن الـذي قـد مـر بي ودهـاني
يـا عـين جـودي بـالـدمـوع نـدامـة
بـعـد الـسـرور تجـددت أحـزاني
آه ! عـلى ذاك الجـبـين وضـوئـه
كهـلال شهـر الحـج أو رمضـان
والمقلة الـكـحـلاء إذ رمـقـت بهـا
سـهـم يشـق الـقـلب دون سـنـان
خـد أسـيـل والمبـاسـم لـؤلـؤ
والـريـق يشـفـي عـلة الأبـدان
والنحـر عـاج ، والـتـرائب دونـه
عـطر تـضـوع في ربى وجـنـان
والـقـد معـتـدل يتـيـه بـدلـه
والخـصـر أخمص ضـده الـردفـان
والسـاق منسـاب كجـدول فـضـة
هيفـاء إذ خـطرت كـغصن البـان
يـا مـن هـواه وحـبـه ، ووداده
شغـل الفؤاد ، وجاب كـل كياني
لـو كـان لي قلبـان دونكم الـذي
عـذبتمـوه ، ويسـتـريـح الـثـاني
لـكـن لـلانـسـان قـلبـا واحـدا
لا يـسـتـريـح لـكـثـرة الهـجـران
بـالله يـا أحـبـابنـا لا تـقـطعـوا
حبـل الـوصـال عن المحب العاني
الله يجـمـع شمـل كـل مـسـافـر
ويـرده لـلأهـل والأوطـان

(أغاريد البحر والبادية ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤)

الأدب الشعبى فى بلاد الشراع :

ديوان الشاعر سعيد عبد الله ولد وزير

الأدب الشعبي في بلاد الشراع
ديوان الشاعر سعيد عبدالله ولد وزير
جمع وتحقيق سالم بن محمد الغيلاني

مرحلة التكوين

ولد الشاعر سعيد ولد وزير عام ١٣٢٣ هـ في مدينة صور العمانية ، حيث فتح عينيه ليرى البحر يعانق تلك المدينة البحرية العريقة التي يزدحم تاريخها بشعرائها الشعبيين ويشتهر بجولاتهم في مبارزاتهم في مختلف فنون الشعر الشعبي مثل الرزحة والميدان والرمسة والمقابيد وغيرها .

وعند ما كبر شاعرنا الصغير حرص على الاتصال بكبار الشعراء الشعبيين يسمع منهم ويجلس إليهم مما ترك أثرا لا شك فيه في نفسيته وعقليته . ولم يقتصر اتصاله على شعراء مدينة دون أخرى ، بل أخذ ينتقل في داخل عمان وهو لا يزال في سن مبكرة يبحث عن شعراء معينين ليجلس إليهم فتقام «جلسات الشعراء» التي اعتاد العمانيون أن يقيموها كلما اجتمع شاعران شعبيان في مجلس واحد . ولا شك أن تنقل شاعرنا الشاب لمقابلة الشعراء الشعبيين الآخرين في داخل عمان كان من ناحية مرحلة من مراحل التكوين العملي بالممارسة ومواجهة الآخرين واختبار مدى تفوقه واكتساب مهارات جديدة عن طريق الخبرة والنجاح مرة والفشل مرة أخرى ، لكنه من ناحية أخرى وفي الوقت نفسه كان أشبه بالفرخ الذي يخرج من بيضته ليشق طريقه ويثبت جدارته ويسجل اسمه شاعرا شعبيا بارزا من شعراء عمان .

وفي وادي بني خالد ووادي بني جابر التقى بشاعر اسمه «سالم بن مالك» ، ودارت بينهما محاورة شعرية جامل فيها كل منهما صاحبه . ثم يواصل شاعرنا رحلاته

الداخلية إلى الباطنة من بلد إلى آخر حتى يلتقي بالشاعر «خلفان بلوه» ، وتدور المبارزة الشعرية بينهما ، ويحلو السمر ، وتستمر المحاورة بين الشاعرين حتى تشتد المنافسة بينهما وذلك من المغرب حتى الصباح . وفي الصباح يطلب شاعر الباطنة من ولد وزير إيقاف المبارزة بينهما بعد أن عجز عن الاستمرار أمام خصمه معترفا له بتفوقه عليه . انها مبارزة بلا رماح ولا سيوف ، أسلحتها الموهبة الأدبية وحضور البديهة والتمكن اللغوي ، وهو دلالة حضارية على شعب عمان ومدى ما يوليه للجانب الوجداني والفني .

ولد وزير فارس من فرسان الشعر الشعبي

وبعد الفوز في هذه المبارزة الشعرية يتردد اسم الشاعر ولد وزير في أرجاء عمان ، ويحاول كل شاعر أن يلتقي به ويساجله الشعر ، فيدعوه أحد شعراء عمان الداخل واسمه خلفان عبدالله الحراسي الملقب بطلحة ، وفي ديرة بني حراس بقرية جما يقبل الدعوة ، ويتم لقاء الشاعرين ، ويشترط الشاعر خلفان على الشاعر ولد وزير عدة شروط منها : أن يبدأ هو المساجلة ، وأن تكون القافية بالحروف الحلقية حيث تنطق القاف قافا فصيحة ، والسبب في ذلك يعود إلى أن نسبة عالية من سكان عمان الداخل متعمقون في علم النحو والصرف وشعرهم الشعبي متأثر بالفصحى . ويستجيب شاعرنا ولد وزير لشروط الشاعر خلفان الحراسي . وتبدأ المساجلة حتى يوجه شاعر الشرقية لغزا يطلب حلّه من شاعر الداخلية إلا أن شاعر الداخلية يتجنب الاجابة على اللغز ويكتفي برد التحية .

ويواصل الشاعر ولد وزير بحثه عن شعراء جدد في أراض جديدة ، فيركب البحر ـ الذي هو جزء من كيانه ـ حتى يصل إلى شرق افريقيا التي سكنها العمانيون ردحا من الزمان ، وأدخلوا فيها الحضارة الاسلامية . وفي الجزيرة الخضراء (أو جزيرة بمبا وتقع شمالي زنجبار على بعد ٣٢ ميلا) يلتقي بفحول الشعراء العمانيين وفي مقدمتهم الشيخ المسن الشاعر سعيد بن خميس ، وتبدأ المحاورة بين الشاعرين حتى يشعر ولد وزير هذه المرة أن شاعر الجزيرة بدا تفوقه واضحا ، وعليه أن ينسحب

من هذه المبارزة ، وهنا تبدو اللباقة في الفر كما بدأت في الكر فيلتمس منه العذر قائلا :

توه الدجى عسس يا والد واعتكس   بسـير أصلي واعبـد رب العـالمـين

قال الشاعر ولد وزير ذلك مع أن الوقت لم يكن وقت الصلاة ، إلا أنه أراد الانسحاب من هذه المساجلة بعد أن شعر بالحرج أمام شاعر الجزيرة ففضل الانسحاب بأدب وبطريقة مشرفة .

ويعود شاعرنا إلى صور مسقط رأسه بعد جولته الطويلة داخل عمان وخارجها برا وبحرا وقد صقل موهبته الشعرية وبارز من قابلهم من الشعراء فأثبت شاعريته .

حياته العملية وشعره يتفاعلان

بعد ذلك بدأ شاعرنا حياته العملية على طريقة أهل عمان في ذلك الزمان مسافرا من مكان إلى مكان ، مرة تاجرا يشتري ويبيع ، وأخرى نوخذا أي ربانا على إحدى السفن الشراعية الكبيرة التي كانت تجوب في عصره البحر من عمان إلى الهند شرقا ، وإلى الصومال وبقية ساحل افريقيا الشرقي غربا مما أثرى قريحته وغذى ملكة الشعر ووجدانه بروافد لا تنضب من الصور والأخيلة ـ على حد قول سعادة سالم بن محمد الغيلاني في مقدمة الديوان الذي جمعه للشاعر ـ فنتيجة لهذا اللون من الحياة العملية أحس شاعرنا بمشاعر الحنين والغربة وجرّب طعم الفراق وحرارة اللقاء فسمت مشاعره إلى آفاق انسانية رحيبة ، وانعكس كل ذلك على شعره بل ربما ألهبت موهبته الشعرية وأثراها بانطباعات ربما ما كان ليحصل عليها عن طريق آخر .

الفن الشعري عند ولد وزير

وقد قال الشاعر سعيد بن عبدالله ولد وزير الشعر الشعبي في معظم فنونه من فن الميدان إلى الرمسة إلى الرزحة وغيرها ، كما قاله في معظم أغراضه كالاجتماعيات والدينيات والنصائح والمبارزات والمحاورات والمناسبات والوطنيات والألغاز إلى

آخره . ولا شك أن الأستاذ الغيلاني قد بذل مجهودا عظيما في جمع هذه المجموعة الشعبية من الشعر من فم شاعرها أولا ، كما أنه قام بعمل رائع في حرصه على تسجيل هذا اللون من الشعر من شاعر ما يزال يعيش بيننا وذلك قبل أن يطغى تأثير الاذاعة والتليفزيون على مثل هذه الفنون فتفقد أصالتها وعراقتها ولا يمكن الحصول عليها مرة أخرى .

ولعل محاوراته من أطرف ما قال من شعر لا سيما موضوعاتها التي يختارها مثل محاورته بين التمر والنوى التي يبرز فيها مزايا وعيوب كل منهما ، والذي يلفت النظر أنه يجعل من التمر والنوى (أو الفلح) شخصيات كل منها يتحدث بنفسه عن نفسه ، فكأنها ارهاصات مسرحية أو بدايات درامية في الشعر العماني .

وقصة هذه القصيدة التي قالها شاعرنا في البصرة عام ١٣٥٧ أنه كان يحمل بضائع متنوعة ليبيعها هناك ويشتري تمورا بدلا منها كعادة التجار العمانيين الذين كانوا يشاركون البحارة العمانيين في أسفارهم الطويلة للتجارة . وقد قام جميع التجار بشراء تمرهم من البصرة من أجل بيعه في الهند والجازر العمانية (منطقة تقع في الجنوب العماني مشهورة بكثرة أسماكها وجودتها) ، وشراء توابل من الهند وأسماك مجففة من عمان . ولكن بدلا من أن تكون بضاعة شاعرنا تمرا أسوة بزملائه التجار اشترى نوى (وهو ما يسميه أهل عمان الفلح) وهو طعام جيد للماشية . فبدأ أصحابه يلومونه ويتهمونه بقلة التدبير وسوء التصرف لاعتقادهم أن بضاعته لن تجلب له إلا الخسارة . لكن بعد وصول سفينتهم إلى مسقط قام بعض التجار بتصريف جزء من بضاعتهم هناك فوجدوا أن سعر التمر منخفض جدا بينما النوى هو المطلوب ، فربحت تجارة الشاعر وخسر التجار الآخرون . ومن هنا جادت قريحة شاعرنا بقصيدته التي تحاور فيها كل من التمر والنوى .

كذلك هناك محاورة ذكية للشاعر بينه وبين المسجد الكبير في مدينة صور ، جعل فيها المسجد كائنا حيا يبث لوعته ويرفع شكواه مطالبا بإصلاحه . وفي تلك القصيدة نلمح علاقة الشعر الشعبي بالجانب الديني ، فهو يبدأ قصيدته بذكر اسم الله ، وتلك عادة الشعراء الشعبيين .

سميت باسمك يا أمان الخايفين   يا عالم باطن ضميري وظاهره

ويلفت الأستاذ الجامع النظر هنا إلى الطباق عند ما يجمع الشاعر بين كلمتي «باطن وظاهر» ، وفي الوقت نفسه يلفت النظر إلى أن ذلك اقتباس من القرآن الكريم . وبالمثل نلاحظ في كثير من الأبيات الأخرى اقتباساته وإشاراته إلى ما جاء في القرآن الكريم إلى أن يدخل في لب الموضوع وهو محاورته مع المسجد .

كذلك هناك قصيدة يقارن فيها بين الماضي والحاضر ومحاورة أخرى بين الشتاء والصيف . ونلاحظ أن مثل هذه المحاورات تنتهي عادة بصلح يعقده الشاعر في أبيات ختامية بين الأطراف المتحاورة . فمثلا في نهاية الحوار بين الصيف والشتاء يختتم الشاعر قصيدته بظهوره هو نفسه على المسرح بعد أن كان قد تركه لكل من الصيف والشتاء فيردد هذا الدعاء :

أطلب من الله كل مسلم ينتصر   بعيشة هنية وبعدها طول العمر
وقوة حماسية ونهضة تنذكر   في كل ديرة يبقى خبرها مشهور
والخاتمة صلوا على خير البشر
يشفع لنا يوم القيامة والحشر

معركة بين زوج وزوجة

ولعل أطرف المحاورات هو تلك القصيدة التي أجرى فيها شاعرنا حوارا ـ أو بتعبير أدق شجارا ـ بين زوج وزوجته تدخل فيه الشاعر ، سواء فنيا أو واقعيا ، وتمكن من حله وأعاد السعادة إلى قلبيهما . ونحن نلاحظ في هذه القصيدة ـ كما نلاحظ في قصائد أخرى ـ الألفاظ الحضارية لمخترعات القرن العشرين لا سيما تلك التي انتشرت لتنافس الشاعر الشعبي بل لتقضي عليه ، كالاذاعة والتليفزيون ، يمكن أن نقتبس منها بعض أبياتها كمثال لما نقول ، ونلاحظ أنه بدأها ـ كعادة الشعر الشعبي ـ بذكر اسم الله :

أبتدي باسمك يا ربي يا مجير   خالقي تعلم بسري والضمير
عبدك الخايف عليه ذنب كبير   أطلبك تغفر خطانا والزلل

ثم يبدأ الحوار ـ أو الشجار ـ بين الزوج والزوجة مباشرة كما في المسرحيات حتى يرى في النهاية أن الصلح أفضل (أنظر نهاية مقال «القصة في الشعر العماني») .

وأخيرا فإننا نشكر سعادة سالم بن محمد الغيلاني على ما بذله من جهد ليمتعنا بهذا الديوان الذي حفظه لنا من الضياع ، كما نشاركه شكر الاخوة الذين عاونوه سواء بالشرح أو الصورة أو التشجيع والذين ذكرهم وهم الأستاذ محمد الصليبي والفنان جمال قطب والشاعر البحريني المعروف علي عبدالله خليفة رئيس مركز التراث الشعبي لدول الخليج .

المحتويات

للمؤلف

(أ) قصص قصيرة :

١ ـ العشاق الخمسة ، طبعة أولى ، الكتاب الذهبي ، روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، طبعة ثانية ، الكتاب الماسي ، الدار القومية ، ١٩٦١ .

٢ ـ رسالة إلى امرأة ، الكتاب الذهبي ، روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٣ ـ الزحام ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٩ .

أعيد نشر قصص هذه المجموعات مع بعض الاضافات .

٤ ـ حلاوة الروح ، كتاب اليوم ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٥ ـ مطاردة منتصف الليل ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٦ ـ آخر العنقود ، كتاب اليوم ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٧ ـ الأم والوحش ، ١٩٨٢ .

(ب) نشر غنائي :

٨ ـ المساء الأخير ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(جـ) دراسـات :

٩ ـ دراسات أدبية ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٠ ـ دراسات في الأدب العربي المعاصر ، مؤسسة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١١ ـ دراسات في الحب ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
ويتناول مؤلفات التراث العربي في موضوع الحب والصداقة وقد أعيد نشره بعنوان «الحب والصداقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة» ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
١٢ ـ دراسات في الرواية والقصة القصيرة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
١٣ ـ اللامعقول في الأدب المعاصر ، المكتبة الثقافية ، مؤسسة التأليف والنشر ، ١٩٦٩ .
١٤ ـ الرواية المصرية المعاصرة ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١٥ ـ القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
١٦ ـ نماذج من الرواية المصرية ، «مشروع المكتبة العربية» ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
١٧ ـ القصة والمجتمع ، «سلسلة كتابك» ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٨ ـ شكوى الموظف الفصيح ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
١٩ ـ الروائيون الثلاثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
٢٠ ـ رحلتي مع القراءة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
٢١ ـ مع القصة القصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

(د) إعداد وتقديم :

٢٢ ـ سبعون شمعة في حياة يحيى حقي ، الهيئة العامة للكتاب «مشروع المكتبة العربية» ، ١٩٧٥ .
٢٣ ـ الليلة الثانية بعد الألف ، «مختارات من القصة النسائية في مصر» ، الهيئة العامة للكتاب «مشروع المكتبة العربية» ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

(هـ) ترجمات :

٢٤ ـ أوديب للكاتب اللاتيني سينكا ، إعداد تدهيوز ، «سلسلة المسرح العالمي» ، وزارة الاعلام ، الكويت ، ١٩٧٦ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٥٥/١٩٨٦

ISBN ٩٧٧-٠١ - ٠٩٥٥ - X